The Theory of Flight

نظرية الطيران

مكتبة
Telegram Network

سيبيواي جلوريا إندلوفو
ترجمة: سراج سراج

عصير الكتب

نظرية الطيران

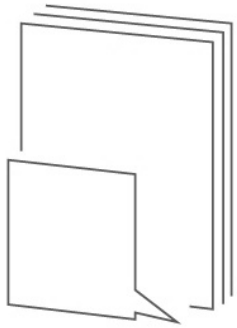

منحة الترجمة
Translation Grant

«مكتبة ♔ النخبة»

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Theory of Flight
- العنوان العربي: نظرية الطيران
- طُبِع بواسطة: Penguin Random House South Africa (Pty) Ltd
- طُبِع بواسطة: شركة بنجوين راندوم هاوس جنوب إفريقيا
- حُقوق النشر: 2018، سيبيواي جلوريا إندلوفو
copyright © 2018 by Siphiwe Gloria Ndlovu
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: سراج سراج
- مراجعة وتحرير: محمد المتيم
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أغسطس/ 2022م
- رقم الإيداع: 3239/2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-98-5

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» لتجارة الكتب
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

The Theory of Flight

نظـــرية الطيران

سيبيواي جلوريا إندلوفو
ترجمة: سراج سراج

عصير الكتب

الشخصيات

(حسب الظهور) إيموجين (جيني) زولا نيوني، أو جيني: والتي تدور أحداث القصة حول حياتها وموتها.

بينز تيكيتي (مولود باسم بافانا إندليلافي): جد جيني.

برودينس إنجوما: جدة جيني.

جولايد جوميدي (المولود باسم ليفينجستون ستانلي تيكيتي): أبو جيني.

إليزابيث نيوني: أم جيني.

مينينشي تيكيتي: أخت جولايد، وعمة جيني.

بنينجتون بوفورد: مزارع مستوطن، ومالك مزرعة بوفورد.

بياتريس بيت بوفورد: وريثة مزرعة بوفورد.

كوكي سيدجويك (لاحقًا كويتزي، وبعد ذلك كارمايكل): أعز صديقات بياتريس.

إيميل كويتزي: زوج كوكي، ورئيس منظمة الشؤون الداخلية.

موردخاي جاتيرو (المعروف بـ «ج10»): عضو في منظمة الشؤون الداخلية، ولاحقًا شريك مينينشي.
ثاندي هاديب (لاحقًا ماسوكو): إحدى ساكني مزرعة بوفورد، أم كريسِل؛ وأم جيني بالتبني.
ماركوس ماسوكو: ابن ثاندي ودينجاني، وصديق جيني.
كريسِل «كريس» ماسوكو: ابنة ثاندي ودينجاني، وأخت جيني بالتبني.
يونيس ماسوكو: أم دينجاني.
بيكيثيمبا نياثي: صحفي في جريدة الكرونيكل.
كوزموس نياثي: جد بيكيثيمبا.
(الرجل ذاته): الرئيس الحالي للمنظمة.
فالينتاين تاناكا: كبير أمناء السجلات بالمنظمة.
فيدا دي فيلييه (المعروف أيضًا بالراهب): متشرد، ولاحقًا شريك جيني.
دافيد: متشرد متعلم.
جولايث: طفل من أطفال الشوارع، وزعيم عصابة (ذا سيرفايفرز).
(ذا سيرفايفرز): عصابة من أطفال الشوارع.

ماتيلدا: مدبرة منزل (المنزل الذي بناه جاك).
ستيفانوس: بستاني في (المنزل الذي بناه جاك).
الدكتورة بريسكا مامبو: طبيبة جيني.
إيزميه ماسوكو: زوجة ماركوس.
زاندر دنجرفيلد: طبيب بيطري بملجأ إنقاذ الحيوانات.
المحاربون القدامى: شاغلو مزرعة بوفورد في الوقت الحالي.
السيد ميندیلسون: حانوتي.

تمهيد

في الثالث من سبتمبر، من عامٍ قريبٍ، حدث شيء رائع في مزرعة بوفورد، فقد رُئيت إيموجين زولا نيوني -أو جينيٍ- تطير لحظة موتها بجناحين عملاقين من الفضة، وفي اللحظة ذاتها تصلّب قلبها متحولًا إلى أجمل وأنفس شيء رآه المشاهدون في حياتهم.

حدثٌ اصطُفي لمشاهدته أقل القليل، ولا عجب في ذلك، فلأغلب الناس عيون لا تُبصر الجمال، ولهذا لن يصدقوا أن ظاهرة مذهلة إلى هذا الحد قد حدثت بالفعل، ولأن بعضكم ستساوره الشكوك، ولأن من لن تساوره الشكوك سيعتريه الفضول، فستُروى هذه القصة.

كأي حدث آخر، لم يكن ما جرى لجيني حدثًا في الفراغ، بل كان تتويجًا لهرم من الأنساب والسيَر والفلسفات الغائية والمعارف والأوبئة، كان ما جرى لجيني نتيجةً لطرائق العيش والتذكر والرؤية نتيجةً للمعرفة والموت.

بعبارة أخرى، إن حكاية ما جرى لجيني في مزرعة بوفورد في الثالث من سبتمبر، هي حكاية كيف قام بينز تيكيتي -في محاولةٍ لإطفاء حبِّه للترحال- بخوض مياه المحيط الهندي على قدميه، هي حكاية كيف قامت برودينس إنجوما بتعلم كيفية بناء الشخصية، هي حكاية جولايد جوميدي وكيف أسقط طائرةً وكيف تسبَّبَ هذا، بدوره، في نشأة سلالة جديدة من الملائكة. وهي حكاية كيف قامت إليزابيث نيوني بتقرير مصيرها باستدارة من كاحلها، حكاية دينجاني ماسوكو الذي جنّنته زهرات (البنفسج) على فستان أمه، حكاية ثاندي هاديب التي نظرت إلى الأفق كما لو كان يحمل لها مستقبلًا لا يعنيها كثيرًا، حكاية كريسِل ماسوكو، في مراهقتها، عندما اتخذت من الشعور بالذنب رفيقًا، حكاية الحب وكيف وقع فيه ماركوس ماسوكو تحت شجرة جكراندة، وهو يستمع إلى قصة عن فيلة تسبح في الماء، حكاية كيف احدودب ظهر فالينتاين تاناكا وحمل بين أضلعه قلبًا من ذهب، حكاية إنقاذ الفتى الراهب، حكاية مزرعة بوفورد وكيف عرفت تمامًا ما تصنع بتضحيات أعزائها.

الكتاب الأول

الجزء الأول

السلالة.. المنشأ

كحياة أي إنسان، كانت بداية جيني جميلةً صافيةً.

بعدما قضت إليزابيث نيوني ليلتها مع جولايد جوميدي، شعرت أن شيئًا يتحرك في الفضاء الذي شغله وهو يشق طريقه إلى قلبها، انتقل عبر جسدها ليجد طريقه فوق فراشها، عندما التقطته إليزابيث ووضعته برفق على راحة يمناها، وجدته بيضةً ذهبيةً براقة، في تلك اللحظة، أدركت إليزابيث أن قدرها قد خُتِم، وأن مصيرها أن تبقى مع جولايد جوميدي إلى الأبد.

وُلد جولايد جوميدي باسم ليفينجستون ستانلي تيكيتي، ولكن.. قبل أن يُولد يجب أن يلتقي والداه أولًا، وأيضًا.. قبل أن يلتقي والداه لا بد أن تتهيأ لهما الظروف التي متى التقيا في ظلها أمكنهما الاستفادة منها بالفعل.

وُلِد أبوه في مزرعة إيزولويني، وعُمِّد باسم بافانا إندليلافي، ولكم كان بافانا محظوظًا بأن يُولد في كنف إحسان السيد شالمرز! والسيد شالمرز مزارع نبيل، ولأنه كذلك فقد علَّم الصغيرَ بافانا القراءةَ والكتابة، لم يعلمه إياهما لأنه يؤمن أن الغلام الصغير سيتمكن، بالضرورة، من استعمال تلك المهارات في يوم من الأيام، وإنما -وبالأحرى- لأنها هي المهارات التي بإمكانه أن يعلِّمها للغلام، في أوقات فراغه.

جعل هذا من الصغير بافانا شابًا واسع الاطلاع، وهذا شيء نادر في ذلك الزمان؛ رجل أسود ذو تعليم جيد. حصل على وظيفة، دون تعب كبير، كمساعد لبائع رحالة يوناني، وهكذا أصبح شيئًا أكثر ندرةً؛ رجل أسود بإمكانه السفر بطول البلاد وعرضها.

أدرك بافانا أنه يحب السفر، وهام عشقًا بطبيعة بلاده، تلك الطبيعة المتناقضة في كثير من الأحيان، بين شلالات هائجة، وصخور تراصت وتأرجحت، متوازنة فوق بعضها في آخر الحال، بين زهرة تبدو كلهيب يزأر، من شعلة شهقت ذات يوم ولم تزفر بعدها. لكم كان يتمنى لو يعرف كيف يحتفظ بكل تلك المناظر والمشاهد التي وقعت عليها عيناه! لكن.. لم يكن لديه إلا ذاكرته.

احتفظ السيد شالمرز، في مكتبته -في كتب كئيبة المظهر، مغلَّفة بالجلد- بيوميات رجال عظام: دافيد ليفينجستون، وتوماس بينز، وهنري مورتون ستانلي، رجال استطاعوا أن يسجلوا ما اكتشفوه في أسفارهم، أحسَّ بافانا بالألفة تجاه هؤلاء الرجال الذين لم يرهم من قبل، هؤلاء المستكشفين، علم أن بداخله مستكشفًا مثلهم، مستكشف كان لينطلق في أسفاره لو لم يُبْتَلَ بأن يُولد في هذا الزمان النكِد، كما شعر أن اسمه الذي وُلد به -بافانا إندليلافي– لا يليق بمستكشف عظيم مثله، فاسمه يعني -حرفيًّا- «أيها الأولاد،

أين الطريق»، فغيَّرَه، أصبح اسمه بينز تيكيتي. تيكيتي -وتعني التذكرة- وهي شيء يشتريه من أراد الشروع في رحلة؛ أليس اسمًا لائقًا؟!

أدرك البائع المتجول اليوناني أن ثروته تكمن في وجود مساعده هذا؛ كان بينز ساحرًا بطبيعته، حتى أن قيود اللغة لم تمنعه يومًا من أن يجعل أشد النساء بخلًا وشُحًّا تمد يدها إلى تلك المساحة تحت صدرها الأيسر، تلك المساحة التي تحمل منديلًا كئيبًا، تَصُرُّ فيه بنساتٍ ستّ، تتّقي بها المرأة فقرًا مدقعًا.

كثيرًا ما طرأ التردد على هؤلاء النساء بمجرد خروج المنديل إلى الضوء، ولكن بينز حينها يشدو برطانة التجار وإغرائهم، فتبتسم المرأة وتومئ برأسها، أيْ: نعم، قبل أن تشرع في فك أوثق العرى وأشدها، مستخدمة أسنانها وأصابعها القاسية المتبلدة لتفتح منديلها، وتكشف عمَّا اكتنزته حتى تلك اللحظة؛ بنسات ست شقيَ لتحصيلها زوجٌ أو ابنٌ، فاغترب يعمل في المناجم والمزارع والمدن.

كانت النساء البخيلات يمضينَ وهنَّ يحملن كنوزهن، مصباحًا زيتيًا لم تلحظ بعدُ أن زيتَه يتسرب منه، وبطانيةً ناعمة لم تعرف بعدُ أنها قد يعلوها الوبر بعد أول غسلة لها، وفستانًا لم تتبين بعدُ أهو صغير للغاية عليها أم فضفاض، فهي لم يُسمح لها بتجربته، ومرآةً توشك حوافها الفضية على التلاشي، فالصدأ، والتآكل. وقعت في حب بينز نساءٌ صغيرات ونساءٌ كبيرات، متزوجات وغير متزوجات، مطلقات وأرامل، وحاول بينز –بدورِه- أن يحبّهنّ، ولكنه كان يحبُّ أسفارَه أكثر، وما أكثر ما فَطَر من القلوب! ولكن هذا، رغم كل شيء، لم يمنعه من أن يبيع رخيصَ الحليّ الأوروبية في أرجاء المستعمرة إلى نساء إفريقيات وثقن به.

ثم كان أن وصل بينز والبائع اليوناني في يوم من الأيام إلى جوكوكا -قرية سُرعان ما ستصبح مزرعة بوفورد، وحينها حدث شيء عجيب؛ لأول مرة يعجز سحر بينز عن استخراج ست بنسات من يد امرأة! وطامّة أخرى، لم تحمل المرأة بنساتها الست في مأمن تحت ثديها الأيسر، لا.. بل بين السبابة والإبهام، جاهزتين للتسليم، فقط لو أراها بينز شيئًا يُعْجبها. أراها حذاءً زعم أنه مصنوع من أفخر الجلود الإسبانية، فأكدت له أنه غير مريح، فعرض عليها مرآةً، فتعجبت، وسألته عن فائدة أن ترى صورتها وهي تعرف نفسها!

أراها زوجًا من أكياس الوسائد، وردية ناعمة بحواف رقيقة من الدانتيل، فسألته عن مكان الوسائد التي تُوضع بها (وهو سؤال لم يسبق أن سأله هو لنفسه) لم ينهزم تمامًا، فأراها الشيء الوحيد الذي ظن أنه ليس بإمكان امرأة أن تقاومه - تاجًا يليق بملكة، يتلألأ بأحجار الراين وبريقٍ خادع من معدن رخيص، فقالت له:

- أي ملكة تلك التي ترتدي تاجًا ببنساتٍ ستّ!

فحان دوره في السؤال.
- ما اسمك؟
- برودينس إنجوما.
- من أين؟
- من هنا.
- لا شك لديّ أنكِ سافرتِ من قبل، فإلى أين؟
- مدينة الملوك.
- هل تتزوجينني؟
رفع بينز حاجبه، ونظر إلى وجهها، فعرف أنها سمعت عرضه.
سألته:
- ومن أين أنت؟
- إيزولويني.
- لم أسمع بهذا المكان من قبل.
قالتها، فأدرك بينز من نبرة صوتها أنها لا تمانع في أن تسمع المزيد عن هذا المكان، بل أن تراه بنفسها ذات يوم. تزوّجا بعد وقت قصير، واستقرا في إيزولويني، ولم تفارق الست بنسات اللامعة والمغرية أناملها إلى أصابعه. قام بينز بكل ما في وسعه ليستقر، ولكنه لم يفلح في علاج هوسه بالسفر، عليه أن يسافر، أن يرى العالم، قد رأى وطنه، وهو الآن يتوق إلى أن يرى ما بعد حدوده. كحال كثيرين من الشباب، يمّم شطر جنوب إفريقيا، وعلى خلافهم، لم تكن وجهته مناجم الذهب والماس، بل حرص على أن يقوم بأي عمل يسمح له بالسفر، ما إن عقد عزمه حتى وجد وظيفة كبائع جوال يتاجر في آلات الجراموفون، وجدها وظيفة سهلةً، فالناس قد فُتِنوا بالإبرة السحرية العجيبة التي تتحرك فوق مسارات شُقّت في قرص أسود، فتصدح بأعذب الألحان، راح الناس يبتاعون الآلة دون حتى أن يستوعبوها، فهم يؤمنون بسحرها، على أي حال.
خشيت برودينس ألا يعود بينز من جنوب إفريقيا، كحال كثيرين من الشباب الذين رحلوا إليها، ورغم أنه كان يرسل إليها المال بشكل منتظم فقد بدا -لسنوات خمس- أن لديها ما يبرر قلقها. وفي يوم من الأيام، عاد بينز يحمل أحد الجراموفونات تحت ذراعه، وأهداه إلى السيد شالمرز، شكرًا له على إحسانه إليه، حتى لو كان هذا الإحسان نابعًا من الشعور بالملل، أمّا برودينس فلم يمنحها إلا ذراعه الأخرى، الفارغة، وهي مستلقيةٌ على صدره، تستمع إلى صوته العميق وهو يقص عليها قصصًا من عوالم بعيدة، ليتركها في حال من السلام والرضا صاحبتها إلى عالم الأحلام. حكى لها عن روعة ما رآه في جنوب إفريقيا، بعينين متسعتين تلمعان.

- جنوب إفريقيا دولة واحدة تلامس محيطين، أتتصورين ذلك؟!

حاولت برودينس أن تتصور، ولكن كيف وهي لم تر محيطًا من قبل! لم يتبق إلا أن تقرر الذهاب إلى جنوب إفريقيا لترى بنفسها. لسوء الحظ، توجب على برودينس أن ترجئ تلبية هذه الرغبة، فزيارة بينز قد خلّفتها وهي تنتظر مولودًا صبيًّا عمّده بينز -مراسلةً- باسم ليفينجستون ستانلي تيكيتي. انتظرت برودينس حتى أكمل طفلها عامين، لم تكن برودينس تثق بالسفر كما يثق به زوجها، فتركت ابنها في المنزل وسافرت وحدها، تحدوها رغبةٌ في أن ترى بينز والدولة التي أحبَّها كل هذا الحب.

لكنْ عندما وصلت برودينس إلى جنوب إفريقيا، وجدت بينز تحت سطوة هوس جديد -كائن غريب- يمكنه أن يطير في السماء كالطيور، أسماه الناس «طائرة»، وجدت صور هذا الهوس الجديد تغطي جدران غرفته الأربعة، بالنُّزُل الذي كان يمكث به.

- تخيّلي أن تكوني قادرة على رؤية العالم، كل العالم، في أيامٍ قليلة! لقد أصبحت السفن والقطارات أشياء من الماضي، أما الطائرة فهي المستقبل.

أشعّت عينا بينز ببريقٍ وتأثر صوته بإثارة طاغية، ومُعدية. وقت مكوثها في جنوب إفريقيا، ووسط كل صور الطائرات وأحاديثها، استطاعت برودينس أن ترى لنفسها حياةً هناك مع بينز وابنها، حياة ربما يمكنهما فيها أيضًا أن يطيرا بعيدًا ذات يوم. عادت إلى إيزولويني، وانتظرت بفارغ الصبر مجيء اليوم الذي يرسل فيه بينز في طلبها، هي وابنهما.

أخذ بينز ما يقرب من خمس سنوات ليُعِدَّ الحياة لزوجته وابنه، فقد أراد أن يتأكد من أن حياتهما لن تكون مريحة فحسب، بل مليئةً بالسفر أيضًا. اشترى منزلًا في البلدات المبنية حديثًا، اشترى سريرًا وأريكةً وموقدًا من نوع «مرحبا دوفر»، كما اشترى سيارة مكشوفة تقادمت عليها الأزمان، كان بإمكانه شراء أي نوع من السيارات، ولكن يجب أن تكون سيارة مكشوفة، فلم يكن يريد أن تتمتع عائلته بأجمل المناظر أثناء ترحالهم فحسب، بل أراد كذلك أن يرى الناس عائلته وهي تجوب البلاد. ما إن تحصّل على السيارة المكشوفة حتى أرسل في استقدام زوجته وابنه، وقاد سيارته، مكشوفةً، طيلة الطريق إلى محطة القطار.

لسوء الحظ لم يكن الأمر مقدرًا له أن يحدث، فعندما رأى بينز ابنه علم أنه لا يمكنه أن يسافر معه؛ فبشرة ابنه بالغة البياض، والتي بدت ناصعة شفافة، تجعله عرضة للتأثر بظروف الطبيعة؛ سيتوجب عليهم دائمًا أن يسافروا وغطاء السيارة عليها!

شاهد ابنه وهو يحدِّق مذهولًا إلى صور الطائرات على الجدران، شاهده يرسم طائرات فوق صفحات دفتر مبيعات قديم من دفاتر مبيعات الجراموفون، شاهده وهو يصنع نماذج للطائرات من أسلاك خلّفها عمالٌ بنوا

سور المبنى، افتُتِن بينز تيكيتي بالصبي، أحبَّه، ولكنه عرف أنه لا يمكن لهما أن يتشاركا حياة واحدة، لو علم بحال الصبي من أول الأمر! أما كان ليُعد لهما حياةً مختلفةً، تمامًا؟! سأل بينز برودينس لِمَ لَمْ تخبره بالأمر، فانفطر قلبها وهي تجيبه:

- وأي فارق يصنعه هذا الأمر؟!

وانفطر قلبه وهو.. وهو يعيد إرسال عائلته إلى إيزولويني.

كان من الممكن أن تعود برودينس إلى وطنها وهي تشعر بالإهانة، إلا أنها لم تفعل، كل ما شعرت به حينها هو الندم، ندمت على أنها لم تفهم تمامًا طبيعة الرجل الذي اختارته زوجًا لها. وأيضًا عادت بشيء آخر، لم تعلم به، بجنين ثانٍ، بنتًا هذه المرة. غادرت برودينس إيزولويني وعادت إلى مسقط رأسها، الذي تحوَّل في غيابها إلى مزرعة بوفورد.

أمّا ليفينجستون ستانلي تيكيتي فقد عاد إلى منزله بذكرى عن أب بعيد، وبمعرفة وفهم عن عالم الطيران.

رغم أن بينز أدرك أنه لا يمكن أن يعيش الحياة التي يرغب فيها مع عائلته، فإنه لم يزل يحبهم، واستمر في إرسال المال، بشكل منتظم. ولأن برودينس تُقدّر الابن الذي منحها إياه بينز وتعتز به، فقد وجدت أنها لم تعد قادرة على تبادل الحب مع رجل أحمق، أعمى، عجز عن رؤية الجمال في ابنه، فردت -بشكل منتظم كذلك- ما كان يرسله لها هذا الأحمق الأعمى من أموال.

وفي يوم من الأيام، استلم بينز تيكيتي إشعارًا جديدًا من البريد: «يُعادُ إلى مرسِله»، قاد تيكيتي سيارته المكشوفة صوب المحيط الهندي، وترجّل، ثم خاض المياه، تاركًا جسده لتحمله الأمواج إلى حيث لا عودة. عندما وصل النبأ إلى برودينس، دعت الله أن يكون هذا قد شَفى –أخيرًا- غرامه بالسفر!

لم تتعلّم برودينس من حياتها مع بينز تيكيتي سوى درس أساسي واحد: شخصية المرء أهم ما فيه، من الرائع أن تكون ساحرًا.. قادرًا على كسب قلوب من حولك، ولكن السحر ليس له أساس قوي، فهو شيء يعتمد على كثير من الصفات الأخرى. أما الشخصية، فشأنٌ آخر، الشخصية شيء تضع بذرته، وتسقيه، فيكبر على عينيك، ثم تحصد ثماره. تنبع الشخصية من قوة ذاتية، وتضخ الطاقة في حياةٍ يسعى صاحبها إلى المعالي. نشَّأت برودينس أطفالها على التحلّي بشخصية قوية، على الفخر والقوة، وعلى ألّا يخشوا الضعة والضعف، على أن يبقوا هاماتِهم مرفوعةً وألا يشعروا بالهزيمة، أو تبدو على وجوههم أماراتها، مهما كان ما تلقيه الحياة في دروبهم.

في ظل هذا التفاؤل ورجحان العقل، ترعرع ليفينجستون ستانلي تيكيتي، قائدًا بفطرته، يعينه في ذلك رباطة جأش تصحبها ثقة في النفس غرست الثقة به في نفوس من حوله، وانجذب الناس إليه؛ هو ليس كما توقّعوا لمن هم في مثل حالته، حسبوا أنه سيخجل من لون بشرته، وأنه سيقضي حياته جبانًا،

يتحسر على حاله، لكنه رفع هامته بين السحاب، حينها أدركوا عِظَم المُمْكِن، عِظَم الأحلام. آمنوا أنه رأى المستقبل، وآمنوا أن المستقبل -الذي رآه- مستقبل طيب. إن شئنا الدقة، فلم يكن عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا؛ إذ مجرّد وجوده يحمل وعدًا لهم، وقد سَرَّ الناس أن يتبعوه.

كان ليفينجستون رجلًا يفكر في الأشياء بعمق ويحد النظر في جوهرها، ولذا عندما قامت الحرب، تفكر مليًّا في الأمر، ثم رأى أن قضية (مقاتلي الحرية) قضية عادلة فقرر أن يقاتل معهم إلى النهاية.. أو إلى نهايته. لم يأخذ معه إلى الحرب سوى ما كان عليه من ثياب، ورغبةً محمومةً في دحر الظلم، وحاجةً ملحةً من بطن شبه فارغ، وإرهاصات ظمأ لا يرتوي، ودفتر مبيعات الجراموفون بكل ما به من رسومات للطائرات. اختار أن يكون اسمه الحركي «جولايد جوميدي»، أو حقول من الذهب، فهذا ما كان يريده لشعبه بعد الحرب، أن يحيوا حياة الوفرة، حياة الراحة، حياةً ذات قيمةٍ، حياةً حقيقية، حياة ذات شأن، وعندما شارك رؤيته مع الناس تحمّسوا لاتِّباعه.

لكن قبل أن يصبح قائدًا للرجال، حدث أن رأى أحدُ قادة المعسكر دفترَه مليئًا برسومات الطائرات، فأرسله إلى الاتحاد السوفييتي، ليدرس هندسة الطيران. صبر جولايد صبرًا جميلًا على قسوة المناخ السوفييتي البارد، فهو يعلم أنه متى وضعت الحرب أوزارها، وأقبل الاستقلال، فسيحتاج الناس إلى أن يعرفوا أن بإمكانهم الطيران.

عندما عاد قاتل بعزم وتصميم، وكانت حربه حربًا جيدة. نشأ جولايد على الرضا بما في يديه، مما جعله يشعر على الدوام بأنه يحيا حياة كاملةً. وذات يوم، وبينما هو في مهمة استطلاعية عند شلالات فيكتوريا، رأى كاحل امرأة من فتحة باب بإحدى صالات الجعة، استدار الكاحل برقةٍ ودلال، وبينما يدنو رأى أن الكاحل يفضي إلى قدم في حذاء أحمر قان، ثقيلٍ، الآن وقد رأى جولايد الكاحل، فلم يعد بوسعه أن يكتفي بما رأى، أراد المزيد، أراد أن يكون هذا الكاحل جزءًا من حياته.

رأى نفثةً من دخان، وسمع ضحكةً مبحوحةً، لم يجد أمامه إلا أن يفتح الباب، وها هي أمامه! كمفاجأةٍ طرقت بابه، ها هي المرأة التي ستحدد مسار حياته، من تلك اللحظة.. وإلى الأبد. بشرتها سمراء داكنة، وعلى عينيها رمشان لم ير في حياته أطول منهما، ولجسدِها امتلاءٌ راق جسده. كان شعرها مضفرًا، ومقسّمًا بدقة لم تلائم طلتها بأي حال، أيًّا كان من ضفَّر هذا الشعر فهو لا يعرف هذه المرأة من وقت بعيد! هذا هو حُكْمُ جولايد القاطع! تركت المرأة سيجارةً تتدلى بحرّيّة من شفتين مكتظتين شهيتين، وهي تمد يدها نحو شعر ذهبي كأنه معلقٌ في الهواء، فتناولته، ووضعته برفقٍ شديد على رأسها. زادها الشعر الذهبي حُسنًا إلى حسنها، حتى لو كان هناكَ شخصٌ آخر في الغرفة، (فمن المؤكد أن) جولايد لم يره، لم ير أحدًا.. سواها.

بعد ردح من الزمن، نظرت إليه المرأة في المرآة التي تجلس أمامها، وأخذت نفسًا عميقًا من سيجارتها، ثم نفثت دخانها على مهل، وعاينته، ثم هزت كتفيها بلا مبالاة، وقامت، قالت له وهي تمر من أمامه:

- في انتظارك، قطعًا ليست هذه طريقة تعامل بها سيدةً!

لا شك أنها كلمات غير واعدة، ولكنها أراحت يسراها على كتفه وهي تنطق بها، وقد كان هذا كافيًا لتقرير مصير جولايد.

وهكذا كانت البداية. المرأة هي إليزابيث نيوني، مطربة تغني اللونين؛ الغربي والريفي، على غرار دوللي بارتون. اجتذبت جمهورًا كبيرًا، راح يفيض من الصالة إلى الحديقة. غنت أغاني سعيدة، وغنت أغاني حزينة، كلها عن الحب؛ عن اكتشاف الحب، وعن فقدانه، وعن استعادته، عن حب بلا مقابل، وعن حب لا يُنسى، وعن حب ساءت به الأحوال. في تلك الظهيرة غنت كل أغانيها له، لجولايد جوميدي، الرجل الذي -دون أن يدري- أبقاها في انتظاره. غنت أيضًا أغنية عن كلب، عرف -من قسمات وجهها وهي تغنيها- أنها لم تكن تغني عن كلب، على الإطلاق.

بينما كان جولايد يشاهد الفرقة وهي تحزم آلاتها لترحل، ويرى إليزابيث وهي تصد مغازلات المعجبين، شعر أنهما كانا بالفعل في رحلة معًا، رحلة عبر شرارات الحب ومآلاته، عبر قممه وقيعانه، شعر أنهما بالفعل يتشاركان حياةً؛ بماضيها، وحاضرها.. ومستقبلها.

لم يطلب جولايد وإليزابيث من بعضهما بعضًا شيئًا كبيرًا، أخبرته أنها بحاجة إلى أن تشق طريقها إلى ناشفيل، بتينيسي، لتصبح مطربةً تغني اللونين الغربي والريفي، ذائعة الصيت، ووعدها أن يأخذها إلى هناك في يوم من الأيام. أخبرها أنه ينوي -بعد الحرب- أن يبني منزلًا في مزرعة بوفورد، ووعدته أن تمضي قدمًا وتعد له منزلًا. وعلى كل، فقد أمضيا معًا أفضل تسع ساعات ذلك اليوم، ولكنها كانت كافية تمامًا لإرساء بنائهما المتين.

بعد أن التقى جولايد إليزابيث نيوني، فجأة أصبح لجزء من حياته مغزى عنده؛ فكل تلك الساعات اللانهائية التي قضاها في رسم ونمذجة الطائرات ومحاولة تحديد القوى الفاعلة في عملية الطيران، لم تكن تتعلق بتجسير تلك المسافة البعيدة التي خلّفها غياب أبيه، ولكنها كانت ساعات يُعِدُّ فيها نفسه، ليكون لوجوده قيمة في حياة إليزابيث، في المستقبل.

وفي ذلك المستقبل رأى نفسه يبني زوجين عملاقين من الأجنحة الفضية، رأى الناس تنهمر من كل حدب وصوب لتشاهده وهو يبنيها، بين مفتون، ومكذّب، وناظرٍ شماتةً، ووسط المكذبين رأى حفنة من المؤمنين، تنظر إليه بإعجاب، وحب، وثقة، عرف من نظراتهم، دون أدنى شك، أنه قادر على صنع المعجزات.

عرف جولايد أن بناء الطائرات عملٌ مكلفٌ، وأنه لكي يصبح قادرًا على الطيران، فلا بد من ثمن. احتاج إلى شراء مكونات الطائرة، وإلى أن يصنع بعضها، كما يجب تعليم وتدريب الأفراد، جنبًا إلى جنب مع كسر احتكار الدولة للتصنيع، وجعله نشاطًا لا مركزيًا، جعلت هذه العوائق جولايد يقضي معظم وقته في البحث عن طرق يقنع بها الناس أن بإمكانهم أن يطيروا دون أن يكلّفوا أنفسهم شيئًا.

جاء الحل إلى جولايد يومًا وهو ينظر إلى السماء الزرقاء الصافية؛ إذ رأى طائرةً من طراز فايكرز فيسكاونت، ففهم على الفور ما الممكن. كانت هذه الطائرة طائرة ركابٍ، تحلق فوق نهر زامبيزي كل يوم، قرر جولايد أن يُسقط الطائرة باستراتيجية يمكن أن تهبط الطائرة بها فعليًا في حرب العصابات هذه دون أن تتحطم، بهذه الطريقة يمكنه أن يعلّم الناس كيفية عمل الطائرات قبل أن تضع الحرب أوزارها -قبل الاستقلال- بلا تكلفة. راقت الفكرةُ قادته؛ إذ رأوا أن بوسعهم أن يستخدموا المدنيين على متنها كأسرى حرب، على أمل أن يتفاوضوا لإنهاء الحرب على الجانبين، وعسى أن يحققوا أخيرًا حلم الدولة الذي يقاتلون من أجله.

في 3 سبتمبر 1978، وجولايد جالس يتأمل في روعة شلالات فيكتوريا، ينتظر أن تحلّق الطائرة في أجواء المنطقة، فكر كيف نجا فريدريك دوجلاس، قبل 140 عامًا بالضبط، من ربقة العبودية، لم يفكر في هذا ليبرر أفعاله، بل فكر فيه لأنه مما يمكن أن يخطر ببال المرء وهو ينتظر أن يُسقط طائرة.

أثناء تحليق الفايكرز فيسكاونت في السماء، صوّبَ جولايد صاروخه المضاد للطائرات، وفي تلك اللحظة ظهر بجماله المهيب وروعته قطيعٌ من الأفيال، يثير فتنةً من الغبار، تحت أشعة شمس السافانا. رفع قائد القطيع خرطومَه، وأصدر نهيمًا جليلًا، فتوقفت الفيلة، فيلًا فيلًا، على جانب من جانبي شلالات فيكتوريا، ثم غاص الفيل قرب البقعة التي تندفع فيها المياه فوق الحافة، وراح يعبر نهر زامبيزي. كان النهر العتيق، والحيوان الجبار، يرقصان بتناغم وانسجام. كان هذا طقسًا مقدسًا للعبور، يتطلب جرأة مطلقة، كان في الأمر شيءٌ عجيب؛ إمكانية ما يبدو مستحيلًا! كان هناك شعورٌ بأن جولايد قد حصّل.. معرفةً. لقد أدرك موقعه من العالم، أدرك أنه لم يكن إلا ذرة في الخطة الكبرى للأشياء، مجرد ذرة صغيرة، ولكم كان هذا كافيًا! فهي معرفة تأتي ومعها الحرية، بل والجمال كذلك، إنها ذلك الصنف من العلم الذي يمنحك جناحين، ويسمح لك بالطيران.

أطلق جولايد صاروخه، ثم لاحت له رؤية، رأى إليزابيث في طريقها إلى مزرعة بوفورد، تحمل بيضة ذهبية، تصبح البيضة الذهبية ثقيلةً عليها، فتسقط منها، تنكسر البيضة، لتخرج منها فتاة، كان للفتاة فرجة بين ثنيتيها، وهكذا

عرف جولايد، بيقين جازم، أنه هو وإليزابيث قد جاءا للدنيا بحياة جديدة، بابنة هي إيموجين زولا - أو جيني. انفجرت الفايكرز فيسكاونت بضوء ذهبي باهر.

الجزء الثاني

التاريخ

بوفورد

راح جولايد جوميدي يرقب الطائرة وهي تقطع المسافة إلى الأرض ككرة عظيمة من النار، ولم يكن ليدري أن العدو سيسعى للثأر، لهذا العمل تحديدًا، هذا العمل الذي جعل منه بطلًا في عيون كثيرة، وشريرًا في عيون أخرى. فهمَ جنون الحرب، وعرف أنه ما من سبب وجيه لما يقع بها من ضحايا، وأنه ليس هناك خطوط واضحة بين السبب والنتيجة، لم يكن بإمكانه أن يعرف أن حفنة من الرجال لديهم فَهْمٌ منحرفٌ للعدالة سيخطون خطًّا مباشرًا من إسقاط الفايكرز فيسكاونت، ويتبعونه كالنهر الدافق إلى مزرعة بوفورد، فيصبوا عليها انتقامًا لا هوادة فيه.

ولكنَّ الحقيقة أن الخط قد وصل إلى ما هو أبعد، عبر جولايد جوميدي وما وراءه، فربط بينه، بتلك الطرق العجيبة التي لا تقدر عليها إلا الجغرافيا، وبين بياتريس بوفورد، وريثة مزرعة بوفورد، وواحدة من الناجين من الطائرة المنكوبة. حياتان منفصلتان عيشتا في نفس البقعة من الأرض، قاربت بينهما إلى هذا الحد فكرةٌ نشأت قبل فترة طويلة من ظهور جولايد وبياتريس نفسيهما، في عقل رجل يُدعى بنينجتون بوفورد، وهو يجلس في كرسيه، ويدخن غليونه، وهو يرقبُ انطفاء لهيب بعض الجمر، عساه يُسكت تلك الضوضاء التي تعتمل بين جوانحه.

أصبحت قرية جوكوكا الخضراء المورقة مزرعةَ بوفورد، بنفس الطريقة التي أصبحت بها معظمُ القرى مزارعَ للمستوطنين في المستعمرات. لسوء حظ بنينجتون بوفورد لم يرث من العائلة إلا اسمها، ولم ينله أيُّ حظ من ثروتها ومنزلتها وشرفها الذي اكتسبته عبر القرون، كل هذا بسبب جموح تكهنات والده، إلا أنه حظي -بضربة من ضربات القدر- بفرصة لتمييز نفسه أثناء الحرب الكبرى، فقرر أنه لربما كان من الملائم تمامًا له أن يحظى بحياةٍ في المستعمرات. لطالما تخيل أنه لو شرع في أن يكون مزارعًا نبيلًا، لحقق في هذا الشأن نجاحًا كبيرًا. حينها كان قد شرع في البحث عن قطعة أرض يمكنه أن يحصل عليها بأقل مجهود، ودون أن يكلّف نفسه كثيرًا. كان أمامه العديد من المستعمرات، يختار من بينها، فاستغرق منه الأمر بضع سنوات حتى وجد المكان المناسب، وعلى مساحة مائة فدان، كان المكان الذي استقر فيه -جوكوكا- مناسبًا لاحتياجاته.

كان بنينجتون رجلًا منصفًا، فطلب عدم إجلاء الأفارقة الذين عاشوا على الأرض لقرون طويلة. كان يحمل خططًا كبيرةً لمزرعة بوفورد، وهي خطط

تتطلب لتنفيذها أياديَ عاملة. لم يغب عن باله أن عمالةً جاهزة ومتاحة أقلّ تكلفة من عمالة تُستقدم من بعيد. كما كان رجلًا على درجة عالية من الكفاءة، واستغل الأرض والأفراد أحسن استغلال، فلم تمر عشر سنوات إلا وقد أضحت مزرعته شريانًا من شرايين حياة المستعمرة؛ زرع الذرة، وقصب السكر، والقطن، وربّى الماشية والأغنام، والخنازير والدجاج، كما شيّدَ معامل التكرير، والمسالخ، والطواحين على أراضيه. حوّل القرية إلى مجمّع عصري، وبدلًا من البيوت الطينية المستديرة المسقوفة بالقش بنى غرفًا خرسانية مربعة تحت ألواح مموّجة من مادة الأسبست. كان كل من يعيش في المجمّع يعمل في المزرعة بشكل أو بآخر. ولأنه رجل كريم، فقد بنى مدرسةً للسكان الأصليين فوق أرضه.

بعد أن أسس بنينجتون نفسه على هذا النحو، تزوَّج من روزماري بيت، وهي امرأة من أنقى السلالات الرائدة، لم تتعافَ تمامًا من أثر سقطة سقطتها من فوق ظهر حصان في طفولتها. ولكم كانت كريمة بأن ماتت بعد عملية الولادة مباشرةً! مخلّفةً لبنينجتون طفلةً.. وريثةً، ربما ليست وريثًا (من الرجال)، ولكنها وريثٌ على كل حال. أثناء رحلة إلى هولندا مع أبيها، أظهرت الفتاة الصغيرة حبًا لزهرة عباد الشمس، فخصّص بنينجتون بضعة فدادين لزراعتها.

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، أثبت بنينجتون أنه لا غنى عنه في الحرب؛ فقد صنعوا لباس الجنود من قطنه، واقتاتوا على معلباته، وأتاحت جلوده انتعال الأحذية. أصبح أغنى رجل في المستعمرة. عندما مات في حادث سيارة مؤسف في سنة 1948، أصبحت ابنته ووريثته، بياتريس بيت بوفورد، ذات الأحد عشر عامًا، أغنى شخص في المستعمرة.

وفي الثالثة عشرة من عمرها، التحقت بياتريس بمدرسة إيفلين الثانوية، وامتازت عن زميلاتها بكونها ابنة الرجل الذي رأى معظم الناس أن له دورًا حيويًا في نمو المستعمرة الاقتصادي، أثناء الحرب وبعدها؛ ضمِن هذا لبياتريس احترامًا كبيرًا ونجاحًا سهلًا، إلا أنها لم تُسهِّل الأمر على من رغب في منحها أي امتيازات خاصة، فقد كانت فتاةً ذات عقلية متفتحة، حتى إن أفكارها -خاصة فيما يتعلق بحقوق الإفريقيين ومعاملتهم- أخافت من حولها، بمن فيهم كوكي سيدجويك، الفتاة التي ستصبح صديقة عمرها.

تشككت بياتريس في كل شيء، وفي كل شخص، وتحدّت الجميع، بينما لم يكن لدى كوكي أي فكرة نابعة من ذاتها، ورضيت بما اعتنقت عائلتها ومجتمعها ووطنها من آراء ومعتقدات جملةً واحدة. أحبَّت عائلتها، ومجتمعها وبلدها، فلم تعتقد قَطّ أنه يمكن أن يكون أي منهم على خطأ، ولا أنهم -جميعًا- يساهمون في تأسيس وإبقاء نظامٍ، ليس في جوهره إلا ظلمًا وجورًا. لم تتفق كوكي تمامًا مع مفاهيم بياتريس، بل ونظرت إليها على أنها أفكار متهورة، إلا أنها أُعجبت باستهانتها بكل ما آمنت به (كوكي). ولأنها ليست على نفس القدر من

الشجاعة التي لدى بياتريس، فهي ليست بنفس القدر من الجرأة والتحدي، وقنعت بأن تعيش بشكل غير مباشر من خلال صديقتها، واكتفت بأن تعرف أن هناك طريقةً أخرى للتفكير والعيش. أما بياتريس، فلم تحاول قَطّ جعلَ كوكي تشاركها آراءها، كما أنها شديدة الثقة بنفسها، ومؤمنة بأن طريقة تفكيرها عادلة، وصائبة، وسليمة، وبالتالي ليست بحاجة إلى البحث عن أتباع. ولأن كلتيهما تقبَّلت صاحبتها على ما هي عليه، ولم تسعَ قَطّ لفرض قناعتها عليها، فقد صارتا أفضل صديقتين.

الشيء الوحيد الذي هدد أواصر هذا الرباط هو إيميل كُويتزي، رجل لم تستطع يومًا بياتريس احترامه، رجل أحبَّته كوكي، ثم تزوجته.

بعد إتمام دراستها بمدرسة إيفلين، رحلت بياتريس إلى جامعة أكسفورد، لتعود بعد خمس سنوات، كواحدة من الهيبيز، وربما توقع بعضُهم هذا؛ فهو فجر الستينيات، وهو العصر الذي كان قد مثَّل وجودًا سعيدًا لأمثال بياتريس في العالم بأسره. لم تكن بياتريس مرتاحة بالمرة لعظمة ميراثها، فحولت مزرعة بوفورد إلى مجتمع متعدد الأعراق ومستعمرة للفنانين. تركت إدارة مزرعة بوفورد لرئيس العمال، وبدا أنه لا يعنيها سواء أقام بعمله على نحو جيد أم لم يفعل.

لكن إيميل كويتزي، زوج كوكي، اهتمَّ اهتمامًا كبيرًا بمزرعة بوفورد وبالطريقة التي تُدار بها، وبصفته رئيسًا للمنظمة الوطنية للشؤون الداخلية، وَجَدَ من الأدلة على الاختلاط بين الأعراق ما يكفي لتوجيه تهمة انتهاك القانون ضد كل من يعيشون في المزرعة، ورغم أن الدولة راعها ما يجري داخل المزرعة، فإنها تردَّدَت في الإعلان عنه، كما أنها تحسّبت كثيرًا لمعاداة بياتريس بيت بوفورد؛ فهي لم تزل أَوْفرَ أهلِ المزرعة ثراءً، ولم يزل لمزرعتِها أهمية بالغة للوطن -خاصةً في تلك الأوقات التي تبدو الدولة فيها متجهة نحو حرب أهلية، لكن جاءت سنة 1965، وأنجبت بياتريس بيت بوفورد توأمين ملونين، منتهكةً بذلك قوانينَ الدولة المناهضة لتمازج الأجناس، فقررت الدولة أنه لا يمكن الوثوق بها؛ طُرِدت بياتريس وضيوفها بتهمة «السلوك غير القانوني»، وبحجة أنهم مقيمون «غير لائقين».

عندما احتدمت الحرب ولم تعد مجرد بضع مناوشات هنا وهناك، متحولةً إلى حرب عصابات شاملة، دعمت بياتريس بيت بوفورد الإرهابيين («القوميين الأفارقة» كما اعتادت أن تسميهم) دعمتهم بحماس، بالقول والفعل، وآمنت، كما آمنوا، أن الأغلبية يجب أن تحكم.

عندما اكتشف إيميل كُويتزي أن بياتريس تدعم بمالها القوميين الذين ينفذ جناحهم العسكري هجماتٍ إرهابيةً في جميع أنحاء البلاد، وجد الفرصة سانحة أمامه، فوجه لها تهمة الخيانة. كانت بياتريس تقضي عطلتها في شلالات فيكتوريا، مع توأميها، عندما تلقّت أمر استدعاءٍ للمثول أمام القضاء. في

طريق عودتها حدثت الكارثة؛ فالطائرة التي كانت على متنها -طائرة الفايكرز فيسكاونت- تم إسقاطها من قبل جولايد جوميدي. مات الكثيرون، مات توأما بياتريس، ومات الشرطي الذي كان يصطحبها للمثول أمام القضاء، وماتت المضيفة التي كانت في تلك اللحظة ذاتها تقدم لبياتريس كأسًا من الشندي المالاوي، ولكن بياتريس نجت، ونجا معها إيمانها بمجتمع عادل.

كان هناك سيل جارف من التعاطف الشعبي مع بياتريس بيت بوفورد، وأُسقِطت تهم الخيانة، وأُلغيت المحاكمة. قبل إيميل كويتزي هذا المنعطف في الأحداث، لا لأنه غفر لبياتريس تجاوزاتها السابقة، بل لأنه وجد لها استخدامًا آخر؛ فقد استغل مأساتها للدعوة إلى سجن وإعدام جولايد جوميدي، وسرعان ما حولت صورُ حطام الفايكرز فيسكاونت المشتعلة -التي تُنشر كل يوم- التعاطفَ العام إلى سخط وغضب عامّين ضد جولايد جوميدي. كذلك سرعان ما انضمت الجماهير إلى إيميل كويتزي المتعطش لدماء جولايد جوميدي، ووعدَهم كويتزي بقطع رأس جولايد في غضون ثلاثة أيام.

لكن اتضح أن العثور على جولايد جوميدي لم يكن سهلًا على الإطلاق.

رغم ورود تقارير كثيرة عن أشخاص رأوه، فإن كلًّا منهم وصفه وصفًا مختلفًا؛ قال بعضهم طويل، وقال البعض الآخر قصير، وُصِف بالبدانة، وبالنحافة، قال البعض وسيم، وقال آخرون له وجه لا تحبه إلا أمه، قيل إفريقي، وقيل أبيض، ولم يعرف أحد ماذا كان اسمه قبل الحرب. عندما اتضح أن جولايد جوميدي مراوغ، يصعب العثور عليه والإمساك به، لجأ إيميل إلى أكثر رجل يثق به.. موردخاي.

نشأ موردخاي جاتيرو في بلدة ماكوكوبا، لا يعرف له أبًا ولا أمًّا. ماكوكوبا بلدةٌ قاسية، ولأنه جزء منها، فقد كان في مثل قسوتها. عاش في دار للأيتام، تعرَّضَ فيها للتنمر من قِبل الأطفال الأكبر سنًا، وتطلّع إلى التنمر على الأطفال الأصغر عندما يَكبَر. كان طفلًا غاضبًا. في واقع الأمر، لم يكن هناك أمامه من عاطفة بديلة. آلَ به الحال، على نحو غير مفاجئ، إلى مدرسة إصلاحية، كانت -في حدّ ذاتها- ضربة أكثر قسوةً من دار الأيتام. رفض على الدوام أن يكتسب مهارة جديدةً، أو أن ينخرط في التعليم. علم، هو وكل من عرفه، أنه سيموت صغيرًا لأن حياته حياة منشؤها النار. راح يتنقل، طيلةَ الوقت، من معركة إلى معركة؛ باليد، وبالسكين، وبالبندقية! لكنه لم يمت! أفضى به إحباطه إلى خوض الحرب، فكان مناضلًا من أجل الحرية، أو إرهابيًا -بإمكانك أن تراه على النحو الذي تشاءه؛ فهو لا يبالي. قُبِض عليه، ولكم أسعده هذا! فقد آمَنَ أنه متى اتُّهِم بالخيانة، عُلِّق على حبل المشنقة. ولأن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فقد كانت لإيميل كويتزي خطط أخرى لموردخاي! حوّله إلى جاسوس، وما أسهلَ هذا مع من لم يتعلم يومًا أن يكون له ولاءٌ لأحد! تمنى موردخاي أن يُقبَض عليه في جريمة قتل لكن هذا لم يحدث أيضًا! بل لاحظ

إيميل كويتزي سمةً نادرة لموردخاي جعلته يسمّيه –رسميًا- عضوًا في المنظمة. ليس كل هذا لأن موردخاي لا يهتم كثيرًا بحياته، فحسب، بل لأنه أيضًا لم يهتم كثيرًا بحياة أي أحد آخر. ولهذا أصبح موردخاي أفضل مُحقِّق في المنظمة، مثّل (وجوده) قيمةً كبيرة لإيميل كويتزي، حتى إنه لم يُسجّل اسمه قَطّ ولو في ملفّات المنظمة؛ لم يُعرف موردخاي إلا باسم (ج10).

ومن خلال الجهود الدؤوبة لـ(ج10)، عرفت المنظمة -بعد شهور من وعد إيميل للجماهير بقطع رأس جولايد جوميدي- أن جولايد جوميدي، والذي وُلد باسم ليفينجستون ستانلي تيكيتي، له أخت تُدعى مينينشي تيكيتي، تعيش في مزرعة بوفورد، وهكذا تشابكت مصائر موردخاي ومينينشي.

ألقت (المنظمة) القبض على مينينشي تيكيتي في الرابع والعشرين من ديسمبر من سنة 1978، وحققت معها. ورغم أن (ج10) كان في أقصى درجاته من الإقناع؛ (غرفة مظلمة، يسأل ويتحرك فيها استراقًا وخلسةً، ويهجم من كل جانب، يمزج بين رقيق الكلم وعنيف الفعل، وسيجارةٌ مشتعلة يلوِّح بها من قريب، أو يلوح بسكين، أو كعب حذاء، يحرق، يقطع، ويسحق، آمنًا، فهي لا ترى وجهه!)، رغم كل هذا، لم تتخلّ مينينشي لحظةً عن أخيها. لا، ولا استسلمت، كما فعل معظم الناس، الذين عادةً ما راحوا -بعد وقت قصير من وقوعهم بين براثن (ج10)- يعرضون التخلي عن شيء ما؛ معلومة، أو اعتداد راسخ بالنفس، أو كرامة غالية.

بعد أيام من التعذيب، كان موردخاي هو من تخلّى عن شيء؛ رغبته في الموت. وجد في مينينشي تيكيتي هدفًا لحياته، أخيرًا وجد شيئًا -شخصًا- يمنحه ولاءَه.

وهو على استعداد لأن يكرس حياته لمحو ما سبَّبَهُ لها من آلام.

استغرق الأمر من موردخاي سنين ليجهز نفسه لمينينشي، ترك وظيفته في المنظمة، (وكان هذا أمرًا سهلًا إذ شعر إيميل كويتزي بخيبة أمل كبيرة به بعد فشله) والتحق بوظيفة في الأرشيف الوطني، يصلح ويرمم الكتب والمخطوطات؛ يصلح ظهور الكتب ويرمم الأوراق البالية بلطف وحرص بالغين. حتى إنه غير صوته، فكساه نبرةً من دفء. قام بكل هذا، ولم يعد إلى حياة مينينشي إلا بعد أن تأكد أنها لن تتعرف عليه، عادَ.. ثم لم يخرج! وصل موردخاي إلى مزرعة بوفورد في حافلة من حافلات ماكينزي ظهيرة يوم من أيام الأربعاء، ورحل بعد أسبوعين مع مينينشي، استقلّا الحافلة، وبينما يدفع موردخاي الأجرة، راحت تنظر إلى السماء وتتعجب من زرقتها الصافية.

كانت حافلة ماكينزي التي استقلّتها مينينشي وموردخاي سنةَ 1983 هي هي الحافلة التي استقلتها ثاندي هاديب يومَ فرت من مزرعة بوفورد سنة 1974.

وُلدت ثاندي هاديب في مزرعة بوفورد، وكان أبوها مراسل مدرسة بوفورد والقائم بأعمالها، وهي وظيفة سمحت لعائلتها بحياة مريحة؛ إذ وفرت لهم

السكن، كما تلقوا إعانات شهرية جيدة. كان والدا ثاندي مسيحيين صالحين ملتزمين، ربياها على أن تبرز كمثال صالح.

عرفت ثاندي طوال حياتها أنها جميلة، فلم يكد يرها أحد إلا وقال لها ذلك. في أول الأمر لم تفكر كثيرًا في جمالها، فقد نظرت إليه كأمرٍ مفروغ منه، ولكن عندما كبرت أدركت أن جمالها يمنحها قدرًا كبيرًا من سهولة التعايش، وقدرًا معتبرًا من القوة، لم تضطر قطّ إلى المعاناة. كانت تصادق الناس بسهولة، وغالبًا ما فضَّلها المعلمون على بقية زملائها. حظيت طوال الوقت بمعاملة خاصة إلى أن كفت عن محاولة التميّز، فلم تحاول أن تصبح أكثر مما يراه الناس.

وعندما وصلت إلى السادسة عشرة من عمرها، دخلت مينينشي تيكيتي حياةَ ثاندي كمدرسة لمادة التدبير المنزلي. لم تُفتن مينينشي بجمال ثاندي، ولا انبهرت به، بل راحت تدفعها دفعًا لأن يكون لها طموح في الحياة وألا تكتفي بكونها مجرّد وجه جميل. شكّت ثاندي أن مينينشي -التي لم تنعم بالجمال- كانت تغار منها، فلم تأخذ كلامها بجدية، إلى أن جاء اليوم الذي جاء فيه مقاتلو (السوجا) إلى مزرعة بوفورد.

دخل السوجا فصل مينينشي أثناء حصة التدبير المنزلي، والفتيات منشغلات بصناعة فساتين جميلة. طلب أحد السوجا من الفتيات أن يخلعن ملابسهن ويضعن عليهن الفساتين الجميلة. كان طلبًا غير معقول، وبدا كما لو أن الرجل يمزح، فضحكت معظم الفتيات. كرر الرجل طلبه، بنبرة كستها الجدية هذه المرة، وهذه المرة ضحك بعضهن، بعصبية وشيء من عدم اليقين. فكرر الرجل طلبه، وليزيل أي التباس عن الفتيات، أطلق رصاصتين من مسدسه صوب سقف الغرفة. على الفور، شرعت الفتيات في خلع ملابسهن، وهن يرتعشن، وارتدين فساتينهن الجميلة.. التي لم تكتمل بعد. بكى بعضهن بدموع صامتة. ثم طلب السوجا من مينينشي أن تختار أجمل فتاة بينهنّ.

لأول مرة في حياتها، لم ترد ثاندي أن تكون الفتاة الأجمل، بل لم ترد أن تكون جميلة على الإطلاق. تضرعت بعينيها إلى مينينشي، ولكن مينينشي أشارت بإصبع قصيرة سميكة نحو ثاندي. وعندما أخذ السوجا ثاندي، وهي تركل وتصرخ، بدا لها أن وجه مينينشي قد علته نظرة من الرضا، نظرة لن تنساها ثاندي أبدًا.

قام مقاتل السوجا باستعراض ثاندي أمام المدرسة كلها، وهو يسبُّها بأقذر الألفاظ. اقتادها إلى المراحيض، ودخل بها إلى أحد الحمامات، ولم تشك ثاندي في أنه سيغتصبها. حاولت ثاندي أن تهيئ نفسها لهذا الإذلال. لم يغتصبها، وإنما أمرها بالقفز في حفرة المرحاض. تركها تغرق في القذارة. هذه المرة لم تشك ثاندي أنها ستموت، ولكنها لم تمت؛ فقد تمكنت بطريقة ما من السير في ذلك الوحل السميك، ورأسها إلى أعلى. لكم أرادت حينها أن تموت! ولكنها

-رغم فزعها وذعرها- ظلت تقاوم لوقتٍ بدا لها كأيام طويلة، كان في واقع الأمر ساعتين أو أكثر قليلًا، إلى أن أتى أبوها وأخرجها من حفرة المرحاض.

لم تشعر ثاندي أنه تم إنقاذها.

أعدت أمها لها حمامًا تلو حمام من الماء الساخن، وغسلت جسدها بقطعة من الصابون الصلب تلو قطعة، لكنّ ثاندي لم تشعر بأنها تخلصت من القذارة. منذ ذلك اليوم، اعتادت ثاندي أن تستحم مرات، ومرات كل يوم. أصابها هوس النظافة. وبدأ يخنقها الغبار المنتشر في أرجاء المجمع. حين لم تكن منهمكة في تنظيف نفسها، كانت تنهمك في تنظيف ما حولها. شيء واحد لم تستطع أن تحكه حتى تزيل عنه أوساخه.. الهواء، الهواء الذي يحيط بها، والذي لوثته قذارة حفرة المرحاض، تبعتها الرائحة كما يتبع الظل صاحبه.

لم يكن غريبًا أن تتحرق ثاندي إلى بداية جديدة.

جاءتها تلك البداية الجديدة في صورة إليزابيث نيوني، التي هبطت ذات يوم في سحابة من الغبار على مزرعة بوفورد، حاملةً بيضة من الذهب. سافرت إليزابيث إلى مكان لم تسمع عنه من قبل، مكان لم يكن فيه أحد يعتني بها أو ببيضتها، لأنها تيقنت أن ذلك المكان هو أفضل مكان تشق فيه حياتها. كانت إليزابيث فكرةً غريبة للغاية في مزرعة بوفورد ولم يكن أمام ثاندي إلا أن تنجذب إليها. كانت إليزابيث أغرب شيء رأته ثاندي؛ فشعرها الأشقر، وملابسها الملونة، وثقتها واعتدادها بنفسها وإصرارها، وإيمانها بأنها ستصبح مطربة ذائعة الصيت، تغني اللونين الريفي والغربي من الموسيقى.. كل ذلك أظهر أنها تمضي في حياتها على النحو الذي تراه. كان مجرد وجود إليزابيث يعطي لثاندي الكثير من الاحتمالات في حياة مغايرة.

ولعت إليزابيث، بدورها، بثاندي الجميلة. نظرت ذات يوم إلى الفتاة، وقالت:

- أنتِ جميلة جدًا، هل فكرتِ يومًا في أن تصبحي عارضة أزياء؟

لم تستطع ثاندي أن تقول إنها فكرت في ذلك الأمر، فهي لا تعرف ماذا تعني تلك الكلمة. مدّت إليزابيث يدها إلى إحدى المجلات، وقلبت صفحاتها، وأشارت إلى امرأة ذات شفتين ياقوتيتين، وحاجبين محددين بالقلم، تنظر إلى الأفق كما لو أنه يحمل لها مستقبلًا لا تبالي به كثيرًا. فُتِنت ثاندي بأريحية العارضة وانفصالها عن العالم، فقد بدا أنها لا تكترث بشيء، تشعر أنها فوق كل شيء، ولا يمكن لشيء أن يمسها.

- أنا واثقة أن بإمكانك أن تعملي كعارضة أزياء إذا ذهبتِ إلى المدينة.

المدينة، حيث لا يعرف أحد أو يتذكر ما حلّ بها. المدينة، حيث يمكنها أن تبدأ فصلًا جديدًا من حياتها، فصلا لا تشوبه شائبة. المدينة، حيث يمكنها أن تنظر -بشفتين ياقوتيتين وحاجبين محددين بالقلم- إلى الأفق، كما لو أنه يحمل لها مستقبلًا لا تبالي به كثيرًا. استقلت ثاندي حافلة ماكينزي في اليوم التالي، وتوجهت إلى المدينة، وقد عقدت عزمها على ألا تنظر وراءها.

وفي المدينة، رقصت تحت المطر، وهي تضع قرنفلةً في شعرها، وسمعت شابًّا يغني «دونت لِت مي داون».

ربما شعرت ثاندي بشيء من الرضا لمعرفة ما حدث لمينينشي على يد (ج 10)، ولكن لا يمكن التأكد من ذلك. فبعد أن غادرت ثاندي مزرعة بوفورد، لم تعد إليها إلا مرة واحدة، خلال سنوات الحرب، وضعت أثناءها طفلًا، وتركته وراءها -ماركوس مالكولم مارتن- ولم تفسر ما جرى إلا بكلمة واحدة: «إنها أمريكا».

نشأ ماركوس في رعاية جدّيْه المسيحيين شديدي التدين، وليس من هدف لروحه إلا أن يعثر على شيء في حياته يمنحه شعورًا بالانتماء. وجد هذا الشيء بعد أيام قليلة من عيد ميلاده الرابع، في صورة امرأة زاهية الثياب، تحمل طفلًا على ظهرها، وتغني أغاني الحب.

- تعاملينها كبيضة، تحملينها على الدوام، لا أعتقد أن قدميها لمستا الأرض في يوم من الأيام.

هكذا قالت جيستينا إنزومالو -مانزومالو- بنبرة عادية وهي تتكئ على عمود من أعمدة السور، وتضع ذراعها اليسرى في خصرها، وفي فمها قشة من عُشب. قالته، وعيناها على إليزابيث نيوني، أروع ما رأت عينا الصغير ماركوس في حياته كلها.

كانت تنشر ملابسها على حبل الغسيل، وقد ربطت رضيعًا -حسنًا، في الواقع لم يعد رضيعًا- على ظهرها، ربطة غير قوية، وإن كانت محكمة، وكانت تدندن بأغنية مبهجة. كانت ترتدي ثيابًا بكل ألوان قوس قزح -أو (سوط السيدات) كما اعتاد قومه أن يسموه- كما لو أنها مدت يدها إلى السماء واستلّته لونًا لونًا، شعرها ليس كشعر أي امرأة رآها من قبل؛ طويل، مفرود، ومتدفق، وفوق كل شيء.. ذهبي. عرف ماركوس أنها تجمع شعرها كله فوق رأسها ليحاكي خلية النحل، وأحيانًا كانت تفك شعرها وتتركه يتراقص في النسيم العليل.

راقبهما ماركوس لفترة طويلة جدًّا، لم يعرف طولها لأنه حينها لم يكن تعلم كيف يعد أو أن يعبر عن الوقت، ولكنه عرف أنها فترة طويلة. فتنته هاتان المخلوقتان الجميلتان. كان يجلس بجوار السور ويشاهد هذه المرأة الزاهية وهي تدندن طوال اليوم، وطفلتها -ليست طفلة تمامًا- على ظهرها معظم الوقت بما يكفي لإثارة فضول جيستينا.

- ولم لا أعاملها معاملة البيضة؟! فقد ظلت بيضة ذهبية طيلة السنوات الخمسة التي حملتها فيها، ظلت كذلك حتى الثالث من سبتمبر من سنة 1978، عندما فقست، لا يعني أنك ترينها الآن بلحمها وشحمها أنها لم تعد بيضة من ذهب.

قالت إليزابيث هذا، ثم واصلت دندنتها.

ضحكت جيستينا طويلًا، بصوت عالٍ، وقالت:

- إليزابيث، هذا الذي تقولين...
ثم قطعت ضحكتها فجأةً، وقالت:
- تشبهين الطاووس، زهوًا.
- ولم لا أكون كالطاووس، زهوًا أو غيره، وكل ما لديّ جميل!
- ومغرورة أيضًا!
قالت جيستينا هذا، وضربت كفًا بكف، كأنما فاض بها الكيل من كلام إليزابيث، وتابعت:
- الزهو والغرور من الآثام يا إليزابيث!
- والحسد، أيضًا، شيء قبيح يا جيستينا!
سخرت جيستينا من كلام إليزابيث بإيماءة من صوتها، وقالت:
- على أي حال، أنا هنا من أجل الصبي.
شقت إليزابيث طريقها إلى السياج. وراحت الرضيعة، التي ليست برضيعة تمامًا، تميل برأسها وتتفحص ماركوس تفحصًا دقيقًا جعل الصغير يشعر بالإحراج للمرة الأولى في حياته.
- ابن ثاندي، يا لَجماله!
فعقّبت جيستينا، وهي تهز كتفيها:
- لم تُصنع عيناي لرؤية الجمال.
سألته إليزابيث، موجهة له الحديث بشكل مباشر لأول مرة:
- ما اسمك؟
شعر ماركوس بإحراج شديد فلم ينظر في عينيها، وغمغم، كأنه يحدِّث الأرض التي يجلس عليها والتي اكتست تربتها باللون الرمادي المصفر، من فوق مقعده من العشب:
- ماركوس مالكولم مارتن ماسوكو.
ضحكت إليزابيث من قلبها، ضحكة جاءت من أعمق أعماقها، حقيقية، بلا تصنع. لم يسمع شيئًا كهذا من قبل، وأحس أن فمه ينفرج، ليبتسم، مستعدًا للضحك.
- إذن ستصبح ثوريًا عندما تكبر؟
لم يكن لديه فكرة عما تقول، فخالط ابتسامته شيء من عدم اليقين.
- أعتقد أنه يريد أن يصادق بيضتك الغالية.
أنقذته جيستينا بقولها مما اعتراه من ارتباك.
- تريد أن تصادق إيموجين؟
- نعم.

أومأ بنعم، مع أن هذا الخاطر لم يلح له قَطّ (حينها). كان يحب مجرد الجلوس بجوار السياج، ومشاهدة هاتين المخلوقتين الجميلتين، ويتمنى أن يكون واحدًا منهم.

- جيني، هل تحبين أن تصبحي صديقة لماركوس مالكولم مارتن ماسوكو؟

لم ترد الفتاة الصغيرة المحمولة على ظهرها، ولا هزت رأسها، واكتفت بالنظر إليه.

- حسنًا، ماركوس مالكولم مارتن ماسوكو، يمكنك أن تصبح صديقًا لابنتي جيني إذا وعدتني بشيء واحد، أيمكنك أن تعدني بشيء واحد؟

ضيّق ماركوس عينيه ليقيهما ضوء الشمس، وهزَّ رأسه موافقًا.

- بم تريدينه أن يعد؟ ألّا يكسر بيضتك؟

- عدني أنك لن تصبح سياسيًا، عدني أنك ستصبح ثوريًا حقيقيًا.

لم يكن لدى ماركوس أدنى فكرة عمّا تقول، فلم يجد أي صعوبة في أن يهز برأسه، موافقًا.

- أريد أن أسمعك وأنت تقولها.

- أعد...

تلعثم ماركوس، وبدأ يشعر أن هذه لحظة بالغة الأهمية في حياته. نهض واعتدل واقفًا. سبق له أن رأى جده يفعل هذا -يمد يده لشخص آخر- وقد بدا أن هذه اللحظة –المناسَبة- تستدعي مثل تلك الحركة. وقف على أصابع قدميه، ومد يده إلى إليزابيث عبر السياج.

ضحكت إليزابيث ضحكتها الجميلة وصافحت يده.

ثم حلّت البنت من ظهرها ووضعتها برفق على الأرض. كانت إيموجين الصغيرة، جيني، مطوّقةً بألوان «سوط السيدات». لم تثبُت الصغيرة على قدميها، وإنما ترنحت قليلًا، ثم أسندت نفسها بوضع يديها على السياج.

صفقت جيستينا، وقالت:

- أخيرًا تلمس قدماها الأرض!

ثم أطلقت زغرودة.

تجاهلتها إليزابيث.

- ماركوس مالكولم مارتن ماسوكو، إني آتَمِنُك على أثمن وأغلى ما لديّ.

وهذه المرة كانت جيني هي من مدت يدها، وتصافحا على الوعد.

وعلى الفور، فجأة أصبحا صديقين. أشارت جيني إلى ماركوس وأصدرت صوتًا مبهجًا. نظرت إليه كأنها تتعرف عليه. شبّت على السور وأمسكت بيده. لم تنطق بكلمة، وإنما زقزقت كالعصافير. لم تكن قد رُزِقت بملكة اللغة، إلا أنه فهمها.. تمامًا.

اعترض طريقَهما زوبعة تحمل غبارًا وأكياسًا بلاستيكيةً فارغة. رفعت الريح ألوان قوس قزح. رفرفت جيني، فأمسك ماركوس بيدها سريعًا، يخشى أن تطير. لم تزعج الريح جيني، فضحكت وزقزقت.

كان لديها الكثير لتخبره به، وكان لديه كل الوقت للاستماع لها. لكن الريح اشتدت، واشتدت حتى لم يعد لديه خيار إلا أن يترك يدها.

بعد كل ما شهدته ومرت به مزرعة بوفورد من أحداث في تاريخها الحديث، كانت الصداقة التي تبرعمت بين ماركوس وجيني بلسمًا شديد الأهمية.

ماركوس وجيني

كبِرَ ماركوس وجيني بما يكفي لفهم العالم من حولهما، وبدت الحرب الأخيرة لهما مجرد ذكرى بعيدة، فالحياة في مزرعة بوفورد عانت آلامًا كبيرة لتعود مرة أخرى حياة سعيدة. ربما كان ذلك بسبب أن بلدهما كان حديث عهد بالاستقلال، أو ربما كان ذلك بسبب أن كليهما أصغر من أن يتذكر الرعب الكبير الذي أصاب المجمّع بسبب الحرب الأهلية. وعلى كل حال، فقد نما حب المغامرة عند ماركوس وجيني، وسرعان ما سئما اللونَ الأصفر الرمادي الذي كسا المجمّع. تحمسا لاستكشاف العالم في الخارج. ولأن أبعد ما يمكن أن تراه أعينهما كان تلك التلال البعيدة، التي بدت في الأفق كأنها شيء أزرق ضبابي، فقد أرادا أن يلمسا هذا الشيء الأزرق الضبابي، بأيديهما.

لو كانا يدركان كيفية مرور الوقت، لعلما أن الأمر استغرق ما يقرب من ستة أشهر لإقناع إليزابيث -التي انحفرت أهوال الحرب الأهلية بذاكرتها- بالسماح لهما بالخروج من المجمّع وسلوك تلك الطريق الترابية، التي بدت كأنها تمتد إلى الأبد، لتختفي بين التلال البعيدة. لم يدركا قَطّ أنها ما سمحت لهما بالذهاب إلا لأنها تعلم أنهما لن يستطيعا أن يبتعدا.

وهكذا، وفي يوم صافٍ من أيام ديسمبر، غادر ماركوس وجيني المجمع لأول مرة في حياتهما. لم يخطر قَطّ ببال ماركوس أو جيني عندما انطلقا في الطريق الترابية، وليس معهما إلا مظلة مكسورة، ونصف علبة من سكاكر الليمون وزجاجة ماء، أنهما يمكنهما بالفعل أن يتسلقا التلال. عرفا -من القصص التي سمعاها في المجمّع في الليل حول النار- أن ما يعيش على الجانب الآخر من التلال بغيض بشكل مرعب وشرير بلا رحمة. ومن قصص النار أيضًا علما أن التلال نفسها بريئة، لا ضرر بالمرة في لمسها، والائتناس بها.

ولأنهما يستطيعان رؤية التلال، حسبا أن الوصول إليها لن يستغرق طويلًا. ربما لم يسيرا كثيرًا كما اعتقدا حتى تعِبت أرجلهما المتربة. سارت جيني وقد ربطت على ظهرها بينيلوب -دُميتها اليدوية التي صنعت أمها بشرتها السمراء الداكنة ولباسها الملون من قصاصات تبقت من الفساتين التي تصنعها لنفسها ولجيني. ربطتها على ظهرها بمنشفة عقدتها حول خصرها، وأمسكت بمظلة مكسورة فوق رأسيهما. أما ماركوس فَجَرّ بحبل سيارته على طول الطريق الترابية، وحَشا جيبًا في بنطاله بسكاكر الليمون، وبالآخر حشر زجاجة من ماء. سرعان ما وهن عزمهما على الوصول إلى التلال البعيدة، فقنعا بسعادة كبيرة بأن اكتشفا على يسارهما حقلًا أصفر يمتد إلى أبعد ما يمكن أن تراه العين، حقل من أزهار عباد الشمس.

لم يخبرهما أحدٌ قَطّ أن هناك شيئًا بهذا الجمال. وراحت جيني، فورا ودون تردد، تعدو في جنبات الحقل. لم تفكر، ولو للحظة، في أن الحقل قد يكون به ما يستوجب الحذر. أما ماركوس فتردد قليلًا. ترك سيارته على جانب الطريق، أمام مرأى ومسمع من المارة، لكي يعثر الناس عليهما إذا ضاع هو وجيني هناك، واختفيا في بحر من الصفرة. حتى لا يبقيا هناك إلى الأبد؛ تركها حتى إذا جاء من يبحثون عنهما عرفوا أين يبحثون بالضبط، أو على الأقل -إذا لم يجدوهما- عرفوا ما حدث لهما. كان ماركوس طفلًا حذرًا، لا مهووسًا، كل ما في الأمر أنه عرف -ممّا حُكِي حول النار بالمجمّع- أنه ليست لكل القصص نهاية سعيدة، كما عرف أن أشياء فظيعة تحدث للناس أحيانًا، خاصةً للأطفال الفضوليين، الذين يغامرون بالابتعاد كثيرًا عن المنزل.

اتضح أن اللعب بين زهور عباد الشمس إلهاء جيد عن السعي للوصول إلى الشيء الأزرق الضبابي. راح ماركوس وجيني يجريان هنا وهناك، يضحكان ويدوران حول سيقان الزهور، لا يعرفان من يجري خلف من.

وهكذا أصبحا يغادران المجمّع يومًا بعد يوم، يعزمان على الوصول إلى التلال البعيدة، لكن، يومًا بعد يوم، ينتهي بهما الحال وهما يلعبان بين زهور عباد الشمس. وفي يوم من الأيام، طرحا الفكرةَ عن رأسيهما تمامًا، وشقا طريقهما مباشرةً إلى عباد الشمس. بعد ذلك، لم يمر وقت طويل حتى أصبحت التلال الزرقاء الضبابية البعيدة مجرد ذكرى. عندما لم يكونا يلعبان «الغميّضة»، كانت جيني تغني الأغاني التي تعلمتها من أمها، أو تروي حكايات مما سمعت حول النار، تغني وتروي لجمهور من زهور عباد الشمس، جمهور يقدر جيدًا ما يسمع.

لم يتوقف استمتاعهما بعباد الشمس حتى عندما بدأت أوراقه في الذبول، وسيقانه في الجفاف، ووجه الزهرة في الاسوداد، ولم تعد تنظر إلى الشمس.

وذات يوم، مات الضحك كله، نعم، بهذه البساطة. لم يستوعب ماركوس وجيني ما حدث، وهما يحدقان في أزهار عباد الشمس ملقاةً على الأرض السمراء المحمرّة، لا تنظر إلى السماء كما عهدا منها. تهاوت كلها على الأرض، فلم تبق منها واحدة قائمة على ساقها. راحت جيني تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تقيم عودها، ولم يكن أمام ماركوس من خيار إلا أن يمد لها يد العون. حفرا التربة السمراء المحمرّة بأيديهما، وأعادا السيقان إلى أماكنها، فقام بعضها، لكنّ أغلبها هوى على الأرض مرة ثانية. كانت جيني مصرةً، ولم يهمها ما تحتاج إليه المهمة من وقت، وكان كل ما قالته لنفسها أن كل الأزهار ستقوم في يوم من الأيام، لتُزرع من جديد.

لكن عندما وصلا صباحَ اليوم التالي، كان ما رأياه أسوأ من أي مشهد قد يدور بخيالهما. لقد اختفى عباد الشمس، حتى تلك الأزهار التي أقاماها على سيقانها، لم يكن هناك من أثر لها؛ لا ساق خضراء بائسة، ولا ورقة صفراء

ذابلة، ولا بذرة سوداء بنية. مهجورةٍ؛ لم يكن هناك من إشارة إلى أن هذه الأرض كانت -حتى عهد قريب- حقلًا تسكنه حشود من عباد الشمس. فطر المشهد القاحل قلبَ جيني، وأشاحت -لأول مرة في حياتها- بوجهها بعيدًا عن الشمس. لم تنطق بكلمة، وغاصت في التربة السوداء المحمرة، وبكت بدموع صامتة سابقة جديدة أخرى في حياتها القصيرة.

لفّ ماركوس ذراعه حولها، ولكنه في تلك اللحظة ذاتها، نضج بما يكفي ليدرك أن حُزن جيني شيءٌ لا يقدر على مواساتها عليه. أصابه الحزن، لا على نفسه، بل من أجل جيني، فرغم إدراكه أن هذه حقًا خسارة، فإنه يعلم أنها خسارةٌ لجيني بالذات، فقد أحبت عباد الشمس حبًّا غير حبه لها، أحبتها بعمق، حبًّا ملك عليها نفسها، وهو لم يحبها كل هذا الحب. ما أحب ماركوس عباد الشمس إلا لأن جيني أحبتها. نعم رآها زهورًا جميلة، لكن لولا جيني لما رأى أن جمالها يستحق كل هذا التقدير.

في ذلك اليوم، اكتشف ماركوس شيئًا آخر، شيئًا لم يكن ليكتشفه إلا باختفاء عباد الشمس. كانت جيني تغرس قدميها في التربة السوداء المحمرة، وتغربلها بأصابعها بحثًا عن أي أثر باقٍ، بلا جدوى، وحينها لفت نظر ماركوس بريق في الأفق، وفي الصباح الباكر، ومع أول ضوء للنهار، تبيّن ماركوس في هذا الذي رآه بالأمس هيكل سيارة.

كانت السيارة المهجورة موجودةً هناك طيلة الوقت، وحيدة تستمع إليهما وهما يلهوان في الحقل ويضحكان، وحيدة تنصت إلى جيني تغني وتقص الحكايا على أزهار عباد الشمس، وحيدة وهي تراقبهما يمضيان بعيدًا دون أن يراهما أحد. ملأ الحزن فؤاد ماركوس تألُّمًا لحال السيارة الوحيدة، حتى كاد يركض نحوها من فوره، ويلمسها بيديه، ليزيل عنها وحدتها. لم يمنعه ممّا همّ به إلا حزنُ جيني.

أراد أن يواسي جيني ويشاركها ما تشعر به، فغربل التربة بين أصابعه، كما تفعل، إلا أنه لم يستطع أن يدفن قدميه في التربة كما فعلت هي، وراح -بين الحين والآخر- يسترق النظر إلى السيارة المهجورة.

لعلّ التحدي الأكبر الذي في حياة الشاب ماركوس الآن هو كيف يخبر جيني بأمر السيارة المهجورة. كان يزورها كل يوم سرًّا. كانت سيارة (موريس ميني مينور)، وأطلق هو عليها (براون كار)، وهو اسم لم يختره لها بسبب لونها الأصلي، وإنما لما كساها من بقع الصدأ. وجد الفرصة لهذه الزيارات السرية في تلك اللحظات التي وجدت فيها إليزابيث أنه من الضروري أن تكون ابنتها بالقرب منها؛ حين تغسل ثيابهما وتعلقها حتى تجف، وحين تطهو لهما الطعام، أو تمشط شعرها وتضفره، حين ترتديان، كلاهما، ثيابهما زاهية الألوان، وكذلك عندما كانت تريد أحدًا تغني له، أو تغني معه، ببساطة حين كانت تريد ابنتها بالقرب منها حتى تحملها متى شاءت، وتدور بها في الهواء، وتحضنها وتغمرها

بالقبلات، وتنصت إلى جيني وهي تضحك وتضحك كما لو كانت لا تعرف نهايةً للضحك، ولا للسعادة.

قبل أن يكتشفا حقل العباد، وقبل أن يكتشف ماركوس (براون كار)، كان أحلى أوقات ماركوس هو وقت الاستحمام، ليس استحمامه هو -حين تقوم جدته بتنظيف جسده بقطعة من قماش خشن، وصابون خشن، تلسع رغوته عينيه وتهيج أنفه، فيعطس حتى يحمرّ أنفه بينما تخبره عن عواقب القذارة، وهو يقف في دلو من الصلب المجلفن بالزنك به من الماء البارد ما يكفي لتنظيفه- لا، ليس وقتَ الاستحمام هذا، وإنما وقت استحمام جيني وإليزابيث، فهما يستحمان معًا. كان وقتًا مليئًا بالضحك والقهقهة، بالأغاني، وبمياه دافئة تتدفق في حوض من الحديد المصقول، وكانت رائحة الفانيليا الدافئة والمريحة تنبعث من نافذة الحمام العالية، وتحتها اعتاد ماركوس أن يجلس هادئًا صامتًا، رغم سخرية بقية الأولاد من فعله هذا.

ومن تحت النافذة، كان ماركوس يسمع ما يدور بينهما من أحاديث.

- أمي، عندما أكبر، هل سيكون صدري كبيرًا كصدرك؟
- هل تحبين أن يكون صدرك كبيرًا كصدري؟
- نعم، بالتأكيد.
- إذن، فسوف يكون كذلك.
- أمي، هل سيكون لي ردفان باستدراة ردفيك؟
- هل تحبين أن يكون لك ردفين باستدارة ردفيَّ؟
- نعم، وربما أكثر استدارةً.
- هاها! إذن، فسوف يكون لك هذا.
- أمي، هل سأكون جميلة مثلك عندما أكبر؟
- لا.. بل ستكونين أجمل مني، ستكونين مسرة حقيقية لكل ناظر.
- ولكني لا أريد أن أكون أجمل منكِ.
- فعليك إذن أن تبذلي جهدًا كبيرًا.
- أمي، أعرف أني جئت من مكان ما في قلبك.
- نعم، فعلتِ.
- وأني كنت بيضة.
- بيضةً من ذهب.
- هل يعني هذا.. ماركوس يقول إن هذا يعني أنه ليس لي من أب.
- لا يعرف ماركوس إلا قدر ما يعرف.
- فهل لي أب؟
- على حسب.
- على حسب ماذا؟

- على حسب المستقبل.
كثيرًا ما راح ماركوس في النوم تحت فتحة تلك النافذة، تحت تأثير رائحة الفانيليا، ودفء الحديث، وتلك الضحكات التي لا تنتهي، تلك السعادة الحقيقية.
لكن بعد أن اكتشف (براون كار)، لم يعد يقضي وقته تحت النافذة العالية، بل راح يقضيه في استنشاق رائحة المعدن الصدئ والمقاعد البالية، ولكم شعر بالراحة لتلك الرائحة العتيقة! والتي بدت مألوفةً بشكل أو بآخر.
وبينما كانت يدا ماركوس تعبثان بمقود السيارة، كان يتخيل نفسه وهو يقودها على الطريق الترابية من المجمّع إلى التلال الزرقاء الضبابية، وكانت جيني دومًا إلى جواره، في المقعد الأمامي، وعلى المقعد الخلفي حبيبتها بينيلوب.
في خياله هذا، كان ماركوس هو من يتولى أمر القيادة، فهو يعرف -مما رآه في المجمع- أن الرجال فقط هم من يقودون المركبات، ولم يخطر يومًا بباله أنه ليس مضطرًا إلى أن يقصُر خياله على ما يراه بالمجمع. حاول ماركوس، وهو يتخيل تلك الرحلات من المجمع وإليه، أن يدبر الأمر لإخبار جيني بحبه الجديد.. (براون كار).
لكنه لم يحتج إلى ذلك، فذات يوم، وهو يقود سيارته على الطريق الترابية، في رأسه، وإلى جواره جيني، شمّ رائحة الفانيليا الدافئة ودخان الخشب، فاستدار، ليرى جيني تنظر إليه من نافذة السيارة، بعبوس نادر، وقد عقدت ذراعيها وأسندتهما على بطنها.
- إذن فهذه هي!
قالت هذا، وهي تنظر في السيارة من الداخل دون أي قدر من الإعجاب الذي شعر به عندما رأى السيارة، وتابعت: - هذا هو ما سرقك مني؟
ما الذي يفترض به أن يقول؟ خاصةً، وقد بدا أن بينيلوب -الحاضرة دومًا- تنظر إليه نظرة غاضبةً من موقعها الآمن على ظهر جيني. شعر بقلبه يغوص في صدره، وفجأة.. افترّ ثغرُ جيني عن بسمة، وابتسم هو أيضًا لمرأى تلك الفجوة بين ثنيّتيها، ما رآها إلا وابتسم.
منذ تلك اللحظة، أصبحا يقضيان معظم الصباح والظهيرة، تشويهما ببطء حرارة السيارة، وهما يسافران، معًا، إلى أماكنَ من خيالهما، أماكن لم يعرفاها إلا سماعًا: الصين، مصر، إنجلترا، الاتحاد السوفييتي، وأمريكا. وفي مخيلتهما، بدت جميع تلك الأماكن كالمجمع، تمامًا، غير أنّ للصين سورًا كبيرًا يحيط بها، وبمصر تماثيلُ أبي الهول وأهرامٌ كانت مثل فصول دراسية، ولإنجلترا ملكة صلبة قوية، بدت نشازًا وهي تسير وسط صفرة غبار المجمع الرمادية وعلى رأسها تاج مرصع بالجواهر، وعليها عباءة ثقيلة، تبحث عن امرأة تُدعى مارجريت تاتشر ثم لا تجدها، وبالاتحاد السوفييتي تنتشر كلمة «الشيوعية» أو الشوعية ‘comookneezim’ كما ينطقها ماركوس وجيني، على كل البنايات في المجمع بخط أحمر كبير، وأمريكا بها والدا ماركوس، اللذان تخيلاهما نسختين

صغيرتين من جد ماركوس وجدته، على النحو الذي رأياه منهما في صورة الزفاف، مسيحيّين، ملتزمين، يخلو وجهاهما من الابتسامة. كانت أمريكا التي تخيّلاها والدا ماركوس تحفل برجال على ظهور الخيل، يعتمرون قبعات ستيتسون الشهيرة، ورجال يقودون سيارات سريعة معتمرين قبعات الفيدورا، بعبارة أخرى، عاشا في أمريكا التي سمعا عنها. خلال رحلاتهما التي لا تنتهي قام ماركوس وجيني بزيارة والد جيني، جولايد جوميدي، في المستقبل.

رأت جيني أن تستعير أطلس العالم من مكتبة جد ماركوس الصغيرة، ليتعرفا إلى مزيد من البلاد لزيارتها. لسوء الحظ، كان الأطلس لم يُطبع إلا في عام 1965 فلم يحتو على اسم بلدهما المستقل حديثًا، ولذا قدم لهما أطلس العالم مزيدًا من الاحتمالات، ومزيدًا من التحديات أيضًا. يمكن لدولتهما المستقلة حديثًا أن تكون أيًّا من تلك الكتل الأرضية الكبيرة، التي تحيط بها مساحات أكبر من المياه، وقد تكون واحدة من تلك التكوينات بالغة الصغر التي تبدو مهددة بأن يبتلعها الماء بأكملها. ولذلك، وجدت دولتهما المستقلة حديثًا نفسها في وسط خريطة العالم، حينًا، وراحت تراوح بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب. أدرك ماركوس وجيني بالفعل أن العالم يمتاز بشيء من السيولة، حتى وإن لم يعرفا، بعد، موقعَهما منه. انفتحت أمامهما عوالمُ واحتمالات كثيرة، جالبةً لهما ألوانًا من السرور أدارت رأسيهما.

انهمكا في رحلاتهما حتى أن حينًا من الوقت مر عليهما قبل أن يلاحظا أن البراعم بدأت تخرج من الأرض السمراء المحمرة. عباد الشمس يُولد من جديد. هكذا تعلما أهم درس عن الموت؛ أن الحياةَ تأتي بعده مرةً ثانية، وأن الأشياء التي تموت تُبعث من جديد، وأنه بعد كل نهاية تأتي بداية جديدة.

وهكذا، ورغم أنهما قضيا وقتهما في السفر حول العالم، راحت عيونهما تراقب بصبر أزهار عباد الشمس وهي تزداد قوة كلما دنت من الشمس. راقبا ظهور الأوراق، وشاهدا ملايين الزهور وهي تتفتح فجأة في تناغم تام، وملايين الوجوه ترنو إلى الشمس، وكانت تلك هي اللحظة التي اختارتها جيني لتأخذ مكانها بين الزهور، سعيدةً بتلك الحكة التي ألفها جلدها عند ملامسة ذراعيها للسيقان، ومستمتعةً بالرطوبة الباردة وهي تغرس قدميها في التربة السوداء المحمرة، تزرع نفسها فيها زرعًا.

وذات يوم، وهما في الحقل، حدث أول شيء غريب حقًا؛ فقد رأيا -من خلال سوق الزهور- سيارةً تتوقف. كان بالسيارة رجلان، لم يخرج أي منهما. أنزل السائق النافذة، وشرع في تدخين سيجارة، ليطلق دوائر الدخان من النافذة، كأنْ لا شيءَ يعنيه من أمر هذا العالم. ومن موقعهما بين الزهور، تمكن ماركوس وجيني من رؤية الرجلين بما يكفي ليعرفا أنهما لا يعرفان أحدًا منهما، فهما إذن ليسا من مزرعة بوفورد. كان أمرًا بالغ الندرة بعد الحرب أن يُرى غريبٌ في مزرعة بوفورد. كان ماركوس يعرف عن الغرباء ما جعله

يمسك بيد جيني بقوة –فجيني تميل لتعدوَ نحو كل شيء، بغير تردد. وقفا طويلًا بين الزهور، يمسك كل منهما بيد الآخر، بلا حركة، أو نفس.

ثم نزل الرجل الذي كان يجلس إلى جوار السائق، وسار نحوهما. حبس ماركوس وجيني أنفاسهما، يخشيان شيئًا وإن لم يعرفا ما هو. توقف الرجل عند حافة الحقل، وراح يفك سحّاب بنطاله، وعندها خاطر ماركوس بكل شيء، فتحرك. رفع يده التي لم تكن تمسك بيد جيني، وغطّى بها عينيها، وأغلق هو أيضًا عينيه. سمعا صوت ماء يتناثر على الأرض السوداء المحمرة. لم يرفع ماركوس يده عن عيني جيني، ولم يترك يدها إلا عندما سمعا صوت باب السيارة وهو يُغلق. وشعرا بإحراج كبير منعهما من أن ينظر كل في عيني صاحبه.

وكان لعدم نظر أحدهما إلى الآخر أن سمح لهما بمشاهدة هذا الشيء المذهل الذي حدث بعد ذلك. فما إن علما من برودة الهواء وتغير لون الضوء المنعكس على أوراق عباد الشمس أن الشمس توشك على الغروب، حتى انفتح صندوق السيارة، ليخرج منه –ببطء- رجل طويل، بالغ الطول، كأنه عفريت أخذ ما يكفي من الوقت ليباغتهما، وهذه المرة حبس ماركوس وجيني أنفاسهما، معًا، بفزع شديد.

نزل السائق والراكب الآخر من السيارة، وانضما إلى الرجل الثالث. تحادثوا طويلًا، بهمس، قبل أن يتصافحوا -وكل منهم يمسك بذراع الآخر من العضد، كعلامة أكيدة على شعور عميق. لم يحتج ماركوس أو جيني إلى قول أي شيء وعرفا على الفور أنهما -من تلك اللحظة فصاعدًا- سيحييان بعضهما بعضًا بهذه الطريقة. عاد السائق وجاره إلى السيارة، التي هدر محركها، والتفت على الفور، مثيرةً غبارًا كثيفًا، جعل ماركوس وجيني يشبان على قدميهما ليريا ما يجري. قال السائق للرجل الثالث شيئًا رد عليه بابتسامة، ثم أدنى الرجال الثلاثة أيمانهم (أياديهم اليمنى) من جباههم، بزاوية حادة للغاية، ثم رفعوها بشكل مفاجئ، وفي الوقت نفسه، بحركة حادة، أنْ وداعًا. لم يحتج ماركوس أو جيني إلى قول أي شيء وعرفا على الفور أنهما -من تلك اللحظة فصاعدًا- سيودعان بعضهما بعضًا بهذه الطريقة.

ابتعدت السيارة ببطء، وظل الرجل الثالث تحت سحابة الغبار، ولكنه سار ناحية المجمع. مسح حقل العباد بعينيه سريعًا، ثم توقف.

تركت جيني يد ماركوس على الفور، وهرعت صوب الرجل. وبدا أن كليهما غمرته السعادة لرؤية الآخر. طوّح الرجل بجيني في الهواء، وشعر ماركوس بالفزع. أمسك الرجل بجيني وهو يبتسم. عندما رأى ماركوس الفجوة بين ثنيتي الرجل، شعر بالأمان، وغادر حقل الزهور. عندما انتقل الرجل بعينيه الباسمتين من جيني إلى ماركوس، شعر ماركوس بالسعادة لأن عيني الرجل

احتفظتا بدفئهما. نعِمَ ماركوس بحرارة ترحيبهما به، وهو يصافح يد الرجل بخجل، ولكن برجولة - أو هكذا كان يرجو.

انهمك الثلاثة في التعارف، حتى إنهم لم يلاحظوا إليزابيث وهي تندفع نحوهم بسرعة وشراسة فِيلةٍ تعرف أن طفلها في خطر، مثيرةً خلفها غبارًا، وكأن ألوان ثوبها تسبقها طائرةً عن جسدها، وشعرها الأشقر، الذي يقضي أغلب وقته فوق رأسها، يطير خلفها، طويلًا، حتى إن بعض سكان المجمع الذين تبعوها، داسوا عليه، وهم يستشعرون -غريزيًا- أن شيئًا مذهلًا، أو مأسَويًّا، يوشك على الحدوث، وعليهم أن يشهدوه.

- جولايد؟!

هكذا صرخت إليزابيث ثم توقفت فجأة. اتسعت عيناها دهشةً، وارتباكًا، وشعورًا بالراحة، فرحًا، وألمًا، وارتجف جسدها تحت وطأة تدفق كل تلك المشاعر بقلبها.

أطلقت جيستينا الزغاريد، واحتفل سكان المجمع وعمَّهم الشعور بالرضا أن وجدوا، أخيرًا، ما يفعلون. زغردت النساء ورقصن رقصة الجيج، ورقص الرجال رقصة المحاربين، بكل إتقان؛ ركلوا أرجلهم عاليًا في الهواء، وهمهموا، يدندنون بأغاني الحرب بنبرة عميقة. أما الشباب الأصغر سنًا في المجمع فلم يرقصوا الجيج كالنساء، ولا رقصة المحاربين، فهم أكثر حداثةً من ذلك، فراحوا يرقصون التويست، وراح الموهوبون منهم حقًا يؤدون رقصة المابانتسولا. لم يهتم أحد بالمرة بكل ذلك الغبار الذي أثارته بهجة المناسبة أثناء عودتهم إلى المجمع. بدا جولايد متأثرًا وشعر بالإحراج من كل هذا الاهتمام. لم تكن كل تلك الفرحة العفوية العارمة بغير داعٍ، فقد عاد جولايد جوميدي، بطل حرب التحرير، إلى منزله حيًّا، بصحة جيدة، على عكس كثيرين آخرين، إما عادوا محطمين أو لم يعودوا مطلقًا. لا شك أن حضور الحياة بعد الموت والدمار اللذين خلَّفتهما الحرب جديرٌ بالاحتفال.

لم يشعر ماركوس في حياته بانتماء عميق كهذا الذي شعر به وهو يسير بين إليزابيث وجولايد، وقد أمسك كل منهما بيد من يديه. ابتسم لجيني، وابتسمت له من موقعها، متموضعة ببراعة على كتفي أبيها. كان أسعد يوم في حياتهما.

مرت بضع سنوات على عودة والد جيني. وذات يوم، وهما في (براون كار) حدث ثاني أشد الأشياء غرابةً. كان كل ما حولهما قد تغير. أصبح هناك حركة أكثر على الطريق الترابية، وكانت مكتبةٌ متنقلة تجيء مرةً كل شهر إلى المجمع، وتسمح لكل ساكن أن يستعير كتابًا. استعار ماركوس مجلدًا مختلفًا من كتاب (مغامرات تينتين) كل شهر، واستعارت جيني كتاب (طائر النار)، وراحت تجدده كل شهر. استمتع ماركوس بتحدي شفتيه ولسانه وهو يقرأ خطب الكابتن هادوك المهووس بالجناس، وفُتِنت جيني بالصور الجميلة للطائر الملون، وكيف حيّر الأمير إيفان وأرسله في مسعى محفوف بالمخاطر.

وبالإضافة إلى المكتبة المتنقلة، أتت عيادة متنقلة مرة كل أسبوع، وحافلة من حافلات ماكينزي مرتين في الأسبوع من المدينة، مستأنفةً رحلاتها التي توقفت أثناء حرب التحرير. وتغيرت الأمور داخل (براون كار) كذلك، فلم تعد بينيلوب وحيدة، وانضم إليها سبيكس، دمية دب يرتدي نظارةً، أهداها لجيني والدُها في عيد ميلادها. غادرت بينيلوب مأمنها الأزلي على ظهر جيني، لتجلس إلى جوار سبيكس في المقعد الخلفي.

أصبح موت عباد الشمس وقيامته مما يألفه ماركوس وجيني، فلم يعد يزعجهما النظر إلى أميال وأميال من التربة القاحلة ذات اللون الأسود المحمر. نعما بالسعادة وشعرا بالأمان التام حتى إنهما حين حدث الشيء الغريب الثاني، احتاج الأمر منهما بعض الوقت ليدركا أنه مصدر تهديد لسعادتهما تلك.

سارت سيارة براقة على الطريق الترابية، بسرعة صاروخية، وكان هذا أمرًا غريبًا في حد ذاته؛ فمعظم المركبات تسير ببطء وحذر على هذه الطريق، يعلم سائقوها أنها طريق لا يمكن التنبؤ بها ولا الوثوق بها بحال من الأحوال. مرت السيارة بسرعة كبيرة حتى إن ماركوس وجيني لم تكن أمامهما فرصة لمعرفة مَن أو ما بداخلها. في الواقع، لم يعنهما كثيرًا أن يعرفا. بعد بضع دقائق من اختفاء السيارة، توقفا عن التفكير في الأمر برمته.

بعد حين، عادت السيارة السريعة الطائشة إلى الطريق، لكن بدا هذه المرة أنها تعلمت الدرس، فمضت بتؤدة وحرص.

فوجئ ماركوس وجيني عندما ترجّل كل أحبائهما -والدا جيني وجدّا ماركوس- من صندوق السيارة. ومن المقصورة، ترجل اثنان، رجل وامرأة بدوا براقين للغاية. تلألأت ثيابهما، وبدت بشرتهما مصقولة، (دون أن تحرقهما الشمس)، وكان شعرهما بالغ الطول لامعًا، ومجعدًا بشكل عشوائي، وهو يتلألأ تحت أشعة الشمس. أول الأمر، شعر ماركوس بالإحراج من أجلهما، وسرعان ما شعر بالذنب لأنه شعر بهذا الإحراج، فقد علم دون أن يخبره أحد أنهما والداه، قد عادا لتوهما من أمريكا.

أقبلت المرأة -التي افترض أن عليه أن يناديها من الآن بـ «أمي»- نحوه مسرعة، مادة ذراعيها، وهي تصيح: - عزيزي!

نزل ماركوس من (براون كار)، مترددًا، حذرًا، وعلى مضض. أدركت جيني مخاوفه، فخرجت من السيارة، وسارت معه، ممسكةً بيده.

عبست المرأة -أمه- في وجه جيني، ثم احتضنت ماركوس، وقالت له وهي تقبِّل كل بقعة في وجهه: - إنك جميل حقًا كما تصورتُ دومًا.

كانت تفوح منها رائحة حلوة جدًّا، ولكنها نفاذة، حتى إن ماركوس وجيني عطسا في نفس اللحظة. قالت المرأة لجيني: - ما أجملك!

وهي تنظر إليها، وعلى وجهها ابتسامةٌ لم تصلْ إلى عينيها، ولا أزالت عن جبينها عبوسه.
ردت جيني بطريقة آلية باردة، لم يكن إلا أن زادت المرأة عبوسًا.
- أجل، أنا جميلة.
أخيرًا نهضت المرأة، وتلطفت، وسألت:
- هل اسمها (جميلة)؟
لم توجه السؤال إلى شخص بعينه.
- اسمي جيني.
- آه، يا له من اسمٍ.. جميل!
صاحت المرأة:
- ليتنا أحضرنا معنا كاميرا! لمَ لمْ نفكر في هذا الأمر!
ثم صاحت ثانية، وهي تشبك بين يديها بفرحة عارمة:
- يا له من مشهد جميل حقًّا!
ثم قالت:
- لدينا مفاجأة لك في السيارة.
مدت يدها إلى ماركوس، الذي أخذها مترددًا، ثم رفعته بقوة هائلة، حتى إنه تعين عليه أن يترك يد جيني. ودون تمهيد، شرعت والدته في السير نحو السيارة البراقة، مبتعدة عن جيني، بسرعة.
نظر ماركوس إلى جيني من فوق كتف والدته، وازدادت المسافة بينهما بمعدل ينذر بالخطر. ورغم وجود جديه ووالدي جيني، شعر ماركوس أنه في خطر، وأن شيئًا فظيعًا يحدث، فلم يفعل إلا أن صرخ: - جيني!
هرولت جيني نحوه، وهي تصرخ، وبصوتها قلق لم يعدله إلا الخوف في صوته:
- ماركوس!
قال جولايد:
- ربما كان هناك طريقة أفضل للقيام بهذا.
وعقّبت إليزابيث بقولها:
- حتمًا، فأنت ترى قدر تعلّقهما ببعضهما بعضًا.
قالت المرأة -أمه، وهي تضمه إليها ضمًّا شديدًا:
- أنا آسفة، لا نقصد أن نكون قساةً، ولكن تعرفون جميعًا ما يجري، لم يعد المكان هنا آمنًا.
فقالت جدته:
- لم يكن المكان هنا آمنًا يومًا من الأيام، ولكننا دائمًا ما نجونا.

استدار ماركوس ونظر إليها. كان لصوتها وقع حاد، ولكن كانت هناك طيبة في عينيها الممتلئتين بالدموع واللتين لم ترفعهما عن ماركوس. لم تنظر إليه جدته تلك النظرة من قبل، ولم تبك في وجوده قَطّ. حين نظر إلى جدته، فوجدها على هذه الحال، أدرك ما يجري بوضوح تام.

لم تكن المفاجأة التي وُعِد بها في السيارة سوى خدعة. فهذه المرأة وهذا الرجل -والداه- لم يجيئا إلا لأخذه من هنا. فجأة شعر ماركوس بأنه محاصر بين ذراعي أمه. قاوم ليحرر نفسه، فركل بقدميه، وضرب بذراعيه. علم أنه يؤذيها، وربما تعمّد ذلك. لكنّ قبضة والدته لم تزدد إلا قوةً. أنشب أظفاره في عنقها بأعمق ما استطاع، ثم جرّ يديه، فأطلقت صرخة ألم حادة، إلا أنها لم تفلته، وقالت: - يومًا ما ستشكرنا لما نقوم به الآن.

شك ماركوس بهذا شكًا كبيرًا.

ولمّا كان ماركوس عازمًا على ألا يرحل عن مزرعة بوفورد، فقد أمسك بأحد قرطيها، وسحبه بكل ما أوتي من قوة، وانتزعه من شحمة أذنها، وسال الدم دافئًا على يده، وحينها فتح والده باب السيارة الطائشة. غرز ماركوس أسنانه في خد والدته، لكن بعد فوات الأوان، فقد كانت تجلس بالفعل في السيارة، وتحتضنه بشدة. سمع صوت قفل الباب بعد أن أغلقه والده، ورأى جيني تصل إلى الباب، وتحاول أن تفتحه من الخارج، قبل أن تنهرها أمها، قائلة: - دعيه يذهب، عليكِ أن تدعيه يمضي.

وحينها رأى شيئًا يدخل في عيني جيني وهي تنظر إليه، شيئًا جعله يستسلم تمامًا، وعلا الضبابُ كلَّ شيء.

قال والده وهو يركب السيارة:

- أنا على يقين من أننا سنرمي كل هذا وراء ظهورنا بمرور الوقت.

لم يستطع ماركوس أن يتبين إذا ما كان يقول هذا لمن في السيارة أم لمن هم خارجها. زم ماركوس عينيه، ليزيل ما غشيها من دموع، فرأى جيني وهي تبتسم له، وعلم أنها ليست ابتسامة حقيقية، وإنما ابتسامة لتشجيعه. لم يكن في حاجة للتشجيع، وإنما أراد من ينقذه. ثم فعلت جيني ما لم يتخيله؛ رفعت يدها، بزاوية حادة، وأدنتها من جبهتها.. وداعًا! انتظرت منه أن يفعل الشيء نفسه، لكنه رفض رفضًا قاطعًا أن يودعها. فجأة ثار الغبار، وانطلقت السيارة، ثم لم يعد بإمكان ماركوس رؤية حقل زهور عباد الشمس. ولفترة طويلة بعد ذلك، راح يسأل نفسه إذا ما كانت جيني قد أكملت إيماءة الوداع، فأنزلت يدها بحدة، تحسبُ أنه رد تحيتها؟ هل ودعته حقًا وتركته يذهب إلى الأبد؟ هكذا، بهذه البساطة؟! أم لم تزل تنتظر، ويمناها تشكل زاوية حادة على جبهتها؟

وفي السيارة، وضعت والدته خدها فوق رأسه، وهدهدته، وهي تقول: - سترى، سوف تشكرنا على إنقاذك، ستشكرنا يومًا ما.

كررت الكلمات مرةً بعد مرة، كما لو كانت تتلو تعويذةً. ثقُلت عيناه، فقد أنهكت المقاومة جسده. حينها فقط، وهو يصارع ليبقي عينيه مفتوحتين، وقعتا على امرأة أخرى معهم في السيارة، امرأة أكبر سنًا، تحمل على ذراعيها رضيعًا نائمًا، فتاةً تلتحف غطاءً ورديًا مكشكشًا. قال والده: - هذه مفاجأتنا لك، أختك الصغيرة كريسِل.

نظر ماركوس إلى والده، الذي ابتسم له ابتسامة تنم عن سعادته بشيء ما. نظر إلى المرأة العجوز التي تحمل الرضيعة، وقد خلا وجهها من الابتسامة.

- هذه جدتك، أمي.

قالت جدته الجديدة، دون أن تبتسم:

- نحن عائلتك الآن.

بدوا جميعًا جميلين، كل أفراد عائلته، لكن ماركوس شعر أن جمالهم جمال لا يوثق به، كان جمالًا تفوح منه رائحة الخطر. فجأةً، أصبح أكثر رعبًا مما كان عليه قبل لحظات. وعندئذٍ أطلق العنان لمثانته، وهو واعٍ تمامًا أنه سيلوث سرواله القصير، وثوب والدته اللامع.

بيكيثيمبا

في عام 1988 ، بعدما أخذ آل ماسوكو ماركوس من مزرعة بوفورد، قاد بيكيثيمبا نياثي سيارته على نفس الطريق -خلسةً- تحت جنح الظلام. قطع الطريق، أول مرة، في ضوء النهار، قبل بضعة أشهر، وكانت رحلته الأولى تلك سببًا لرحلته الثانية هذه. أوقف سيارته على مسافة من المجمع، وسار عبر حقول عباد الشمس القاحلة، ليذهله الصمت المرعب، صمت أحجمت فيه حتى الكلاب عن العواء لاكتمال القمر، كما لم تنبح عليه. لقد اختفت الحياة التي كانت هنا ذات يوم. أنار بيكيثيمبا مصباحه في بئر مهجورة، فلمعَ شيء في القاع، وصُدِم بيكيثيمبا إذ لم يكن يتوقعه. وحاول، وهو ينسل من المجمع، شاعرًا بالارتياح وبالقلق في الوقت ذاته، إذ لم يجد شيئًا -فلم يكن هناك من أحد في البئر- حاول أن يصالح الرجل الذي أصبح عليه الآن، مع الرجل الذي ظن أنه سيكونه في يوم من الأيام.

كانت السنة هي 1980، وشعر بيكيثيمبا، ربما لأول مرة في حياته، بأن جذوره ضاربة في المكان وأنه مرتبط بكل شيء وكل شخص من حوله. شعر أنه ابن الأرض، بالمعنى الحرفي الحقيقي. لقد كان شيئًا نبت وتبرعم -مخترقًا الأرض- من هذه البقعة عينها. شعر بحرقة في عينيه، وشعر بالاختناق في حلقه. امتلأت رئتاه بشيء ثقيل، مُرّ. راح الناس يركضون في كل ناحية بشكل عشوائي تمامًا، يبحثون عن مكان آمن. عمّت الفوضى، وساد الارتباك، والفزع. طغى الخوف وانعدم اليقين. رغم ذلك، وقف مكانه -هنا- دون أن يتحرك، ضاربًا بجذوره في أعماق الأرض، مرتبطًا بكل ما حوله ومن حوله، لا يغيب عنه اليقين. انقشع الغاز المسيل للدموع، وهو لم يزل في مكانه، في هذه اللحظة من التاريخ.

لقد قطع كل هذا الطريق ليرى الأمير تشارلز، ولعله يصافحه، يدًا بيد. فقد صافح جدَّه الكثير من أفراد العائلة المالكة البريطانية: الملك جورج السادس، والملكة الأم، والملكة إليزابيث الثانية، والأميرة مارجريت. قبل رحيل أبيه عن الحياة بوقت قليل، كان قد فقد معظم ذاكرته؛ نسي اسمه (كوزموس نياثي)، نسي اسم زوجته المسيحية وزوجتيه من الزواج العرفي، نسي أسماء أبنائه الثلاثة عشر، وأحفاده الثمانية والعشرين، حتى لقد نسي أنه كان رجل أعمال ناجحًا دفعته روح المغامرة إلى أن يترك حياته في قرية العائلة في السادسة عشرة من عمره، ليعمل صبيًّا مسؤولًا عن المخزون لدى سيد يُدعى ماكينزي، في متجر ماكينزي للبضائع العامة.

قبل موته، نسيَ كوزموس نياثي أنه، وهو في السابعة عشرة اقترح على السيد ماكينزي أن يفتح متجرًا للخمور. فرغم أن متجر السيد ماكينزي للسلع

العامة كان المتجر الوحيد على مسافة كيلومترات عدة، فإن تجارته كانت في انحدار، إذ بدا أن الزبائن يفضلون التعامل مع التجار الرحالة الذين دائمًا ما كانوا يقدمون لمن يشتري منهم شيئًا إضافيًا –(بونسيلا)- كمكافأة. ولأن متجر ماكينزي للبضائع العامة كان ملاصقًا لمقر إحدى الإرساليات، فقد شك السيد ماكينزي في أن يجتذب متجر الخمور عددًا كافيًا من الزبائن، باعتبار أنه سيكون على الدوام تحت أعين المبشرين اليقظة. ولكن، لأن السيد ماكينزي كان في حيرة من أمره (وهذه عبارة من عباراته المفضلة متى تحدَّث عن علاقته بالمستعمرة) فقد وافق على فتح متجر للخمور، شريطة أن يديره كوزموس بنفسه. حقق متجر ماكينزي للخمور نجاحًا هائلًا، حتى إن السيد ماكينزي سرعان ما قرر أن يفتح متجرًا آخر، في قرية أخرى. ومرةً أخرى، أرسل كوزموس لإدارته. ذاعت شهرة المتجرَين، فأصبح اسم ماكينزي مألوفًا في كل مكان، وتبع ذلك رواج كبير في متجر البضائع العامة، أيضًا.

قبل موته، نسي كوزموس أيضًا أنه عندما ضربت الحيرة السيد ماكينزي مرة أخرى، ليس مع المستعمرة هذه المرة وإنما مع ما يجري في أوروبا من أحداث في ذلك الوقت، عاد فجأةً إلى اسكتلندا سنة 1938 وكان من الكرم بمكان حتى إنه ورّث متجر ماكينزي للبضائع العامة، ومتجري ماكينزي للخمور للرجل الذي جعل منهم تجارةً رابحة!

في عام 1938، كان معظم الأفارقة ليطيروا من السعادة لو امتلكوا ثلاثة متاجر ناجحة، إلا أن كوزموس نياثي لم يكن واحدًا من هؤلاء. فطوّر عمله ليشمل خط ماكينزي للحافلات، وبيوسكوب (سينما) ماكينزي. كان كوزموس نياثي واحدًا ممن أطلقوا عليه في المستعمرات (إفريقي صالح)؛ فهو، أولًا، مسيحي، وهو كذلك يعمل بجد، كما أنه، بشكل عام، نظيف ومتزن. لهذا، كان كلما أتت جولة تفتيش ملكية، قُدِّم كمثال على التقدم التي تحرزه المستعمرة مع سكانها الأفارقة، وهكذا تسنّت له مصافحة الملك جورج السادس، والملكة الأم، والملكة إليزابيث الثانية، والأميرة مارجريت. من بين كل الأشياء التي قام بها في سنوات عمره الاثنتين والسبعين، لم يفخر بشيء قدر فخره بتلك اللحظات التي صافحت فيها يداه أيادي أفراد العائلة الملكية، ولهذا عندما أوشك عمره على الانقضاء نسي كل شيء، إلا هذه اللحظات. وعندما رحل، ترك لعائلته إرثين: تجارة ماكينزي، وفخره بصلة عائلته بالعائلة الملكية البريطانية.

ولهذا شعر بيكيثيمبا، وهو يشق طريقه إلى الاستاد لرؤية الأمير تشارلز وهو يتسلّم راية الاتحاد (العلم البريطاني) ويشاهد علم الدولة المستقلة حديثًا يُرفع مكانه، بفخر كبير، وبحزن كبير أيضًا لغروب شمس الإمبراطورية. وهو في الثامنة عشرة من عمره كان لديه من الغرور ما كفاه ليحسب أنه سيحظى

بلحظة خاصة مع الأمير تشارلز، يقول له فيها: - كان جدي، كوزموس نياثي، مالك تجارة ماكينزي، يعرف جدك وأمك، كان إفريقيًا صالحًا، وصافحهما.

ليرد الأمير تشارلز بدوره:

- كوزموس نياثي! بالطبع أعرفه فلطالما تحدث عنه جدي وأمي، لقد كان بالفعل إفريقيًا صالحًا، كما كان في غاية الإبداع بالنسبة لواحد من جنسه.

وبعد هذا، يخبر بيكيثيمبا الأمير تشارلز أنه يعارض بشدة استقلال بلاده عن الإمبراطورية البريطانية، مضيفًا أنه تعمّد ألا ينضم إلى الصراع المسلح الذي يقوده الإرهابيون، وأنه في الثامنة عشرة أصابه حزن بالغ لأنه هو وكل أبنائه في المستقبل لن يكونوا رعايا لبريطانيا.

بالطبع، لم تسر الأمور على هذا النحو. بالفعل تم إنزال الراية البريطانية، وطُويت، وسُلّمت إلى ملك إنجلترا المستقبلي، وفاجأ بيكيثيمبا نفسه، فلم يشعر بأي شيء، على الإطلاق. ولكم أربكه هذا، ألّا يشعر حيال الأمر بشيء! بدا الأمير تشارلز قلقًا، ضعيفًا، منفصلًا عن كل ما يجري من حوله، ولم يستطع بيكيثيمبا أن يعرف إذا ما كان الأمير مستعليًا على كل شيء أم أنه، وببساطة، لا يكترث للأمر. وبدلًا من أن يكون أميرًا، بدا أنه يلعب دور ملك مستقبلي، بشاراته العسكرية ناصعة البياض. أحس بيكيثيمبا أن الحذاء الذي ينتعله الأمير (الدور الذي يقوم به) كان كبيرًا عليه بعض الشيء. بكل أمانة، لقد أثبت الأمير أنه مخيِّب للآمال، بدرجة أو بأخرى.

وبينما كان بيكيثيمبا يروض نفسه على الرضا بتلك الأمسية المخيِّبة للآمال، صعد على المنصة رجل ذو جدائل، ورفع قبضته وصاح: - فيفا!

ثارت حماسة الجماهير، وشعر بيكيثيمبا بشيء يعتمل في نفسه، نبتة جديدة، بداية جميلة. للمرة الأولى يصبح مدركًا تمامًا للحشود من حوله، مستشعرًا حماستهم ونشوتهم إذ نالوا أخيرًا استقلالهم وحريتهم. دفعته الحشود يمنة ويسرة، ولكنه لم يمانع أو يشعر بالضيق من هذا الازدحام، وهذا التلاحم، بل شعر فيه براحة تامة. عزف الرجل ذو الجدائل على جيتاره وهو مغمض العينين. وشدت ثلاث نساء فاتنات بأجمل الألحان. تحركت الحشود في تناغم كما لو كانت جسدًا واحدًا، وتحرك معها بيكيثيمبا. ولأول مرة يشعر بيكيثيمبا أنه جزء من كلٍّ أكبر منه. فتح ذو الجدائل عينيه ونظر مباشرة إلى بيكيثيمبا، وصاح مرةً ثانية: - فيفا!

فردّت الحشود:

- فيفا!

ووجد بيكيثيمبا نفسه يردد معهم:

- فيفا!

حتى ولو لم يعرف مغزى الكلمة. شعر حينها بشيء غريب يسري في جسده، دفقة من كهرباء تغمره من رأسه إلى قدميه، تزرعه في الأرض زرعًا وتربطه

بتربتها. أصبحت الجماهير، ومعها بيكيثيمبا، قوةً متحركة واحدة، قوة طاغية تتنفس نفسًا واحدًا. لم يستطع بيكيثيمبا أن يفعل شيئًا إلا أن ينظر إلى ذي الجدائل، مفتونًا، فهو من يفعل هذا بالناس. بدا أنه يمتلك قوة كبيرة، قوة لا يملك الأمير تشارلز مثلها، القدرة على تحريك الناس، وتوحيدهم، القدرة على إلهامهم. سيعرف بيكيثيمبا فيما بعد أن هذه القوة اسمها «قوة الشخصية» (الكاريزما). أيقن بيكيثيمبا أن هذا الرجل ذا الجدائل سيقوده إلى شيء عظيم.

أغلق الرجل عينيه مرة أخرى. وكانت هناك ومضةٌ من ضوء، ثم أصبح الهواء كثيفًا، مشبعًا بدخان يحرق العيون ويملأ الصدور بشيء مرير. فزعت الجماهير، وعمت الفوضى. لم يتزحزح بيكيثيمبا! شعر أنه يضرب بجذوره في تلك الأرض، يتصل بها اتصالًا لا يستطيع شيء أن يقتلعه منها. انتظر، بصبر، أن يفتح ذو الجدائل عينيه مرة أخرى. إن كان مقدَّرًا له أن يموت هنا، في هذه البقعة، وفي عامه الثامن عشر، فليكنْ، سيموت بكل سرور، ولكن فقط بعد أن يفتح ذو الجدائل عينيه. انقشع الدخان، وزالت حرقة عينيه. تنفس نفسًا عميقًا، وملأ صدره بالهواء النقي. فتح ذو الجدائل عينيه، ونظر مباشرة إلى بيكيثيمبا، مرةً أخرى. وجرت على شفتيه إيماءة ما، ابتسامة خفيفة، وفي عينيه بدت نظرة احترام وتقدير. عادت الفرقة إلى المسرح. عندئذٍ فقط أدرك بيكيثيمبا أن الجميع هربوا بمجرد أن ملأ الدخانُ الهواء. قال الرجل ذو الجدائل، ولم يزل ينظر إلى بيكيثيمبا في عينيه: - الآن أعرف من هو الثوري الحقيقي.

شعر بكيثيمبا كما لو أنه قد مُسِح بالزيت (حظي بشرف عظيم).

ولبقية حياة بيكيثيمبا، سيشعر بارتباط قوي بهذا الرجل. كان يتحدث عن «لقائه» بالرجل ذي الجدائل بنفس القدر من الفخر الذي تحدث به جده عن مصافحته العائلةَ المالكة البريطانية. ومن يومئذٍ راح بيكيثيمبا يتحيّن اللحظة المثالية، في أي مناسبة، ليقف في وسط أي تجمع من الناس، ويطرِب أسماعهم بهذه القصة، قصة كيف نظر إليه بوب مارلي من خلال دخان الاستاد المشبع بالغاز المسيل للدموع وأخبره أنه ثوريٌّ حقيقي.

غيّر هذا اللقاء بيكيثيمبا تغييرًا كليًا، وملأه فخرًا ببلده، وسواد بشرته، ولم يكن كذلك من قبل. كتب عن هذا اللقاء الذي غيَّر مجرى حياته في «رسالة إلى المحرر» للصحيفة المحلية التي تديرها الدولة. نُشِرت الرسالة، وبعد أيام قليلة تلقى مكالمة من (الرجل ذاته) يشيد بما كتب، ويعرض عليه منحة لدراسة الصحافة في الجامعة المحلية التي تديرها الدولة. قبِل بيكيثيمبا، الممسوح بزيت الفخر، العرض بسعادة. بعد فترة وجيزة من تخرجه، ذهب للعمل في إحدى الصحف المحلية التي تديرها الدولة، وجعله اعتزازُه ببلده الناطقَ بلسان الدولة. كان قوميًا، وطنيًا، وثوريًا. اعتقد اعتقادًا راسخًا أنه يعيش في البلد الذي غنى له بوب مارلي بكل فخر وشغف. وها هو الآن يكتب عن بلاده بنفس الفخر والشغف.

في الحقيقة، شعر بيكيثيمبا بفخر كبير لاصطفائه من قبل (الرجل ذاته). لم يَفُتْه أن علاقته به منحته احترامًا بين أقرانه، وساعدته على اكتساب سمعة طيبة. ومتى شعر بأي ذنب لاصطفائه على هذا النحو، استطاع التخلص من ذلك الإحساس بإقناع نفسه بأنه الرجل الذي تحتاج إليه بلاده في تلك المرحلة. ما أحرجه حقًا ذكره أنه، في شبابه، كان مستعمرًا لدرجة أنه لم يفكر ولو لمرة واحدة في النضال من أجل تحرير بلاده، وأنه، كجده ووالده من قبله، أحب أن يكون تابعًا لبريطانيا. لكنه أصبح الآن على قدر من الرصانة كافٍ لأن ينظر إلى تلك الفترة من حياته بموضوعية وتجرد؛ لم تكن بلاده بحاجة إليه في ذلك الوقت، وربما إن قاتل حينها قُتِل، فما الذي كانت لتجنيه بلاده من موته؟ أما الآن، فبلاده بحاجة إليه. بإمكانه -الآن- أن يكتب من القصص ما يعين على بناء الوطن الجديد. سيكون هو الشخص الذي يغير بلاده من دولة عنصرية مقسمة، إلى دولة موحّدة متعددة الأعراق.

أخبره (الرجل ذاته) أن الصراع بات حتميًا الآن، فالدولة في مقتبل العمر وهي تعمل على حل خلافاتها والحروب الأهلية غالبًا ما يكون لها تداعيات، ولدى الدولة رؤية تحاول تحقيقها وحمايتها، إلا أن الدول الغربية تنتظر لها الفشل. مهمة بيكيثيمبا هي التأكد من ألّا يحصل الغرب على ما يعينه على تدمير صورة البلاد. فهم بيكيثيمبا لم لا يجب إعطاء الغرب سببًا لتشويه سمعة الدولة أو الإساءة إليها، لكنه آمن كذلك أنه يجب أن تُمنح الدولة الفرصة لتفقد أحوالها، فهذا هو السبيل الأوحد لتفهم نفسها فهمًا دقيقًا، فتغير ما يلزم تغييره، وتعمل على بناء مجتمع عادل يساوي بين الناس. كانت هذه هي الثورة الحقيقية عند بيكيثيمبا: بناء مجتمع عادل، خالٍ من التمييز، يحتضن الجميع، فكتب -في سبيل تلك الغاية- مقالاتٍ حازت علَى جوائز عديدة. كتب عن حق المرأة في ارتداء البنطال، وكتب عن كرامة المعاقين، وعن محنة عمال المزارع، وكتب عن تاريخ الملونين، وعن ثراء التراث الثقافي للكويسان، وعن حق المرأة في الحصول على أجر مساوٍ للرجل، كما كتب عن أهمية الزراعة التجارية للاقتصاد الوطني. وغالبًا ما يتصل (الرجل ذاته) ببيكيثيمبا ليثنيَ على ما كتب، حريصًا في كل مرة على أن يقتبس مما كتبه فقرة معينة، أو تعبيرًا، أو جملة رائقة. لطالما أحس بيكيثيمبا بالفخر بسبب هذا الاهتمام، بالفخر والتواضع في ذات الوقت، فبذل مزيدًا من الجهد ليقوم بعمل أفضل. افتخر بموضوعيته كصحفي، وبقدرته على تقديم جميع جوانب القصة، كما أمدّ رفاقه من المواطنين بما ساعدهم من المعلومات على فهم بلدهم وبعضهم بعضًا بشكل أفضل. غالبًا ما كانت كتاباته تثير نقاشات مثيرة وتبادلًا للأفكار والآراء في قسم «رسالة إلى المحرر».

أبلغ (الرجل ذاته) بيكيثيمبا أنه يفكر في تغيير الأمور بإحدى الصحف المحلية التي تديرها الدولة، والتي لم يزل يكتب بها عددٌ كبيرٌ للغاية من الصحفيين

البيض، فلم تعد تعبر عن استقلال الأغلبية. هل يود بيكيثيمبا نياثي أن يصبح الرئيس الجديد للتحقيقات الصحفية؟ كان بيكيثيمبا قد بلغ للتو الخامسة والعشرين من عمره، وشعر بأنه نضج بما يكفي لتولي مثل تلك المسؤولية، وقبل الترقية.

عندما اتصل به شخص من مصنعٍ لتجميع السيارات، ليخبره أن وزراء الدولة يعيدون -بشكل غير قانوني- بيعَ السيارات التي تسلموها مجانًا كجزء من أجورهم (وقد باع أحدهم ما يصل إلى إحدى عشرة سيارة)، رأى بيكيثيمبا أنها قصة جيدة يجب تسليط الضوء عليها، وحث الناس على التفكّر في دواعي انتخابهم للمسؤولين، وفي نوعية الشخصية التي يجب أن يتحلّى بها من ينتخبونه. أمكنه بالفعل أن يتصور ردود الأفعال التي ستجري في قسم «رسالة إلى المحرر» بعد كتابته عن تلك القصة. كتبها، فلم تُنشَر! تحدث إلى رئيس التحرير، فأخبره أنه -من الآن فصاعدًا- ليس له أن يكتب إلا عما يخبره به (الرجل ذاته). ضحك رئيس التحرير من الارتباك الذي أصاب وجه بيكيثيمبا، وقال: - ما لك امتقع لونك!

متابعًا:

- لقد قام (الرجل ذاته)، أيضًا، ببيع العديد من السيارات بشكل غير قانوني، أتحسب أنه بإمكاننا بالفعل أن نغطي مثل تلك القصة؟! هذه قصة سيحين وقتها، صدقني! أما الآن، فهذه هي صحافتنا الحرة.

اتصل بيكيثيمبا بـ(الرجل ذاته)، فأخبروه أنه غير موجود بالمكتب. ثم اتصل خمس مرات قبل أن يدرك أن (الرجل ذاته) يتجنبه، عامدًا. ذهب إلى العمل في اليوم التالي وهو ينتظر مكالمة من (الرجل ذاته) ليُعْلِمه بما يمكنه الكتابة عنه. لم تأتِه المكالمة قط. ذهب إلى عمله لما يقرب من ثلاثة أشهر، يتلقى شيكًا بأجره كل أسبوعين، إلا أن (الرجل ذاته) لم يتصل.

جلس بيكيثيمبا على مكتبه لا يفعل شيئًا. راح يشاهد زملاءه وهم يروحون ويجيئون. لاحظ بعض الأشياء، كاهتراء الأثاث، وأنسجة العنكبوت في الزوايا، وأوساخًا رمادية تتسلل إلى النوافذ. شم رائحة الملفوف المسلوق تنبعث من كافيتيريا الشركة لتَعْلَقَ في المبنى. لاحظ كل ذلك للمرة الأولى. عرف كل خدش أو صدمة في الأثاث، وعرف عدد تجمعات خيوط العنكبوت من حوله، وإلى أين وصلت الأوساخ الرمادية على النافذة، وأين تصبح رائحة الملفوف أكثر نفاذًا، وأين تتغلب عليها رائحة البول الذي جففته الشمس في زقاقٍ خلف المبنى. أدرك إلى أي حد عرَّض نفسه للخطر عبر ارتباطه بـ (الرجل ذاته). لم يتحدث زملاؤه معه، ولم ينظروا إليه مباشرةً، وأيقن أنهم يسخرون منه من وراء ظهره لأنه حسب أنه أثير عند (الرجل ذاته). فكّر في البحث عن وظيفة في جريدة أخرى، ولكن الدولة تدير كل الصحف، وقد بات لديه من الحكمة ما يعرف معه أن مسعاه في هذا الأمر سيخيب. ربما كان لِيشعرَ بحال أفضل لو

لم يكن يتلقى شيكًا بأجره كل أسبوعين، ولكنه فعل، وهو يعرف أن شيكًا مقابل خدمات لا تُؤدى ليس سوى طريقة (الرجل ذاته) في التعبير عن.. القوة والنفوذ.

وفي تلك الفترة، وصلته الشائعة، شائعة تقول إن الناس في منطقة بعينها من البلاد يختفون بشكل منهجي، تختطفهم الدولة. رفض بيكيثيمبا أن يصدق ذلك الأمر، إلى أن أصبحت الشائعات أكثر تحديدًا؛ فمن يختفون على هذا النحو المنهجي هم أبناء عرق معين، في هذه المنطقة من البلاد. أصر بيكيثيمبا على موقفه من رفض تصديق الأمر. ثم وصله أن ابن عمه، الذي لم يزل يذكر أنه اعتاد اللعب معه في صباه، وهو أيضًا شخص -على النقيض من بيكيثيمبا- كان قد قرر عبور نهر زامبيزي ليناضل في سبيل الحرية، وصله أنه قد اختفى أيضًا. عرف أن قصة اختفاء ابن عمه ستبقى إلى الأبد بلا تحقيق، ولن يُكتب عنها، ولن تُحَلّ. شعر بحرقة في عينيه وبمرارة في حلقه. زم عينيه بقوة، يزيل عنها الحرقة، وابتلع مرارة حلقه، وقرر ألا يفكر في الأمر.

قبل أن يتصل به (الرجل ذاته) ويعطيه تكليفًا مباشرًا، كان بيكيثيمبا قد تعلَّم الدرس جيدًا.

أخبره (الرجل ذاته) أن رجلًا مجنونًا في مزرعة بوفورد يعتقد أنه قادر على الطيران وأنه يُنشئ سلالة من الملائكة، وأتباعًا يعتقدون أنهم أيضًا قادرون على الطيران. كان الرجل يبني زوجًا عملاقًا من الأجنحة الفضية حتى يتمكن من نقل المرأة التي يحبها إلى ناشفيل بولاية تينيسي. لمس أتباع الرجل الأجنحة، وصلوا لها، حرسوها، وقدموا إليها القرابين، يفعلون كل ذلك آملين أن يحصلوا على أجنحة خاصة بهم في يوم من الأيام. قال (الرجل ذاته) إن هذه ستكون القصة المثالية لتسلية الجماهير في تلك الأوقات الصعبة. رأى بيكيثيمبا أن قصة الرجل المجنون وطائفته قصة تستحق أن تُروى، ليس لأنها مسلية ولكن لأنها تدور حول الجرأة على الإيمان. أمكنه بالفعل تصور قسم «رسالة إلى المحرر» وهو يمتلئ بالإثارة. رأى أن هذه القصة هي طريقه للعودة إلى مجده.

لكن كانت هناك مشكلة: فبيكيثيمبا لا يؤمن بالحب، أو بالأحرى لا يؤمن بالحب الرومانسي الخالص. إنه يفهم أن يحب المرء والديه وبلده، فهذا نوع من الحب ينبع من الاحترام والامتنان. الحب هو نوع من العطاء، حب له سبب. من الطبيعي أن يحب الإنسان الأسباب التي منحته الحياة، فهو شعور بالمكان، بالوطن، شعور بالانتماء، وكذلك شعور بأنه مرتبط بما حوله. ليس للإنسان أن ينعم بالوجود دون هذه الأشياء، ولهذا فمن الطبيعي أن يحبها. هو حبّ أناني، حب الحفاظ على الذات. والحب الأناني مفهوم ومعقول. أما الحب الرومانسي، فليس له سبب. قرأ بيكيثيمبا في مكان ما أن هذا النوع من الحب ليس إلا خيالًا، شيء يمكن أن يشغل الناس، ظمأ لا يمكن إطفاؤه أبدًا، حب

يجعل من حياة المرء مطاردةً ومسعى أكثر منها سلسلةً من أحداث لا تربطها ببعضها بعضًا أي روابط، أحداث مملة في الغالب. ولذا لم يصدق بيكيثيمبا تمام التصديق أن هذا الرجل الذي بنى زوجًا عملاقًا من الأجنحة الفضية فعل ذلك من أجل الحب - حب امرأة. شك بيكيثيمبا أن هناك سببًا آخر.. سببًا أكثر إثارةً للاهتمام، وأكثر واقعية، ومنطقية، وكان هذا -بالنسبة له- كافيًا لقصة جيدة.

شق بيكيثيمبا طريقه إلى مزرعة بوفورد مفتونًا، يقود سيارته على طريق ترابية يحيط به بحر من عباد الشمس.

ومن بين زهور عباد الشمس خرج وميض من ضوء ملون، جعل بيكيثيمبا يوقف سيارته بشكل مفاجئ. وفي وسط اللامكان، كان كل شيء ممكنًا. انتظر حتى يهدأ الغبار قبل أن يتخذ خطوته التالية.

انقشع الغبار، ليجد فتاة تقف أمام السيارة، واضعة يسراها في خصرها، ومن يمناها تتدلى دمية دب، وعلى ظهرها دمية لعروس من قماش ثبتتها فوقه بإحكام. ارتسمت على وجه الفتاة أمارات العبوس، عبوسٌ عن فضول، لا عن عداء. لم يفصل بينها وبين السيارة إلا سنتيمترات قليلة. رأى بيكيثيمبا فمها يتحرك، ولكنه لم يتبين ما تقول. أوقف محرك السيارة، وأنزل زجاج النافذة.

- أتيتَ لتأخذ من؟

سألته، وتعمدت ألا تدنو منه. يا له من سؤال غريب! ثم كررت سؤالها: - أتيتَ لتأخذ من؟

دون أن تتحرك من مكانها.

فقال وهو يرمقها بأكثر ابتساماته سحرًا:

- لا أحد.

بدا عليها عدم الاقتناع.

سألها:

- هل هذه مزرعة بوفورد، المكان الذي يقوم فيه الرجل ببناء طائرة؟

تحول عبوسها إلى عبوس عدائي، فأردف:

- أنا صحفي، أريد أن أكتب قصة عن هذا الرجل.

- ولماذا قصة؟

كيف يجيب عن سؤال كهذا! لماذا قصة؟! وماذا غير ذلك؟ إن كل عمله هو البحث عن القصص. لم يخطر بباله يومًا أن يفعل أي شيء آخر، أن يبحث عن أي شيء آخر.

- همم! أعتقد أنها قصة مهمة، أظن أن الناس سـ... ستلهمهم هذه القصة.

- لماذا تلهمهم؟

وها هو سؤال آخر لا يعرف كيف يجيبه. هل تفهم هي أصلًا معنى «تُلهمهم»؟ أليس من الجائز أنها تسأل فقط من أجل السؤال، كما يفعل الأطفال؟

- من الذين تسعى إلى إلهامهم؟
لعلها إذن تفهم المحادثة التي تجري بينهما أفضل مما يفهمها هو.
- كثير من الناس، فكثير منهم لا يعتقد أن بإمكاننا الطيران، كثير منهم في حاجة إلى أن يؤمن أننا نستطيع أن نطير.
انتظر سؤالها التالي، ولكنه لم يأتِ. بل، وكما ظهرت فجأة أمامه، كومضة من بين الزهور، اختفت بنفس السرعة أيضًا بين الزهور. جلس بيكيثيمبا في سيارته، لا يدري ماذا ستكون خطوته التالية. وبعد لحظة، بدأ يشك في أن فتاة قد وقفت حقًا أمام سيارته. إنه يقود منذ ساعات طويلة، وربما خدعه عقله. يا لها من كائن برّاق، مفعم بالطاقة! قطعًا بدت كأنها من عالم غير عالمنا. سخر بيكيثيمبا من نفسه. ما هذا الذي يدور برأسه؟ إنه رجل عقلاني. بالطبع كان هناك فتاة.
هل عليه أن يكمل سيره على الطريق الترابية، أم يستدير؟ وبينما كان يحاول أن يتخذ قراره، رآهم؛ مجموعة من الأشخاص، قادمين نحوه على الطريق الترابية، تؤمّهم الفتاة. إنها موجودة بالفعل. ترجل بيكيثيمبا من السيارة، لا يعرف أهو محل ترحيب أم لا.
- إنه لم يأت إلى هنا لأخذ أحد.
هكذا قالت الفتاة، معلنةً، قبل أن يتفوه بكلمة.
- يقول إنه هنا ليكتب قصة الرجل الذي يبني الأجنحة.
وهكذا أردفت، بثقة، وتابعت:
- يقول إن القصة ستُلهم الناس، يقول إن الناس لا يؤمنون بقدرتنا على الطيران.
أقبل رجل بالغ الطول، وقال، بتواضع:
- أعتقد أني الرجل الذي تبحث عنه.
ارتاب بيكيثيمبا بالأمر. كان الرجل أبيض البشرة إلى حد مزعج.
قالت الفتاة، وصدرها ينتفخ بفخر لا لبس فيه: - إنه أبي.
كانت تنظر إلى الرجل مزعج البياض نظرة إجلال وتوقير، كحال كل من ينظر إليه. سرعان ما أدرك بيكيثيمبا مصدر فخرهم. فبمجرد النظر إلى الرجل، عرف أن به شيئًا مختلفًا، شيء يتعدّى لون بشرته. كان يمتلك ذلك الشيء عينه الذي رآه بيكيثيمبا في الرجل ذي الجدائل.. القوة! لكن ليست أي قوة، وإنما قوة من نوع خاص؛ القدرة على تحريك، وإلهام، وتوحيد الناس؛ قوة الشخصية (الكاريزما).
أخبر الرجل بيكيثيمبا كيف توصل إلى نظريته للطيران في الثالث من سبتمبر عام 1978 وهو يشاهد الأفيال تسبح عبر نهر زامبيزي. قال له إن ما جعل أول فيل يعبر النهر هو أنه كان بإمكانه رؤية الضفة الأخرى للنهر، فما كان الفيل

ليخوض المحيط، هذا شيء كان الرجل على يقين منه. أمّا ما جعل الأفيال الأخرى تحذو حذو الأول فهو نجاح هذا الأول. أراد الرجل أن يعرف الناسُ أنهم قادرون على الطيران، وفي البداية اعتقد -خطأً- أنهم سيدركون ذلك إذا علّمهم كيف يبنون الطائرات. ولكن بعد مشاهدة الفيلة، أدرك أن ما يحقق هدفه ليس إلا مجرد إيمانه هو بقدرته على الطيران. إن رآه الناس يبني زوجًا عملاقًا من الأجنحة الفضية، فسيؤمنون هم أيضًا أنهم قادرون على الطيران.

جيستينا

كانت جيستينا تراقب أناسًا، تعرفهم طيلة حياتها، يتحركون كالإنسان الآلي في أرجاء المجمع بلونه الرمادي المصفر. لم تعد قادرة على تمييزهم. لقد تغير شيء بداخلهم، شيء أساسي. يبدو أن سكان مزرعة بوفورد قد استنفدوا كل عاطفة بشرية ممكنة، فأصبحوا منهكين. لم تستطع إلا أن تتساءل إذا ما كان المشهد الذي تراه أمامها سببه أن الصحفي، بيكيثيمبا نياثي، كتب قصة جولايد جوميدي و(سلالة) ملائكته الذين آمنوا أن بإمكانهم الطيران.

مر عليها السيد فونديل، معلم محو الأمية الذي يعلمها، دون أن يراها. كان يحمل زوجته على ظهره، وفستانها ذو اللونين الأصفر والأبيض لطخته حمرة صارخة. عرفت جيستينا من الزاوية التي تميل بها رقبة المرأة، أنها ميتة. عرفت هذا لأنها رأت رؤوس العصافير التي يصطادها الصبية تميل على هذا النحو بعد موتها. كما أنها هي نفسها قد لوت أعناق ما لا يُحصى من الدجاج، ولا تخطئ عيناها تلك الزاوية التي تعني الموت.

لم يكن السيد فونديل هو الشخص الوحيد الذي يحمل جثة، فقد كان هناك غيره من السكان يفعلون مثله، كانوا بين حامل لجثة ومعين لحامل. مروا جميعًا بجيستينا دون أن يروها. علت وجوههم جميعًا نظرةٌ شاردة، بدت -للمفارقة- كأنها منصبة إلى الداخل.. إلى أنفسهم. كانوا كأنهم يبحثون في أعماق أرواحهم عن أي شيء يخبرهم بما اكتسبته أيديهم ليستحقوا ما حل بهم.

أي جريمة هذه التي عُوقبوا عليها بدفن الأهل، والأصدقاء، والجيران! هؤلاء الذين كانوا -حتى صباح ذلك اليوم- مليئين بالحب، والضحك، بالغضب، والطمع، بالغيرة والضيق، بشيء.. أي شيء إلا هذا الفراغ، هذا العدم الذي جعل الأجساد لا تقاوم بأي شكل وهي تُحمل وتُلقى في قاع بئر مهجورة! أيًّا كان ما شعروا به، حبًّا كان أم كرهًا، فهو شعور لم ينذرهم أنهم سيشعرون به للمرة الأخيرة، شعور لم يُنبههم أن عليهم أن يعيشوه بكل كيانهم، أن يتمسكوا به ولو إلى حين.

شاهدت جيستينا، ذاهلةً، أناسًا تعرفهم طوال حياتها، يعين كل منهم الآخر وهو يرفع جثة لإنسان عرفته طوال حياتها، ويحملها إلى البئر المهجورة عند حافة المجمع. ثم لاحظت الصمت. لا بكاء هناك ولا عويل. ما صر واحد منهم أسنانه أو طرق الأرض غضبًا، لم يمزق أي منهم شعره، ولا شق ثيابه. كل ما ارتضاه المجتمع تعبيرًا عن الحزن.. كله.. لم يكن هناك منه شيء! متى تعلموا القيام بذلك! أن يدفنوا موتاهم بهذا الصمت المطلق؟ هل يمكن لمجتمع بأكمله أن يتعلم درسًا بهذه السرعة وبهذا الكمال؟!

كانت هناك جثة لم يحملها أحد، متفحمة، لا يبين منها ملمح. لها يدان يبدو أنهما تصران على الإمساك بشيء، والساقان تتلويان في رقصة أبدية من الألم، وفم فاغر يكشف عن أسنان معوجة. خُيِّل إلى جيستينا أن هذا الشخص لا بد أنه -في حياته- كان له ابتسامة معوجة. لكم أحزنها ألا تستطيع أن تذكر من هو! فلعلها كثيرًا ما حيَّته بقولها «أراك لاحقًا!». لقد كان جزءًا من نسيج حياتها.. من نسيج حياتهم جميعًا، وها هو راقد هنا، عدمًا. حملوا أربعة عشر جسدًا إلى البئر، ليدفنوهم تحت مائها، كما أحصتهم جيستينا، وكانت جثة الرجل المعوج هي الخامسة عشر. تردد الجميع. جثة الرجل بدت على وشك أن تتهشّم، ولم يُرِد أي منهم أن يكون من يفضي به إلى مثل هذا المصير. دون قول كلمة واحدة، مضى كلٌّ في طريقه، تاركين وراءهم البقايا المحترقة.

عادوا إلى بيوتهم، تلك البيوت التي حُطِّمت، ربما بشكل لن يجدي معه أي إصلاح.

لم يكن أمام جيستينا إلا أن تفعل كما فعلوا.

دلفت إلى المنزل عبر المطبخ، وسمعت شخصًا يحاول أن يكتم صوت أنفاسه. التفتت فوجدت جيني مرتاعَة ترتجف في الزاوية.

لا بد أن جيني -في لحظة ما- قررت أن تهرب إلى منزل جدَّيْ ماركوس. لا بد أنها وجدتهما جالسَين إلى الطاولة في غرفة (المطبخ والطعام) على الهيئة التي تركتهما عليها جيستينا: كلٌّ قبالة الآخر، وبينهما عدة الشاي كاملةً، من أواني صينية، وكعك، وبسكويت، وشطائر. الشيء الوحيد الغريب في هذا المشهد هو أن كلًا من السيد هاديب وزوجته انكفأ على الطاولة، وأراح رأسه عليها، وهو ما لا يكون منهما أبدًا، فقد كانا على الدوام مستقيميَن.. صارمين. وكان هناك شيء آخر، كذلك؛ فقد أمسك كل منهما بيد صاحبه، وليس هذا أيضًا من شيمهما، فهما يؤمنان تمام الإيمان بضرورة كتمان المشاعر والتحكم بها ما يليق بهما. تساءلت جيستينا إذا ما كان انكفاء السيد هاديب وزوجته على الطاولة هو ما جعل جيني تعرف بموتهما، أم لأنهما قد شبكا بين أيديهما على هذا النحو الظاهر. وارتفعت حصيلة الموتى إلى سبعة عشر.

- السم .. سم الفئران.. في الشاي.

كان هذا ما قالته جيستينا؛ تفسيرًا للمشهد، وهي تذهب للجلوس إلى جوار جيني. همست جيستينا: - أجبروني على ذلك، جعلوني أضعه لهما في الشاي، أمام أعينهما، وأجبروهما على شربه، ثم رحلوا كأن شيئًا لم يكن، تركوهما ليموتا، وتركوني لأشهد موتهما.

رغم أن جيستينا لم تكن تبكي، إذ كانت صدمتها أكبر من أن تسمح لها بذلك، فقد طوقتها جيني بذراعها. كان من المفترض بالكبير أن يواسي الصغير. شعرت جيستينا أن جيني تكبر قبل الأوان، وشعرت بمرارة كبيرة لاضطرار

جيني إلى هذا. ما الذي منع هؤلاء السوجا، ببيريهاتهم الحمراء، من أن يتركوهم لحال سبيلهم؟!

قالت جيني:

- كنت في حقل عباد الشمس، ورأيت السوجا قادمين. سمعت ضجيجًا، وصراخًا. شممت رائحة لحم يحترق. أوقف السوجا، وهم في طريقهم للمغادرة، شاحنتهم العسكرية بجوار الحقل. ترجل أحدهم وأشعل سيجارة. ثم أشعل عود ثقاب آخر. أعتقدُ أنه أراد أن يضرم النار في الحقل، ولكن أحد السوجا الآخرين -قائد السيارة- سأله ما الذي فعلته له الأزهار حتى يحرقها، وأمره أن يطفئ عود الثقاب. فعل الرجل كما أُمر، ثم عاد إلى السيارة. جريت إلى هنا.. إلى منزل آل هاديب، ووجدت هذا.

وهنا، طوّقت الكبيرةُ الصغيرةَ بذراعها.

- لقد أداروا أسطوانةً لدون ويليامز.

قالت جيستينا هذه الجملة بصوت مرتعش، كأن هذا أشد ما في القصة رعبًا، وتابعت: - وضعوا أسطوانة دون ويليامز على الجراموفون ثم فعلوا ما فعلوا.

نظرت جيستينا إلى جيني وعيناها تبحثان، وقالت: - كيف يمكن لمن يستمع إلى دون ويليامز أن يفعل شيئًا كهذا؟!

فقالت جيني، بنبرة بدت واثقة:

- ربما لا يعلمون أننا نحب دون ويليامز أيضًا، لو علموا، لما فعلوا هذا، لما فعلوا أي شيء منه.

بدا الكلام معقولًا إلى حد كبير.

نظرت جيستينا إلى جيني، بشفقة، وقالت:

- أوه! بل علموا، كانوا يعلمون أننا نحب دون ويليامز، علموا، ولكنهم فعلوه.

لا بد أن جيستينا وجيني نامتا في لحظة ما، فقد أيقظهما دويٌّ عال.. شخص يقرع الباب. قبل أن تتمكنا من فهم ما يحدث، فُتح الباب على مصراعيه. انكمشت جيستينا وجيني في الزاوية بشكل أكبر. أضاء أحدهم مصباحًا يدويًا في الغرفة. اقتحم عدد من سكان المجمع المطبخ، ولكنهم توقفوا فور رؤيتهم للسيد هاديب وزوجته منكفئين على طاولة المطبخ في سلام –انكفاءً أبديًا. استدار حامل المصباح ليجد جيستينا وجيني محشورتين في الزاوية. سألهما: - ماذا جرى هنا؟

كادت جيستينا تجيبه بصدق، ولكنّ جيني بادرت: - السوجا.. قتلوا السيد هاديب وزوجته بسم الفئران.

ساد الصمت للحظات قصيرة، ثم علت همهمة من التذمر. وسأل أحدهم بصوت غاضب: - هل هذه بنت جولايد؟

فأجابه حامل المصباح:

- نعم.
- عليها أن تخرج إلى هنا.
علت همهمة التذمر، كما لو أن جدالًا يوشك أن يقع.
كادت جيني تنهض، ولكن جيستينا أمسكت بها، وسألت الرجل: - ماذا تريد منها؟
- ومن هذا الذي يسأل؟
- جيستينا إنزومالو.
- صديقة إليزابيث! عليكِ أنتِ أيضًا أن تخرجي.
علا التذمر، وصاح صاحب الصوت الغاضب:
- لولا جوميدي لما حدث أي شيء من هذا، كانوا يبحثون عنه هو، وفعلوا ما فعلوا بسببه هو.
فقال آخر:
- لكن الفتاة لم تفعل شيئًا، لا هي، ولا جيستينا.
- لعلّهما تعرفان أين جولايد وإليزابيث، فتخبرانا.
فسأل حامل المصباح:
- أين أبواكِ؟
وردت جيني:
- طارا.
صاح الصوت الغاضب:
- ألم أقل لكما؟ لقد فرا. علما أن السوجا قادمون لأجله، ففرا. فرا وتركانا لـ... على الفتاة أن تخرج.
- هل تظن حقًا أنهما سيهربان ويتركان ابنتهما وهما يعلمان أن السوجا قادمون؟!
- ليس كل الآباء سواءً؛ فبعضهم لا يبالون بترك أبنائهم خلفهم.
- ولكن ليس صحيحًا أن السوجا أتوا إلى هنا من أجل جوميدي. فما حدث هنا اليوم ليس شيئًا فريدًا، بل يحدث مثله في أرجاء المنطقة من سنوات. وكلنا يعرف هذا.
هكذا قال آخر، محاولًا تحكيم العقل.
- ألم تسمعهم يسألون عنه تحديدًا؟ بالاسم؟ ألم تسمعهم يصيحون «أين جولايد جوميدي»؟ تكون كاذبًا إن قلت إنك لم تسمعهم! كم منا سُئِل أين يخفيه؟ عن نفسي سُئِلت. لو كان هنا حين جاء السوجا، لما حدث شيء من هذا، لأخذوه وانتهى الأمر. لو كان هنا، لظل سيكومبوزو، ابني، حيًّا، ولكان الآن يستمع إلى قصة حول النار، لا في البئر. الذنب.. كل الذنب، ذنب جولايد.

- أعتقد أنهم كانوا سيفعلون ما فعلوا على أي حال. إنما احتاجوا إلى ما يبررون به فعلتهم، فكان جولايد هو المبرر.
- لكنهم يتحدثون عن الوحدة منذ شهور، يتحدثون عن السلام.
- ربما كانوا يقولون هذا ليخدرونا، ليعطونا إحساسًا زائفًا بالأمان، حتى يأخذونا على غرة.
فرد الصوت الغاضب:
- لا تعنيني الوحدة، لا يعنيني السلام، كل ما يعنيني هو أنهم سألوا عن جولايد جوميدي بالاسم.
متابعًا:
- لقد بدأ الأمر كله بما جرى للفايكرز فيسكاونت منذ كل تلك السنوات، لا يمكن أن تسقط طائرة، ثم تهرب بفعلتك، لن يسمح الرجل الأبيض لك بهذا.
- لم يأت رجل واحد أبيض إلى هنا اليوم.
- جولايد رجل مجنون، وهذا ما أقوله منذ سنين.
- ولكن لِمَ يتكبد السوجا كل هذا العناء ليقتلوا رجلًا مجنونًا؟!
- وأتباعه.
- أبصر ما تقول! لم يكن سيكومبوزو تابعًا لجولايد جوميدي.
- لكني رأيت ابنك بعينيّ يلمس تلك الأجنحة الفضية العملاقة وينظر إليها بخشوع وتقدير، وإنك لأنت الكاذب إن قلت إنه لم يكن واحدًا من أتباعه.
- كل هؤلاء الذين دفناهم كانوا أتباعًا، ماتوا كلهم إلا الفتاة وجيستينا.
ساد التذمر، واحتدم الجدال، وقال الصوت الغاضب: - أنتِ.. أنتِ. ما اسم الفتاة مرة أخرى؟ اسم غريب.. اسم صعب.. اسم إنجليزي.. أنتِ.. أنتِ.
فسأل حامل المصباح جيني:
- ما اسمك؟
- إيموجين.
- إيمو.. ماذا؟
- إيموجين.
سأل أحد الرجال بالخارج:
- أي اسم هذا؟!
وعقّب آخر:
- لطالما رأيا أنهما أفضل منا، كلاهما؛ إليزابيث بباروكتها الشقراء، وغنائها الذي لا ينقطع، وجولايد هذا الذي لا يكف عن العبث بوحشه الشائه مؤمنًا أنه بإمكانه الطيران، وانظروا بأي اسم يسميان ابنتهما! باسم يليق بملكة إنجلترا.
- يمكنك أن تدعوني جيني إن شئت.

ساد صمت طويل، ثم صاح الصوت الغاضب:
- جيستينا.. خذي هذه الفتاة.. إيمو.. إيمو.. هذه الـ (جيني).. واذهبا من هنا ولا تعودا أبدًا، هل تفهمينني؟
- أجل.
- وماذا عن أبي وأمي؟ عندما يعودان...
أسكتتها جيستينا بأن وضعت يدها على فمها، ورد الصوت الغاضب ببرود غير معهود: - لا داعي لأن تقلقي بشأنهما.
لا شك أن جيني ودت لو ترد، لكن جيستينا لم تدعها تتكلم.
غادر حامل المصباح ومعه تلك الحفنة من الناس الذين دخلوا المطبخ، وتفرق الجمع الذي كان بالخارج أيضًا. تركوا جيستينا وجيني في ظلام صامت ليس معهما إلا آل هاديب الراقدين في سلام.
ما إن لاحت بشائر الصباح، حتى أمسكت جيستينا بيد جيني، وقامت، فلم يكن أمام جيني إلا أن تقوم معها. نظرت جيني إلى آل هاديب، وأطالت النظر، وكلها أملٌ أن يقوما هما أيضًا.
- لا تنظري وراءك! إيّاكِ أن تلتفتي وراءك في يوم من الأيام!
واستبقتها، بنظرة من عزم لا يلين، وجرّت جيني جرًّا وهما تخرجان من منزل آل هاديب!
- ووالداي؟!
- سيخبرهما الناس إلى أين ذهبنا.
- وأين هذا؟
- فوق التلال، في مكانٍ بعيد.
- وهل سيتمكن والداي من العثور عليّ هناك؟
لم تنظر جيستينا إليها، ومضتْ عازمة، وقالت: - نعم، نعم.
- أهو المكان الذي به ماركوس؟ مكان فوق التلال؟
- أجل.
- أليس مكانًا يسكنه الشر؟
- الشرّ! الشر يعرف كيف يصل إليكِ حيثما كنتِ، ألم يصل إلينا اليوم؟
ثم نظرت أخيرًا إلى جيني، وتابعت:
- الشر إذن بكل مكان، وهو أيضًا في كل إنسان، لا أقول يُولد الشرير شريرًا، ولكن.. إنّ للجميع هذا الخيار، لِمن يُرِدْ!
قالت هذا، وهي تنظر إلى ركام هشٍّ، لرجل.. بأسنان معوجة! لم يزل حيثُ تركه الجميع.
أدارت جيني عينيها نحو الرجل، وقالت:

- فهمت!
الحق أن جيستينا لم تكن مدركة تمامًا لآلية عمل الشر، فلطالما رأت الشر شيئًا لا تراه العيون، حتى جاء رجالٌ بغطاء عسكري وبيريهات حمراء، يستمعون إلى دون ويليامز، ويشفقون على حقل من الأزهار، ثم لا يتورعون عن إجبار زوجين عجوزين على تجرُّع ما يَسُمُّ به الناسُ الفئران.
- لو قلتِ لي صباح أمسٍ المشؤوم إنه لن ينقضي اليوم إلا وقد قتلتُ السيد هاديب، وزوجته، لضحكتُ ساخرةً مما تقولين؛ فمن هذا الذي يقطع اليد التي تطعمه؟ ولكن.. هأنذا.. ها نحن أولاء! آهه!
ومضت، أمام جيني، نحو الرجل المحروق، وهي تقول: - لم يمض وقت بعيد منذ كنا نحسب أن الرجال البيض وحدهم من يقدر على حمل كل هذا الكره والغضب، كل هذا الشر، والآن عرفنا الحقيقة.. الشرّ لا ينتقي، يأتي للجميع، بالقدر ذاته.
رفعت جيستينا وجيني الرجل المحروق برفق، وحملتاه بحرص شديد إلى البئر، وتركتاه يهوي إلى قعرها. لو لاحظت أي منهما أن قلب الرجل المحروق قد تكلّسَ حتى صار شيئًا نفيسًا، في منتهى الجمال، لما قامت أي منهما بـ.. ولكن.. دعنا من هذا، فما أكثر ما رأتا مما لا يبين عنه اللسان!
لم تسمح جيستينا بالتوقف إلا عند موضع واحد –بيت جوميدي، ودخلتا. لم يبق بالمنزل شيء. حتى وسائد الأريكة والمفروشات.. مزقوها بالحراب. ازدحمت الأرض بالأواني، وغطتها شظايا الزجاج، فقد هشموا النافذة، من أجل لا شيء. فُطر قلب جيستينا وهي ترنو إلى مجموعة جولايد من أسطوانات (لافمور ماجافانا) وقد صارت ألفَ قطعة، لا يجدي معها ترميم. ما عمل جولايد في أجنحته الفضية إلا وهو يصغي إلى (لافمور ماجافانا). كأنّ السوجا عرفوا هذا فصبوا جام غضبهم على أسطوانات الفينيل! دمارٌ لا هدف له إلا الدمار. سحبت جيني سلمًا ذا درج، وصعدت عليه إلى علية بالسقف. رأتها جيستينا، وكان من المفترض أن تندهش. لم تندهش جيستينا. لم يعد هناك ما قد تندهش له. عادت جيني بعد قليل، وبإحدى يديها حقيبة من الواضح أنها أعدتها لهذه اللحظة من حياتها خصيصًا، وفي الأخرى بينيلوب وسبيكس.
أمسكت جيستينا بيد جيني مرة أخرى، وقالت بنبرة واثقة: - علينا ألا ندع ما جرى يغير من أنفسنا. لو غيرنا، فهم المنتصرون.
مرّتا بجانب حقل عباد الشمس، فمسحت جيني بيدها على ما طالته يداها من سوق الزهور.
- ليست هذه بنهاية لحريتي في الاختيار، ومن الآن فصاعدًا أنا من يختار ما يخصني من نهايات.
قالتها بصوت فيه من العزم والإقناع ما جعل جيستينا تؤمن بصدقها.

ويدًا في يد، راحتا ترقبان بزوغ النهار، وهما تنتظران حافلة ماكينزي لتقلهما خارج حدود مزرعة بوفورد.

الجزء الثالث

الحاضر

فالينتاين

ينظر فالينتاين تاناكا إلى (الرجل ذاته)، ولا يمكنه أن يكف عن التفكير في أنّه أكبر من أن يوضع في مكان كهذا؛ فهو أكبر كثيرًا من هذا المكتب متوسط الحجم، وأكثر عصريةً من هذه المفروشات العتيقة، كما أنه لامع جدًّا أمام هذه الأسطح المترَبة. في يوم من الأيام كان حجم (الرجل ذاته) يمثّل حضورًا يُعتد به، ولكن هذا اليوم كان في سنوات بعيدة، حينما كانت الدولة حديثة عهد باستقلال، و(الرجل ذاته) قد تولى لتوه رئاسة منظمة الشؤون الداخلية (الوطنية). حينها كان نفوذه يحمل ثقله، فيتحرك خفيفًا، رشيقًا، نشطًا وهو يثِب من سيارة، وهو يصعد سلمًا أو يهبط على أدراجه، لا يتعب أبدًا، مثالًا حقيقيًّا لسلفه، إيميل كويتزي. ولكن، ها هو الآن، يجلس هنا، لاهثًا، يتصبب عرقًا، قد أعجزه حتى النَفَسُ؛ فقد تكفل الزمن بالأمر ونال من بنيانه حتى تدلّى ثقله عليه، وانحنى عوده حتى يوشك أن ينطبق على نفسه. ولهذا، فهو حتى في جلوسه في حاجة إلى عصاه لتُقِيمَه.

هناك ذلك البريق المألوف في عيني (الرجل ذاته) – حب الأذى.. الحقد.. فوضى مدمرة. حقًّا ليس بإمكان فالينتاين أن يعرف على وجه اليقين. لمعةٌ دائمًا ما تجعل فالينتاين يتساءل عن حال (الرجل ذاته) وهو تلميذ في المدرسة. لم يستطع يومًا أن يتصور (الرجل ذاته) صبيًّا، وإذا فعل، استحضره نسخةً مصغرة من (الرجل ذاته)، جالسًا إلى مكتب، من طراز قديم عليه محبرة أنيقة، يرفع يدًا بحماس، ويصيح: «أنا، أنا، أنا»، وهو يميل على مكتبه، ليسترعي اهتمام ناظرٍ استعماري، يعرف الجميع أنه بريطاني من طريقته المدروسة في إظهار اللامبالاة. «أنا، أنا، أنا» تصيح بها النسخة المصغرة من (الرجل ذاته)، ليرد الناظر بغير اكتراث: - لا داعي لكل هذه الضوضاء، حقًا لا داعي. حسبُك يد ترفعها برفق لتحظى بانتباهي. ولكني لا أحسب أن بمقدورك أن تتصرف إلا على هذا النحو، فهو شيء يجري في دمائكم، أن تُحدثوا ضجيجًا.. أوانٍ فارغة ليس إلا.

ينظر فالينتاين إلى عيني (الرجل ذاته) في نسخته المصغرة – حب الأذى.. الحقد.. الفوضى المدمرة.

- أحسب أنك تسأل نفسك إلامَ تدين بشرف لقائي.

يقولها وهو يمسح وجهه بمنديلٍ أبيضَ نظيفٍ، مقاطعًا مخيلة فالينتاين، الذي ردّ: - أجل، أجل.

ينظر (الرجل ذاته) إلى فالينتاين، نظرة طويلة، حادة. يعرف فالينتاين أنه يحسُن به ألا يشيح بناظريه. يمد (الرجل ذاته) يده في جيبه، دون أن تفارق عيناه عيني فالينتاين، ويُخرج شيئًا، يضعه بحرص شديد على الطاولة.

- تدين به إلى هذا.

ينظر فالينتاين إلى ما وضع على الطاولة، فيرى أجمل وأثمن ما رأت عيناه. يستحثه الجمال أن يلمسه، ولا يكاد يمد يديه حتى ينقض عليه (الرجل ذاته) ويخفيه في جيبه.

- أحب أن أنظر إليّ وإليك كصديقين.

لا يكف فالينتاين عن التفكير في أن (الرجل ذاته) كثيرًا ما يبدأ حديثه على هذا النحو، فلا ينتهي الأمر على نحو جيد للطرف الآخر.

- أم أنا مخطئ في ظني هذا؟ ألسنا صديقين؟

- صديقان.

- حسنًا، هذا ما حسبته، ولهذا يمكنني أن أثق بك.

ينظر (الرجل ذاته) إلى فالينتاين، نظرة طويلة، حادة، ثم: - بإمكاني الوثوق بك، أليس كذلك؟

- بلى، بلى، يمكنك أن تثق بي.

يقولها وهو لا يشعر بأي فخر في موقفه هذا، ويرى نفسه لا يدري ما يصنع إلا أنه يحاول تملق الرجل وإرضاءه.

- حسنًا، عرفت أن بإمكاني أن أثق بك.

يقولها وهو يُخرج الشيء الثمين الجميل من جيبه مرة أخرى، ويضعه بين سبابته وإبهامه، فيلمع وهو يديره بين إصبعيه. لم يعد يثق بفالينتاين ثقة تكفي ليضعه على الطاولة بينهما.

- ما إن وقعت عيناي عليه، حتى قلت لنفسي: فالينتاين تاناكا رجل لهذه المهمة. فهو شخص يُوثق به.. صديق.

يخلب الشيء الثمين الجميل لب فالينتاين، فيثبت عينيه عليه، ولا يرفعهما حتى إلى (الرجل ذاته).

- لن تخمِّن أبدًا أين وجدتُه.

يقول هذا وعليه أمارات الرضى التام عن نفسه، ويتابع: - في مزرعة بوفورد.

فيقول فالينتاين:

- مزرعة بوفورد؟

يقول هذه الكلمات، ويشعر كأن تعويذة قد أُبْطِلَت.

- أجل، المزرعة التي استولى عليها (المحاربون القدامى)، بالطبع.

- بالطبع.

من بضع سنوات، لم يكن هناك حديث للصحف إلا مزرعة بوفورد التي استولى عليها (المحاربون القدامى). ولم تتدخل (المنظمة) في الأمر بأي حال.. حتى الآن.

يشيح (الرجل ذاته) بعينيه عن فالينتاين، ويتجه بهما إلى كومة من ورق علاها الغبار على عتبة نافذة خلف فالينتاين، ويمضي في حديثه، كأنما يخاطب كومة الورق: - رغم أني.. أننا.. نقدِّر ما قدموه لهذه الدولة، وتضحيتهم بأنفسهم أثناء الحرب، فإنهم الآن يعتدون على الأراضي بشكل غير قانوني، ولا شك أنه لا بد من اتخاذ إجراء حيال هذا الأمر.

- لا شك.

يعود (الرجل ذاته) لينظر إلى فالينتاين.

حبٌّ للأذى.. حقد.. رغبةٌ في التدمير.

- كنت أعرف أنك ستفهم، أنك ستكون رجلَ هذه المهمة.

يميل (الرجل ذاته) على عصاه ويتكئ عليها بثقله، يريد النهوض. يَصِرّ الكرسيّ تحته على أرضية الغرفة، ليعيد فالينتاين إلى الفصل الذي كانت به النسخة المصغرة من (الرجل ذاته) تصيح: «أنا، أنا، أنا»، في محاولة لاسترعاء انتباه الناظر البريطاني، الذي لا يبالي أبدًا.

- لم يزل مع بياتريس سندات الملكية، فالمزرعة –قانونًا- مزرعتها.

يقول هذا، وهو يعيد إلى جيبه ذلك الشيء الثمين الجميل.

- فهمت.

- علمتُ أنك ستفهم.

كوكي

تضع كوكي كارمايكل يدها على مقبض الباب وتأخذ نفسًا عميقًا. تفعل ذلك مرةً كل أسبوع، والأمر في كل مرة أصعب. تنظر إلى يدها وما علاها من بقع بسبب أوجاع الكبد، وتنظر إلى تجاعيدها، فيصيبها العبوس. اللعنة! متى أصبحتْ عجوزًا إلى هذا الحد! كيف سمحت لهذا بأن يحدث لها! تدقق في انعكاسها على مرآة الرؤية الخلفية، وجه ذابل أحرقته الشمس، ومسحة من أحمر شفاه بحمرة الفراولة.

- أوف!

صوت يأتي من أقصى حلقها اشمئزازًا. ربما تبدو بحال جيدة لمن كانت في الحادي والثمانين من العمر، لكن صراحة ليس لديها أدنى فكرة عمّا يبدو جيدًا لمن بلغ هذا العمر. لم يخطر ببالها يومًا أنها ستعيش كل هذا العمر، ولو خطر لها، لربما اعتقدت أنها ستصير –على الأغلب– حمقاء بلهاء، لكن لا.. فللأسف عقلها كله معها، وذهنها حاد كما كان منذ خمسين سنة، حاد ليكفيها أن تدرك أنها صارت كشجرة برقوق جافة.

«كفى! كفى!». تقولها لنفسها بصوتٍ عالٍ، وهي تصفِّق بيديها لتنتشل نفسها مما غرقت فيه. ترفع عن مقعدها سترتَها (الكارديجان) وأكياس البسكويت التي أخفتها فيها، وتضع الحزمة بإحكام تحت ذراعها، ثم تدفع الباب بشيء من الجهد لتفتحه. اللعنة! متى أصبح البابُ ثقيلًا إلى هذا الحد! تخرج من السيارة، بأسرع ما تسمح به سنّها. تقف تحت الشمس المشرقة، وتأخذ نفسًا عميقًا، ودون أن تدع نفسها تفكر ولو للحظة في الأمر، تُيَمِمُ شطر المبنى. دار الأميرة مارجريت لرعاية المسنين. ترى أنه من اللطف أن تُسمى (دار رعاية)، بدلًا مما هي عليه حقيقةً –مكان يُوضع فيه كبار السن، مهجورين، منبوذين، ومنسيين.

ما إن تدخل كوكي وترى الديكور وما علاه من ألوان الباستيل، وتسمع (فيرا لين) وهي تغني «ذا وايت كليفس أف دوفر» إلا وتود أن تعود أدراجها. لكنها تستجمع قواها، وترسم ابتسامة على وجهها وتمضي. يستقبلها سرب من الحسناوات، يحيينها من خلف مكتب الاستقبال: - طابت ظهيرتك، سيدة كارمايكل.

ترد كوكي التحية بصوت خشن، تشي نبرتُه بأنها اعتادت تدخين علبة من سجائر إفريست كل يوم، ليردن عليها، بصوت واحد: - إنها تنتظرك.

تشكرهن، وعلى وجهها ابتسامة بحمرة الفراولة كادت تبهت. تشك بقوة أن هناك أحمر شفاه على ثنيتيها، ولكنها لا تكف عن الابتسام. عليها أن ترد على كل تحية تتلقاها وهي تسير في الرواق بتلك الابتسامة المشدودة.

في وقت من الأوقات كان كل من يعمل في دار الأمير مارجريت من البيض. الآن كلهم من السود. في وقت من الأوقات، لم تكن كوكي لتبالي أبيض أم سود، الآن صارت تبالي. جعلتها السنوات العشرة الأخيرة تتكلم «عنهم» أكثر وأكثر. لا تحب كوكي أن يُساء فهمها. ليست عنصرية. ولا يخطر ببالها هذا الأمر، ولو للحظة، فهي ليبرالية، ليبرالية منذ أن تزوجت من تود وايتهيد كارمايكل سنةَ 1981. لذا، فلا، ليست عنصرية. ليست إلا ليبراليةً محبطة.

- طبتِ ظهيرةً، سيدة كارمايكل.

- طبتِ ظهيرةً.

دائمًا ما يبدون في غاية اللطف والود، ولكن الحقيقة أنهم ذئاب في ثياب الحملان، ولو أُتيحت لهم أدنى فرصة فسيدمرون البلاد ويدعونها لقمة سائغةً للكلاب.

- ها نحن أولاء!

تقولها بصوت خفيض وهي تأخذ نفسًا عميقًا قبل أن تفتح الباب.

تبدو الغرفة دافئة، ورائعة في ضوء النهار الذي يملأ الغرفة عبر الستائر القرنفلية. لهذا السبب تحب كوكي أن تأتي إلى هنا في الظهيرة، من أجل هذا الضوء القرنفلي. أتت ذات مرة في المساء، فكانت الغرفة غارقة في الكآبة.

والغرفة مؤثثة على نحو جيد. يعود كل ما بها من أثاث إلى بياتريس. وليس لدى كوكي شكٌّ في أن هذا هو ما يروق من يسكن في دار الأمير مارجريت؛ أنها تسمح لهم بأن يستحضروا ديارهم إلى المكان الذي آلوا إليه. لا يمنع هذا أثاثهم من أن يبدوَ كقطع متحفية كلما مر الوقت، ولا أجسادهم من أن تبدو كبقايا من عهد ماضٍ، إلا أنه يظل ملمحًا له اعتباره.

تسمع صوتًا آتيًا من بين ثنايا الستارة القرنفلية. إنها بياتريس بيت بوفورد. تبتسم كوكي لصديقتها ابتسامة رائقة، وتمد ذراعيها نحوها لتضمها إليها في عناق كبير شافٍ.

- نعم، بي! (بياتريس!) إنها أنا.

تتعانقان. تتحاشى كوكي عيني بياتريس وهما تجلسان على الأريكة. لا تريد أن ترى تلك النظرة من الشرود التي ستلوح بعيني بياتريس عاجلًا أو آجلًا. مضت ستة أشهر ولم تزل كوكي غير قادرة على تقَبُّل أن بياتريس تعاني من ألزهايمر. اليوم يوم جيد. اليوم بدأ وقد تعرفت بياتريس عليها. لكن كوكي لا يغيب عنها أن الزيارة لن تمضي كلها على هذا النحو.

تنظر بياتريس إلى يديها، وتقول: - أظفاري في حالة يُرثى لها. كنت في انتظار جيني، لكنها لم تأتِ. لا بد أنني أبدو فظيعة!

تربت كوكي على يد بياتريس، وتطمئنها: - بل تبدين جميلة، جميلة حقًّا.

تشعر بالبرد فجأة، وتبسط سترتها وما أخفت بها من رقائق البسكويت.

- انظري ماذا أحضرت لكِ!
وهي تحمل الرقائق كما لو كانت تحمل كنزًا ثمينًا، مردفةً: - رقائق (هايلاندرز وتِنِس).
- يام! ألستِ أفضل صديقة ترجوها فتاة!
- دعيني أشغل الغلاية.
تقول هذا، ثم تشق طريقها نحو الغلاية الكهربية على طاولة في الزاوية، تحيط بها أكياس من الشاي بأسماء غريبة، وأكواب، وصوانٍ، ومعالق، وإناء صغير مملوء بمكعبات السكر. تندر الغلايات الكهربية في دار الأمير مارجريت، ولا يُسمح بها إلا للنزلاء حسني السلوك. تشغل كوكي الغلاية، ويداخلها شعور بالارتياح لأنهم يعدون صديقتها مريضةً صالحة.
تقول بياتريس، وبصوتها شيء من الضحك: - يا لبشاعة أظفاري! هل تتخيلين ما كانت (ماترون ستينكربوكرز) لتقول لو رأتها؟!
(ستينكربوكرز)! كم سنة مرت دون أن تستخدم أيّ منهما هذه الكلمة! وما يجعلها مضحكة حقًّا هو أنهما لم تتوقعاها. تضحك كوكي من قلبها حتى تغرورق عيناها بالدموع. تمسح دموعها، ومن يدري! لعلها تكون زيارة طيبة رغم كل شيء.
تقول بياتريس:
- أعتقد أن علينا أن نذهب لزيارتها.
تسألها كوكي:
- زيارة من يا عزيزتي؟
ثم تستوعب الأمر فجأةً، وتحاول ألا يظهر عليها قلقها، وهي تصب الماء المغلي فوق أكياس الشاي في الأكواب. يعبق المكان برائحة الياسمين. لقد ماتت ستينكربوكرز منذ عقود.
- جيني.
- لقد أخبرتك أن فالينتاين تاناكا، من (المنظمة)، آتٍ ليحدثك بشأن المزرعة. تكلمنا بخصوص هذا الأمر على الهاتف في وقت مبكر اليوم، هل تذكرين؟
- طبعًا أذكر، ولكني لا أحب أن أظل على تلك الحالة من الشعث، أحتاج إلى إصلاح هيئتي، أحتاج إلى جيني.
ناولتها كوكي كوبًا من الشاي برفق، وهي تقول: - عسانا نزور جيني بعد أن نتحدث مع فالينتاين.
منذ اللحظة التي دخلت فيها بياتريس إلى دار الأمير مارجريت، عقدت جيني وكوكي اتفاقًا بينهما، يقضي بأن تزور جيني بياتريس، أو الآنسة (بي) كما تحب أن تناديها، مرتين في الشهر، وتصطحبها للخارج في نزهة بناتية، تأخذها فيها إلى منتجع صحي (اسْبا) أو إلى الكوافير، حيث تحظيان ببعض المانيكير،

والبيديكير، والمساج، وبعض التسريحات المجنونة، والضحكات، وشرائح سميكة كبيرة من كعكة الشيكولاتة. حسب الاتفاق، تأتي كوكي مرةً كل أسبوع لتشرب معها الشاي، وتسليها. كانت كوكي تحب أن تأتي أكثر من مرة، لكن رؤية صديقتها، أعز صديقاتها، هنا، وعلى هذه الحال، كانت تفطر قلبها. يمكن لجيني أن تقضي الوقت مع بياتريس التي لا تذكر قدر ما تنسى، فجيني لم تعرف بياتريس عندما.. عندما كانت بياتريس لا تلقي بالًا لأظفارها، ولا لشعرها، ولا لستينكربوكرز.

بدا الأمر لكوكي أكثرَ من محض صدفة أن تكون جيني ابنة جولايد جوميدي، نفس الرجل الذي أسقط طائرة بياتريس أثناء الحرب. عندما قصت كوكي هذا النبأ على بياتريس، لم يكن لديها أدنى فكرة أن هذا سيؤدي إلى صداقة جميلة بين بياتريس بيت بوفورد وإيموجين زولا نيوني. كان بينهما الكثير والكثير من الأمور المشتركة، رغم اختلافهما في العمر والعِرق - حبُّ زهور عباد الشمس، وطفولةٌ في مزرعة بوفورد، وبطلٌ، أيًا كان، أو روحًا شجاعة جريئة.

تطرق الباب إحدى الحسناوات، طرقات مترددة، وتُدخل رجلًا إلى الغرفة، بما يشبه الاعتذار.

- فالينتاين!

تقولها كوكي، وهي تصب له كوبًا من الشاي فور رؤيته، وتسأله مباشرة: - فيم كل هذا الكلام عن بوفورد دون مقدمات؟

يحييهما فالينتاين وهو يأخذ كوب الشاي الذي بنكهة الياسمين، ويجلس على الكرسي المقابل لبياتريس.

- فيم كل هذا الاهتمام ببوفورد؟

- حسنًا، كما تعلمين.. قد استقر (قدامى المحاربين) بالمزرعة.

- استقروا هناك منذ سنوات.

- همم! لكن هذا تصرف غير قانوني.

- نعرف هذا.

- نريد أن نجليهم عن الأرض.

- من أنتم؟

- المنظمة.

- تعني رئيسك؟

- أعني المنظمة.

- فلم الآن؟

- حسنًا، كما يقولون، لا يوجد وقت ملائم لهذا أكثر من الوقت الحاضر، كل ما نحتاج إليه من بياتريس هو سندات الملكية...

تقطع بياتريس حديثه:

- ليست معي.
تسألها كوكي:
- ماذا تعنين بأنها ليست معك؟
- أعني به أنها ليست معي، بعت الأرض.
فيسألاها في نفس واحد:
- لمن؟
- ذا سيرفايفرز.
- ذا سيرفايفرز؟
- ذا سيرفايفرز. اشتروها بثمن جيد، بدولار، لا يزيد ولا ينقص.

جيني

يجعل اكتشاف الشيء الثمين الجميل جيني تعرف خطوتها التالية. تحتاج إلى أن ترسل أطلس العالم المطبوع سنة 1965 إلى ماركوس. تحتاج إلى أن ترسل بطاقة بريدية بها صورة شلالات فيكتوريا إلى كريسِل. تحتاج إلى أن تثق بكفاءة النظام البريدي وقدرته على إرسال تلك الأشياء بأمان إلى أمريكا. تحتاج إلى أن ترسل طائرًا ملونًا إلى ميننشي وموردخاي. تحتاج إلى أن تصطحب بياتريس للنزهة بالخارج. ولكن.. قبل كل شيء، تحتاج إلى أن تقلع عن تناول دوائها دون أن يلحظ (فيدا) الأمر.

الجزء الرابع

علم الغائية

ماركوس

سنة 1988، وفي يوم ناضر ورائق من أيام المدينة، يجد ماركوس نفسه في مصعد مع أمه وأبيه ورجل نحيف طويل يرتدي زيًّا أحمر كستنائيًّا، وقبعةً وجوربًا ملائمين تمامًا، رجل يخلع قبعته كلما حيّا أحدًا، ويدعو الجميع بـ «سيدي أو سيدتي»، حتى ماركوس نفسه، وإن كان في الحادية عشرة من العمر، ولكم سر هذا ماركوس! ارتدى الرجل قفازين أبيضين رائعين، اندهش ماركوس إذ لم يكن عليهما ذرّة غبار واحدة. أثار الرجل لديه انطباعًا جميلًا، حتى إنه للحظة حلم أن يصبح هو ذاته عاملًا على مصعد. همس بطموحه هذا إلى أمه، فلم ترد إلا بتقطيب جبينها.

أمسك أبوه بيد ماركوس عندما أخبره عامل المصعد أن بإمكانه أن يضغط الزر الموصل إلى طابقهم، والذي قالت أمه إنه الدور السادس، في البناية المؤلفة من عشرة طوابق، والتي بدت كبيرة إلى حد كبير. شعر ماركوس بأهمية الأمر وهو يضغط (6)، فيضيء الزر. يرضى عما فعل، كما لو كانت شيئًا من السحر، ويبتسم لعامل المصعد، الذي يكتم ضحكه، ويمد بيده نحو أذن ماركوس، ليخرج قطعةً من الحلوى، لا يأخذها منه ماركوس إلا بعد أن يومئ له والده آذِنًا.

سبق أن أخبره أبواه ألا يأخذ الحلوى من الغرباء، كما قالا له ألا يتحدث مع الغرباء، وألا يركب سيارة مع غريب.

كل هذه قواعد جديدة. ففي مزرعة بوفورد علموه أن يصادق الغريب.

في الطابق السادس، ضغط أبوه جرس أحد الأبواب، ليفتحه بعد قليل رجلٌ يأكل حبّة من (فاكهة) المارولا بحرص شديد، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تُؤكل بها حبة من المارولا.

قالت أمه لرجل المارولا:

- أعتقد أنك كنت بانتظارنا.

- إذن فأنتم آل ماسوكو، نعم، كنت بانتظاركم. تفضلوا بالدخول. موردخاي جاتيرو.

قال الرجل هذا، وهو يبصق نواة المارولا الرطبة في راحة يسراه، ويمد يمينه ليصافحهم بها.

سمع ماركوس أمه وهي تتقزز قبل أن تصافح الرجل.

قال الرجل بابتسامة كبيرة واضحة:

- سامحوني فقد جئتم وأنا منغمس في هذه المتعة الآثمة!

لم يفهم ماركوس معنى تلك الكلمات، وإن أعجبته الطريقة التي اندفقت بها على لسان الرجل، كما لو كان يبدأ أغنيةً. وهو يحب بدايات الأغاني. أحب ماركوس الرجل.

دلفوا إلى حجرة صغيرة وعرض الرجل أن يأخذ معطف أبيه قبل أن يدخلوا إلى غرفة المعيشة ذات المساحة المتواضعة.

تكون الأثاث من ست قطع، وثلاثة أرفف مكدسة بالكتب، وأصيصين بهما لبلابتان توشكان أن تلتقيا في منتصف طريقهما نحو سقف الغرفة. بدا كل شيء صغيرًا ومريحًا.

كانت هناك كتب على طاولة القهوة، يغطيها القماش، كتب قديمة تلفت ظهورها وتمزقت أوراقها، بنحو أو بآخر. كانت هناك أيضًا أوراق مصفرَّة، بالية، توشك أن تصير عدمًا ليس بينها وبينه إلا نفخة. عرف ماركوس أن عليه ألا يمسها مهما أغرته بهذا.

اتخذ ماركوس لنفسه مجلسًا دافئًا وسط والديه، على كرسي لشخصين. وجلس الرجل الذي بدا صوته كأغنية على كرسي ذي ذراعين، قبالة أبويه، وشرع في تلك المحادثات التي يحب الكبار خوضها – عن حالة الطقس، والمرور، والأقارب، وكل تلك المحادثات التي ما كان لها أبدًا أن تسترعي انتباه ماركوس.

لحسن حظه، أتت بعض الأصوات من غرفة أخرى، أصوات نساء. استرعت الأصوات انتباهه، وجعلته يشعر أنه على أعتاب مفاجأة ما. شعر بالإثارة، فلا يعرف المرء أبدًا ما قد تحمل له المفاجأة.

وعلى الفور، نهض ومضى إلى باب تلك الغرفة الأخرى ليفتحه.

وهناك وجدها تجلس أمام المرآة، وامرأة على عكازين تزين شعرها بالشرائط والزهور. جيني! في حلتها الزاهية، على الدوام.

هرع إليها.

- ماركوس!

يونيس

هناك نوع من المعرفة تنبع من الذات. عندما نزلت يونيس ماسوكو على ركبتيها، عرفت في صميم روحها أن الفتاة لن تكون فتاةً صالحة.

نظرت إلى الفتاة كقصاصة من شيء تعلق بيد حفيدها ذات يوم بعناد شديد. ذكرت أنها فتاة تنتمي إلى عائلة اشتغلت بالسياسة فحق عليها أن تعاني التبعات.

لم يشتغل آل ماسوكو بالسياسة.

لماذا كان على الفتاة أن تصبح جزءًا من عائلتها؟ كان لها عمة سُحِقت وتحطمت، مينينشي، والتي رغبت بشدة في الاعتناء بها. حتى المرأة التي وُجِدتْ تعيش معها، جيستينا، كانت مستعدة للاعتناء بها. فلم إذن تحتم على الفتاة أن تكون جزءًا من عائلتها؟

كان دينجاني متشبثًا برأيه. يجب أن يتم الترحيب بالفتاة، وأن يُعاش معها، وأن تكون جزءًا من عائلتهم. لطالما كانت يونيس هي من يحدد على أي نحو يجب أن تكون الأشياء، ولكن بتقديم الفتاة إلى الأسرة، انتقل النفوذ، وأصبح دينجاني هو من يفعل. وبدا ابنها، الذي كرس حياته بأسرها لئلا يخيّب أملها، عازمًا الآن كل العزم على تخييب أملها.

ألم يفهم أنهم كانوا في أفضل حال على النحو الذي كانوا عليه: أب، وأم، وابن، وابنة.. وهي –الجدة، والقيّمة على سعادتهم؟ أربعة هو العدد الأمثل للأسرة العصرية، كل المجلات تقول ذلك. وها هم أربعة يتحلقون بجمال حول طاولتها المصقولة بالفورمايكا.

كريسِل

في البداية اعتقدت كريسِل.. شعرت.. بل علمت أنها لن تحب الفتاة. الفتاة التي أصر والدا كريسِل على أنها رأتها يومَ ذهبوا لأخذ ماركوس من مكان يُسمى مزرعة بوفورد، مكان أحبت كريسِل اسمه، إذ بدا لها اسمًا لمكان يعيش فيه أمير، مكان لا تذكر كريسِل أنها زارته قَطّ فتخيلته قلعة كبيرة ذات حصن منيع.

لو أن الفتاة القادمة للعيش معهم، الفتاة التي سبق لها أن قابلتها ولم تعد تذكرها، لو أنها من مزرعة بوفورد التي في مخيلة كريسِل، فمن الجائز جدًّا أن تكون أميرة انقلب الزمان عليها، كما انقلب على كثيرات من الأميرات غيرها. لم ترد كريسِل أن تعيش مع أميرة بائسة. أرادت أن تكون هي الأميرة. رسمت في مخيلتها صورة لفتاة بيضاء، طويلة الشعر، واسعة العينين، لها خدان ورديان، تخيلتها فامتلأت حسدًا إذ أدركت أن بشرتها هي الفاتحة، وشعرها الكثيف التي اعتادت أمها أن تفخر به كل يوم أحد بعد رحلة إلى الكوافير وجلسة مؤلمة مع الملاقط الساخنة، وجمالها الذي تتحدث عنه جدتها كل يوم.. كل هذا لن يكون شيئًا إذا ما قورنت بالفتاة.

شاهدت أباها وجدتها وهما يتجادلان بشأن الفتاة. شاهدت أمها وهي تدخل في نوبة من السعار لشراء كل ما هو وردي للفتاة، واعدة كريسِل أنها ستكون هي والفتاة أفضل صديقتين. شاهدت ماركوس أيضًا وهو يُدلي برأيه، بغرور خبير، فيما تحب الفتاة أو تكره. ولكن كريسِل عرفت أنها لن تحب الفتاة. في يوم وصول الفتاة، عقدت كريسِل ذراعيها، وأشاحت بوجهها، وأغلقت شفتيها عازمةً على أن تجعل الفتاة تشعر بأنها غير محبوبة.. غير مرغوبة.

لكنّ الفتاة التي تقف في غرفة نومها، وعليها أثمال بالية، حاملة حقيبة ودميتين مهترئتين، ليست أميرة بحال من الأحوال –لا بائسة ولا غير بائسة-، فبشرتها الداكنة، وشعرها الأجعد المفتول لا يسمحان بهذا أبدًا. أحبت كريسِل الفتاة على الفور، فقد رأت أنها ستكون دومًا أقل منها شأنًا. فحلّت ذراعيها، ونظرت في وجهها، وانطلق لسانها، لتقول: - سنكون أنا وأنتِ أفضل صديقتين.

وهكذا كانتا. تشاركتا كل شيء، بشروط كريسِل طبعًا، وسرعان ما أصبحتا أختين. لم يعكر صفو صداقتهما شيءٌ إلا ماركوس.

عندما كان ماركوس يعود إلى المنزل أثناء إجازته من مدرسته الداخلية، كان دائمًا هو البطل. فيصعد السلم درجتين درجتين، ويصنع برجليه القصيرتين أشياء مستحيلة، فيطوّح قبعته الأرجوانية في الهواء، ويخلع سترته الأرجوانية عن صدره، حتى وإن لم يتمكن من خلعها بسرعة كافية، ويصارع ليحل رباط

عنقه المخطط بالأرجواني والرمادي وهو يخلع حذاءه في نفس الوقت، بينما تبتسم الخادمة والبستاني له بحرارة وهما يعانيان ليحملا حقيبته المدرسية الضخمة، التي نقش عليها اسمه بحروف بيضاء كبيرة، ماركوس مالكولم مارتن ماسوكو، وهما يصعدان السلم ويلتقطان ثيابه التي نثرها في كل مكان.
كما اعتاد ماركوس أن يصيح بأعلى صوته: - أنا الشرطي وأنتم اللصوص!
أو:
- أنا راعي البقر وأنتم الهنود الحمر!
أو:
- أنا (نايت رايدر وكيت) وأنتم الأشرار!
أو:
- أنا رجل الستة ملايين دولار وأنتم الأشرار!
أو:
- أنا هي-مان وأنتم.....
وحينها تقترح كريسِل:
- إذن فأنا شي-را.
ليعترض ماركوس قائلًا:
- لا، لا يوجد شي-را، فقط الأشرار. أنتنّ، أيتها الفتيات، أنتنّ الشريرات.
لم يعجب كريسِل هذا، ولكنّ جيني لم يبدُ عليها أنها تمانع فيه.
ذات ليلة اشتكت كريسِل لجيني في ظلام غرفتهما الوردية التي يتشاركانها، قائلةً: - إنكِ تدعينه يتنمر علينا يا جيني!
تنمّر.. هذه كلمة كانت كريسِل قد سمعتها فأحبتها، حتى وإن كانت الفتاة التي قالتها قد وجهتها لكريسِل تقصد بها إهانتها.
- إنه لا يتنمر علينا، كل ما في الأمر هو أنه يقضي وقتًا طويلًا جدًّا بعيدًا عن المنزل، وعندما يأتي إلى المنزل يحب أن يشعر بأنه ذو شأن.
- لكنه ليس ذا شأن!
أدارت كريسِل ظهرها لجيني. نعم هي إيماءة لا فائدة منها؛ فجيني لم يكن بمقدورها أن تراها في ظلام الغرفة، ولكنها إيماءة أتاحت لكريسِل أن تشعر بأنها جُرحت، على أي حال.
قالت جيني:
- وإن لم نلعب دور الأشرار، فلن يتناول معنا شاي الرابعة عصرًا.
علا العبوس وجه كريسِل، وأربكتها تلك الجملة. ما الذي تعنيه جيني بهذا؟ فحفلات كريسِل لشاي الرابعة امتياز. وأعجبتها أيضًا كلمة «امتياز» هذه، وهي تعرف ما تعنيه لأن السيدة كيتز، ناظرة مدرسة البنات الابتدائية التي تذهب إليها هي وجيني، كانت –أثناء الطابور– تنظر بعينين حادتين إلى صف الفتيات

السود، تلك الحفنة التي قبلتها المدرسة مؤخرًا، وتقول: - عليكن جميعًا أن تشعرن بالفخر؛ فهذه مدرسة ذات سمعة عظيمة، وإنه لامتيازٌ أن يُسمح لكنّ بأن توجدن بين جدرانها المقدسة.

كانت السيدة كيتز نفسها قد ذهبت إلى تلك المدرسة وهي فتاة. وكثيرات من الفتيات اللائي ذهبن إلى تلك المدرسة قد أصبحن زوجات ناجحات لسياسيين، ورجال أعمال، ومزارعين، حتى إن واحدةً منهنّ أصبحت زوجةً لرئيس وزراء.

- على ماركوس أن يشعر بالفخر لدعوته إلى حفلات شاي الرابعة التي أقيمها، وأنتِ كذلك؛ فهي حفلات ذات سمعة عظيمة، وإنه لامتياز أن يُسمح لكما بالوجود بين جدرانه المقدسة.

هكذا قالت كريسِل، في الظلام.

كان شاي الرابعة حدثًا مهمًا، عادة ما يستمر حتى وقت العشاء، في السادسة والنصف. وكان الحفل يبدأ بتناول الشاي والبسكويت. كان الشاي عبارة عن شراب شجرة عنب الثعلب مخففًا، والبسكويت دائمًا من نوع واحد: (تشويس أسورتيد)، تُقدَّم جميعها في مجموعة أواني كريسِل المزخرفة التي اشترتها لها جدتها في عيد ميلادها الخامس. ربما كانت كريسِل هي المضيفة في كل مرة لأن الأواني ملك لها. وكانت جيني هي الجارة التي غالبًا ما تأتي في تمام الرابعة. أما ماركوس، حينما يكون موجودًا، فهو ضيف آخر يختار بشكل معجز موعد زيارته في الرابعة تمامًا. اعتاد ماركوس أن يبرر غيابه الطويل أثناء أيام الدراسة بأنه «عميل سري» يتم إرساله كثيرًا إلى الاتحاد السوفييتي ليقوم بما أسماه هو «عمل الجاسوس».

كان لكريسِل أربع دمى لدببة وخمس عرائس –تسعة أطفال، تم شراء ثلاثة منها في أمريكا، وستة في جنوب إفريقيا، ولم يُشترَ أيٌ منها من داخل البلاد، وكان هذا مصدر فخر لكريسِل. دائمًا ما يحضر أطفال كريسِل حفلات الشاي. وكان زوجها، أبو أطفالها التسع، مُهنـ.. دسًا معمـ.. اريًا، التقته كريسِل عندما كانت راقصة باليه عالمية ذائعة الصيت، فوقعا في الحب وتزوجا –حب من النظرة الأولى. والآن لا يأتي إلى المنزل أبدًا لأنه يحلق حول العالم ليبني مباني رائعة، ولا يبدو أن كريسِل تمانع في غيابه.

أما جيني، فدائمًا ما حضرت إلى حفلات شاي الرابعة مع طفليها –بينيلوب، التي بليت من طول الصحبة، وسبيكس، الذي لم يعد يرتدي نظارته. شعرت كريسِل بالحزن على جيني التي ليس لها إلا طفلان، لكن جيني كانت راضية تمامًا بنصيبها. لم يكن لجيني زوج، ولم تتزوج في يوم من الأيام، وكانت تأتي إلى حفلة الشاي ولا تفسر كيف يكون لها أطفال دون زوج.

أما ماركوس فكان يحضر دائمًا بمفرده. كان أعزب، ويقول هذا بافتخار، كأنه شيء يميزه. لم يكن لديه أطفال، ولكن كان لديه الكثير والكثير من السيارات

–فهو جاسوس دولي. أحيانًا يأتي إلى الحفل مستقلًا سيارته اللامبورجيني وأحيانًا سيارته الجاجوار، وأحيانًا الرولز رويس.

هكذا سارت الأحوال دائمًا. إلى أن كانت ظهيرة يوم من أيام الآحاد، عندما بلغت جيني الثالثة عشرة من عمرها، وذهبت إلى السينما لحضور عرض مزدوج لفيلمي "Dirty dancing" "Who framed roger rabbir" بصحبة سوزان دا سيلفا، وعادت وقد تغيرت، تمامًا.

سوزان هي الشيء الوحيد الذي أضافته جيني لحياتها منذ انتقالها للعيش مع أسرة ماسوكو. وهي من مكان يسمى «الفلبين»، مكان لم تستطع كريسِل حتى وقتها أن تحدد موقعه في أطلسها، ولذا كان مكانًا شكّت في وجوده من الأساس. سرعان ما أصبحت جيني وسوزان صديقتين حميمتين، وراحتا تقضيان وقت الفسحة المدرسية في الضحك وهما تتصفحان روايات «آرتشي كومكس وسويت فالي هاي» التي كانت سوزان تهرِّبها إلى المدرسة.

لم يُسمح لكريسِل بحضور العرض المزدوج، لأن الفيلمين –كما قالت جيني– لا يصلحان لمن هم دون الثالثة عشرة، وكريسِل بعدُ في العاشرة. كانت كريسِل تعرف الكثير عن القواعد وأنه يجب أن تُحترم بصرامة، ولهذا اقتنعت تمامًا بتفسير جيني. لكن الذي لم تفهمه هو لمَ لم تنطبق نفس القاعدة على سوزان، التي كانت في الثانية عشرة من عمرها وحسب.

- لأن من يرى سوزان قد يحسب أنها في الثالثة عشرة.

هكذا كانت جيني تقول، وهو أمر كان من الصعب على كريسِل تقبله، وكان هو الدليل الذي احتاجت إليه كريسِل لتثبت ما ارتابت فيه من اللحظة التي صادقت سوزان فيها جيني –أن سوزان ذات تأثير سيئ على جيني.

- سأحكي لكِ كل شيء عندما أعود، أعدك بذلك.

كان هذا ما قالته جيني، وهي تغادر غرفتهما وقد ملأها الحماس.

يبدو أن جيني لم يخطر ببالها، كما لا بد أنه خطر لكريسِل، أنّ هذه أولُ مرة في ثلاث سنين قضتاها معًا تذهب إحداهما إلى السينما دون أن ترافقها الأخرى.

أوفت جيني بوعدها، وحكت لكريسِل كل شيء. حكت لها أين جلسا (الصف الأول)، وما أكلا (فولًا سودانيًّا مغطى بالشيكولاتة، ورقائق ميلكو، وفريدوز)، وإلى جوار من جلسا (زوجين كبيرين تفوح منهما رائحة الصابون المطهر المبهجة، عن يمينهما، ومجموعة من الفتيان المراهقين من مدرسة بلامتري الثانوية، عن يسارهما، والذين صفروا طويلًا عندما ظهرت جيسيكا رابيت على الشاشة).

سألتها كريسِل:

- من جيسيكا رابيت؟

رغم أن ما أرادت أن تسأل عنه حقًّا هو لماذا صفَّر الفتية عند ظهورها.
أخرجت جيني بعض الفول السوداني المغطى بالشيكولاتة، ورقاقتي ميلكو، وقطعتين من شيكولاتة فريدوز من حقيبتها الوردية المصنوعة على شكل قلب، ووضعتها على بطنها، بجوار كريسِل، وأخذت نفسًا عميقًا، وراحت طوال الساعتين اللاحقتين تحكي لكريسِل كل شيء عن روجر وجيسيكا رابيت، وجوني كاستيل وبيبي، وهما تتشاركان قطع الشيكولاتة. كانت جيني تحكي وهي تشعر بالإثارة التي يشعر بها من اكتشف لتوه شيئًا مهمًا.
بعد ذلك، قامت جيني، وراحت تدندن وترقص. لم يخطر ببال كريسِل وجيني تدندن وترقص في أرجاء الغرفة سوى كلمة واحدة.. الطنين. فجأة كانت جيني كنحلة، نحلة عالية الصوت، قلقة ومنشغلة إلى الأبد –كانت تطِنّ.
بعد ذلك اليوم، تغير كل شيء. أصبحت جيني تستحم في حمامها المشترك والباب موصد. لم تعد تغير ثيابها أمام كريسِل. وكانت تخرج من الحمام وعليها كامل ثيابها. لم يعد لديها وقت لمعارك الفازلين ولا لتحريك الشفاه أمام مرآة الحمام كأنهما تغنيان. شكت كريسِل أن هذا التغير له علاقة بهاتين الكتلتين من اللحم اللتين ظهرتا على صدر جيني.
كما أن حقيبة تبرج جيني اكتظت فجأة بعطور إمبالس وآنابيس ومام 21، وبكمية كبيرة من ملمعات الشفاه، بكل لون يمكن تصوره، وأساور من كل لون. أصبحت ألوان جيني المفضلة هي الأخضر الساطع والقرنفلي الزاهي، ولم تكن ترى أي قطعة من قماش عليها دوائر بولكا إلا أرادت أن تحصل عليها، ولم ترض بأن ترتدي قماش الدينم. أصبحت جيني تجرب أمام المرآة الثياب، التي صارت تسميها «أردية»، وهي تقف في أوضاع مختلفة، وليت الأمر اكتفى عند هذا، فقد أصبحت تقضي أوقاتًا طويلة بشكل لا يُغتفر –عند كريسِل- وهي تتحدث مع سوزان عبر الهاتف.
أصبحت «كريسِل وجيني»، بكل بساطة، «جيني وسوزان». وكان ما زاد الأمور سوءًا بشكل أكبر هو أن كريسِل كلما سألت جيني تفسيرًا لتغيرها الجديد هذا، قالت لها: - إنكِ صغيرة جدًّا على أن تفهمي.
لم تكن السنوات الثلاثة التي تفصل بينهما مهمة في يوم من الأيام، ولكن يبدو أنه قد أصبح لها الآن شأن كبير.
لم تقف الأمور عند هذا الحد. فقد بدا أن هذا التغير الجديد يتطلب ألا تحضر جيني حفلات شاي الرابعة، لأنها –بنص كلامها– لم تعد تلعب بالدمى. قَبَعَتْ بينيلوب وسبيكس على فراش جيني، وراحتا تبتسمان مسرورتين دون النظر في شيء محدد، وقد قنعتا بأن تكونا مجرد قطعتين من الزينة. تجهم وجه كريسِل لأيام وسمحت لنفسها بأن تشعر بالنبذ الذي أبت بينيلوب وجيني أن تعترفا به. قالت لكريسِل أمها، بابتسامة حزينة، إن جيني قد أصبحت مراهقة، وهي توشك أن تصير امرأة، ولهذا فهي تتخلى عن أشياء الطفولة.

كان من الممكن أن يكون تفسير أمها منطقيًا تمامًا لو أن جيني تخلت عن كل أشياء الطفولة، لكنها لم تفعل ذلك. تخلت عن كل شيء ما عدا «باتن مون». كانت جيني مهووسة بباتن مون، تشاهده كل أربعاء في الساعة الثالثة والخمس دقائق. ولطالما أدهش كريسِل هوسُ جيني بعرض العرائس التليفزيوني، ولم تفهم قَطّ كيف تنجذب إلى عرائسَ رديئةِ الصناعة، مشدودةٍ بحبالٍ تُرى بالعين، وهي تتحرك وتتكلم على نحو متشنج وهي تحاكي الحياة الحقيقية. لم تستطع كريسِل يومًا أن تتخلى عن رأيها، فتسافر عبر (بلانكيت سكاي) مع عائلة (سبون) –السيد سبون، والسيدة سبون، وتينا تي سبون، وصديقة تينا، إجبيرت– إلى (باتن مون). وآثرت شي-را، ودانجونز أند دراجونز، ودانجر ماوس، كانت تحب أن تنقسم شخصياتها الكارتونية إلى أبطال وبطلات من ناحية، وأشرار خالصين من ناحية أخرى، أو «باد جايز» كما يسميهم ماركوس. أما جيني فأحبت (باتن مون) بإخلاص وثبات حتى إن كريسِل شكت أن لهذا علاقةً بأشياء كبيرة ليست على دراية بها. لم تسأل قَطّ عن ماهية هذه الأشياء الكبيرة التي انتابها شعور قوي أن لها علاقة بالماضي، بالفترة التي أمضتها جيني وماركوس في مزرعة بوفورد. وهي لا تسأل الآن لأنها تخشى أن تقول لها جيني إنها صغيرة جدًّا ولن تفهم.

ذات يوم أربعاء، كانت كريسِل وجيني تنتظران أمهما لتقلهما من أمام بوابة المدرسة. اعتادت أن تأتي بين الواحدة والواحدة والنصف. جلست كريسِل على حقيبتها البنية، وكان عليها اسمها، مكتوبًا بشكل خاطئ، ومنقوشًا بعناية، بحبر أبيض، لا يتداخل مع تصميم علامات الطريق المطبوعة على الحقيبة. أما جيني فكانت تقف حينًا وتروح وتجيء حينًا آخر، وهي تدندن.. تطنّ! وأخيرًا، أخرجت من مكان ما في أعماق حقيبتها قطعتين من حلوى (إيفرلاستنج)، ومدت يدها بالقطعتين إلى كريسِل، لتختار هي أولًا بين نكهتي العرقسوس والتوفي. تظاهرت كريسِل بأنها ستأخذ القطعتين، وضحكت الفتاتان. اختارت كريسِل التوفي. وأخذت كل منهما تأكل حلواها، وقضمت قطعة يتسع لها فمها. وبينما راحت جيني تمص الحلوى، وهي تستمتع بنكهة اليانسون في العرقسوس، راحت كريسِل تقضم حلواها قضمًا.

وكما هو الحال دائمًا، أنهت كريسِل قطعتها أولًا، ونظرت إلى أختها الكبرى، ثم إلى ما تبقى في يدها من قطعتها. ابتسمت جيني، وأخذت قضمة من حلواها، ثم أعطت الباقي لكريسِل.

نظرت جيني في ساعة يدها القرنفلية البراقة، وقالت:

- هيا! انهضي، هيا لنذهب.

- إلى أين؟

- إلى مكتب أبيك.

لو أن جيني قالت: «إلى مكتب أبينا» لربما سارت الأمور على نحو مختلف، لكنها لم تفعل، وجرت الأمور على النحو الذي جرت عليه.

عندما جاءت جيني لتعيش مع عائلة ماركوس، طُلِب منها أن تنظر إلى والدي كريسِل كأب وأم لها. ثم طُلِب منها أن تناديهما بـ«أمي، وأبي». ثم قيل لها أن تدعوهما «أمي، وأبي». لم تفعل هذا قَطّ.

قالت كريسِل:

- لا أريد أن أذهب.

وعادت لتجلس على حقيبتها.

فردت جيني، وهي تتجه صوب البوابة المغلقة: - (باتن مون) سيبدأ في غضون نصف ساعة.

كانت هناك غرفة انتظار خارج مكتب أبيهم، على أحد حوائطها تلفاز أبيض وأسود، على شاشته شيء من غبش، يمكن مشاهدته إن اضطُر المرء إلى ذلك.

عقدت كريسِل ذراعيها، وقالت:

- لستُ قادمة.

- كما تشائين.

قالتها، وفتحت البوابة الموصدة بسلسلة مرتخية، وحشرت نفسها ومرت، وهي تقول: - أنا واثقة أن أمك ستأتي حالًا وتقلك إلى المنزل.

دق جرس المدرسة، وسرعان ما كان هناك جلبة من الضحك والعدْوِ والفوضى. شاهدت كريسِل الفتيات يهبطن سلالم الفناء وهن يرتدين سراويل بيضاء قصيرة وقمصانًا ويتجهن إلى الملعب. ماذا لو اضطرت إلى لعب رياضة لا تحبها بالمرة، كالكرة الطائرة مثلًا– ودخل كل ذلك الرمل المزعج في حذائها؟ نهضت على الفور وتبعت جيني وخرجتا من البوابة.

ما إن خرجتا من البوابة، حتى أخذت جيني حقيبة كريسِل منها، وأمسكت بيدها، وراحت تجري بأسرع ما يمكنها. ركضتا بطول شارع (بورو)، وسارتا في خطوط ملتوية فوق الأرصفة، وعبرتا الشارع عند (الجادة التاسعة) بسرعة مذهلة وجدتها كريسِل مثيرة ومبهجة. لحسن الحظ لم تكن الساعة 1:35 وقت ذروة للمرور، فوصلتا إلى العيادة في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة.

ولكن بمجرد أن وصلت جيني وكريسِل إلى مكتب أبيهما، ولمّا تزل جيني ممسكة بيدها، أدركتا أن هناك شيئًا يسير على غير ما يرام، فإحدى الممرضتين اللتين تعينان أباهما –الممرضة اللطيفة التي تبتسم لهما دومًا وتعطيهما المصاصات أو السكاكر– كانت تُرِي المرضى طريق الخروج ويبدو عليها أمارات الإحراج البالغ، وهي تقول لهم، وعلى وجهها ابتسامة مضطربة: -

من فضلكم، اذهبوا للانتظار في القاعة الرئيسة. سآتي وأناديكم حالًا، أعتذر لكم عن التأخير.
نظرت الممرضة إلى كريسِل وجيني، وارتبكت لمرآهما. لم تعرف ماذا تفعل، وتركتهما يتبعانها إلى غرفة الجلوس.
كان صوت أمهما هو أول ما لقيتاه. تتحدث بصوت عالٍ للغاية، حتى إن باب مكتب أبيها لم يحجب صوتها أو يخفف من قوته.
- إنه عدم الاحترام المطلق، والتجاهل الكامل.. هذا ما يجعلني مستاءة إلى هذا الحد.
أصبحت كريسِل وجيني الآن قريبتين بدرجة كافية لسماع صوت أبيهما أيضًا: - مستاءة؟
- نعم مستاءة، ماذا؟ أتحسب أنك وحدك الذكي، لأن لقب الدكتور يسبق اسمك؟ أذكى من ربة المنزل؟ أنسيت، يا دي، أني كنت بسبيلي لأصبح ذات قيمة كبيرة، ومنعتني! مرتين! وهذا الرجل.. شريكك هذا.. (الرجل ذاته).. يأتي إلى منزلي، إلى بيتي، ويقول لأنه يمتلكك إني أنا أيضًا ملكية له.
يسمعان صوت أبيهما، وهو يتحدث بنبرة لينة واسترضائية:
- كان عليكِ أن تعرفي أن المنزل وطريقة الحياة التي ننعم بها كان لهما ثمنهما. كان عليكِ أن تعرفي هذا، يا تي.
ردت أمهما بصوت متقطع:
- كيف تجرؤ على وضعي في موقف كهذا! كيف تجرؤ على التنازل عني على هذا النحو! لم يلمسني هذه المرة، ولكن المرة القادمة...
- لن يكون هناك مرة أخرى، أعدك بهذا.
- بل سيكون هناك مرة أخرى. لقد أراد منا أن نعرف ذلك. أراد أن نعرف أن هناك مرة قادمة، وأنه لن يستطيع أي منا أن يفعل شيئًا حيال هذا الأمر. ببيعك نفسَك بعتَني معك. كان عليك ألا تخذلني، يا دي. ما الذي حدث فخذلتني؟
فجأة أمسكت جيني بيد كريسِل وخرجتا تعدوان ثانية.
- إن أمي تبكي.
- أعرف.
- إلى أين نذهب؟
- سوزان تعيش في الجوار. لعلنا نشاهد (باتن مون) في شقتها.
لم تحب كريسِل سوزان على الإطلاق، وكان هذا مفهومًا.
- لا، لن أذهب.
- أتريدين أن تعودي إلى هناك.
قالت هذا، وهي تشير بإصبع مرتعشة نحو مكتب أبيهما.
- كل ما تريدينه هو أن تشاهدي عرض باتن مون الغبي.

فردت جيني وهي تنظر في ساعة يدها الوردية البراقة، وهي تطنّ: - تقول مجلة (لوك آند ليسن) إن حلقة اليوم هي الحلقة الأخيرة.
- فاذهبي إذن، إنكِ لا تبالين لأمري، لا يعنيكِ أن أمي تبكي، لا يعنيكِ أن أمي وأبي يتشاجران، لا يعنيكِ شيءٌ من أمرنا.
- بل يعنيني.
- كاذبة!
انحنت جيني، ووضعت ذراعها حول كريسِل.
- الآباء يتشاجرون أحيانًا، لا تقلقي، سيصبح كل شيء على ما يرام.
- هل تشاجر أبواكِ؟
كانت هذه هي المرة الأولى التي تذكر فيها كريسِل أبوي جيني.
ردت جيني بصراحة:
- لا، الآباء مختلفون.
ثم عانقت كريسِل، وتابعت:
- إن كنتِ لن تأتي معي، فعديني ألّا تعودي إلى غرفة الانتظار. اذهبي واجلسي في الردهة.
ثم عانقتها مرة أخرى، وقالت:
- سأحضر لكِ شيئًا حلوًا، تحب أم سوزان أن تخبز، وسوف أحضر لكِ بعض الرقائق.
- أريد فطيرة.
ابتسمت جيني، وقالت:
- دائمًا ما تريدين الفطائر، لا تنسي أن تجلسي في الردهة، وتأكدي أن تعرف موظفة الاستقبال أنكِ هناك.
قالت هذا، وانطلقت.
عادت كريسِل إلى الردهة. كانت تعج بالناس. سعل رجل يجلس إلى جوار كريسِل سعلة بدت معدية للغاية وقررت أن أفضل شيء هو أن تتبع جيني رغم كل شيء.
عادت للخارج. وعندما خرجت، كانت جيني تستعد لعبور الشارع المقابل لفندق (ذا صَن). انتظرت خلو الشارع من السيارات وهي تطنّ. ركضت كريسِل بطول الرصيف بأسرع ما يمكنها لتلحق بجيني. خلا الشارع من السيارات، وبدأت جيني تعبر الشارع جريًا. نادتها كريسِل. عبرت جيني الشارع بنجاح. نادت كريسِل اسمها مرة ثانية. استدارت جيني، ورأت كريسِل تقترب. ركضت عائدة عبر الشارع و...
وهنا حدث ما حدث. كان هناك صرير إطارات عندما توقفت سيارة كوكي كارمايكل فجأة. ورأت كريسِل جيني تطير في الهواء، كشيء رائع حقًّا. شهق

المارة شهقة جماعية من الرعب والفزع. وقبل أن تستوعب كريسِل ما يجري، اندفع الراهب وحمل جيني في عربته السكانيا اليدوية. تبعت كريسِل الراهب إلى العيادة، وهي تعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام.

عندما عادت كريسِل إلى مكتب أبيها، كان هناك بعض الناس، وقد أدار أحدهم التلفاز وبدأ عرض (باتن مون).

خرجت أمها من المكتب في تلك اللحظة وعلى وجهها ابتسامة رسمتها للتوّ، وتبعها أبوها بابتسامة على شفتيه أيضًا، كأن شيئًا لم يكن. قال أبواها في نفس اللحظة: - كريس! ماذا تفعلين هنا؟

ثم نظرا خلفها، وسألها أبوها:

- أين جيني؟

ونظرت أمها في ساعتها، وقالت:

- آه، كان من المفترض أن آتي لأقلّكما منذ ساعتين.

ثم تابعت:

- ولكن أين جيني؟

أخبرت كريسِل أبويها بما حدث –أخبرتهما أن جيني طارت لبرهة في الهواء كشيء رائع حقًّا، في طريقها إلى (باتن مون). وتابعت، مخاطبة أمارات العبوس التي جعدت جبهتيهما فجأةً: - إنها بخير على كل حال.

كوكي

بينما شاهدت كوكي كارمايكل الراهب وهو يسير بمحاذاة رصيف الجادة العاشرة دافعًا أمامه عربة اليد السكانيا، جال بخاطرها –وليس للمرة الأولى– أنه أشجع رجل عرفته في حياتها. وجرى ما جرى وهي تشاهده. طارت فتاة في الهواء وعرفت كوكي أن كل اللحظات المهمة في حياتها كانت تفضي إلى تلك اللحظة بعينها، ولذلك، وعلى نحو طبيعي تمامًا، مر شريط حياتها أمامها في لمح البصر.

بدا لها أن حياتها لم تبدأ لحظة مولدها، ولكن في اليوم الذي ولدت فيه ابنها، ولدًا جميلًا ذهبي الشعر.

ربما كانت كوكي تنجذب إلى الشجعان من الناس لأنها لم تجد في نفسها الكثير من القوة. كان إيميل كويتزي رجلًا شجاعًا. لم يخف يومًا من مواجهة الخطر، بل وبدا أنه يبحث بنفسه عن مكامنه. قبل أن تقابله كوكي كان بالفعل قد صارع تمساحًا، وغاص في شلال، ورقد تحت سيارة لتمر من فوقه، كما أنه اصطاد أسدًا بالطريقة التقليدية القديمة، بالرمح، لا بالبنادق والرصاص، فلم يكن ليرضى بهذا. فعل كل هذا –ببساطة– لأنه يستطيع.

كان إيميل في الخامسة والعشرين من عمره في ذلك الوقت. وكان طويلًا، مفتول العضلات، أشقر، وكان متهورًا. كانت كوكي في الخامسة عشرة، على وجهها نمش، وشعرها الأحمر مقصوص بطريقة سيئة للغاية، وجسمها ممتلئ إلى حد ما، ولم تدرِ كيف لأي فتاة أن تقاوم الوقوع في حب إيميل. ووقعت في حبه، رغم أن بياتريس كانت تراه متبجحًا ومهرجًا، رجلًا مفتونًا بنفسه ولا فائدة تُرجى منه لأي أحد. عرفت كوكي أن عليها القيام بكثير من العمل لتجعل إيميل كويتزي يتزوجها. لم يعرفها ولم تعرف عنه شيئًا إلا مما تحكيه عنه الجريدة. وإضافة إلى هذا، فهو من الإفريقيين، ووالدا كوكي –اللذان تجري في عروقهما دماء الرواد– لن يرضيا أن تتزوج كوكي بـ «واحد من هؤلاء».

ورغم أن كوكي لم تكن شجاعة، فإن عزمها لا يلين متى تعلق الأمر بإيميل كويتزي. ولما كان حظ كوكي من الجمال قليلًا ومن الرشاقة منعدمًا، فقد أمهلت نفسها ثلاث سنوات لتصبح جميلة ورشيقة في عيني إيميل. ونجحت. وعقب عيد ميلادها الثامن عشر مباشرة، حضرت عشاءً عرفت أن إيميل سيكون حاضرًا فيه، ولكم أسعدها أن تخطف أنظار الحضور بمجرد دخولها إلى الغرفة! وكان إيميل واحدًا منهم.

رغم أن إيميل كويتزي تعهد أن يظل أعزب مدى الحياة، فإنه وجد نفسه يفكر بجدية في الزواج وهو في الثامنة والعشرين. كان رجلًا طموحًا ذا خطة طموح، وكان قد قدم للتو اقتراحًا بإنشاء وحدة للشؤون الداخلية تابعة للدولة، تقوم

بجمع كل المعلومات الضرورية عن مواطني الدولة. كانت الدولة تتغير على نحو سريع، ولم يعد الإفريقيون يعرفون موضعهم. لم يعد كافيًا أن يكون هناك مجرد لجنة شؤون وطنية لا مركزية، يتناثر مندوبوها في أنحاء البلاد، وأصبح هناك ضرورة لوجود وحدة مخابرات مركزية وأراد إيميل أن يكون على رأسها. كان يعرف أن العرض سيروق صناعَ القرار. رغم ذلك ترددت الدولة. قالوا له إن تكلفة مثل هذا العمل ستكون مرتفعة للغاية، ولكنه عرف السبب الحقيقي للتردد. في الواقع كان هناك سببان: أنه أعزب وأنه واحد من الإفريقيين، وُلد وترعرع في جنوب إفريقيا. يمكن غض النظر عن كونه من الإفريقيين، ولكن لأنه أعزب فلن يمكن أبدًا النظر إليه على أنه جاد ومستقر بما يكفي ليرأس قسمًا حكوميًا كاملًا. إذن فلكي يفلح مسعاه، لا بد أن يتزوج.

دخلت كوكي سيدجويك حياته في اللحظة المناسبة.

كان يعرفها كفتاة ظلت لسنوات بلا شيء يميزها؛ لم يزهر جسدها تلقائيًا مثل بقية الفتيات، فكان عليها أن تبذل جهدًا مضنيًا لإنتاج ما يأتي لمعظم الفتيات بشكل طبيعي. لم يكن لدى كوكي سيدجويك ما تمنحه لإيميل كويتزي أثناء أيام عزوبته، تلك الأيام التي لم يكن للنساء عنده إلا استخدام واحد، أمّا الآن فلديها ما تقدمه له: اسمها –سيدجويك. اسم يدعو للفخر، وكذلك اسم لواحد من الرواد الصالحين. الزواج من واحدة من آل سيدجويك من شأنه أن يدعم طلبه لإنشاء منظمة الشؤون الداخلية. وهكذا تزوج إيميل كويتزي وكوكي سيدجويك.

عندما قبلت كوكي عرض إيميل، لم يكن بمقدورها أن تعرف دوافعه للزواج بها، تلك الدوافع التي راح يخبرها بها شيئًا فشيئًا أثناء شجاراتهما الزوجية، ليبريَ عنها احترامها لنفسها، الهش أصلًا.

بالنسبة لكوكي، كانت الثمرة الوحيدة الطيبة التي نتجت عن الزواج من إيميل هي ولدًا جميلًا ذهبي الشعر.

عرفت كوكي لسنوات أن ابنها الجميل ذا الشعر الذهبي لم يكن مثل الأولاد الآخرين. الأم تعرف هذه الأمور جيدًا. تعرفها بالغريزة، حتى وإن أبت أن تعترف بها. لقد أدركت أن ابنها «مختلف»، ولكنها أحبته على كل حال. أمّا إيميل فلم يفهم، أو بالأحرى لم يستطع أن يفهم كيف يكون ابنه مختلفًا عنه إلى هذه الدرجة. كيف يكون له ابن يكتب الشعر ويتلوه على الناس ويغني بكل فخر في الحفلات الموسيقية. كيف يكون له ابن يرفض ممارسة صيد الحيوانات أو صيد الأسماك لأنه يرى قتل كائن حي لمجرد المتعة عملًا غير إنساني، بل عملًا متوحشًا. كيف يكون له ابن يتخذ روزاموند خليلةً وفي نفس الوقت يكون في علاقة مريبة مع فيدا، ابن دي فيلييه، الملوّنين.

عندما بلغ ابنُهما الثامنةَ عشرة، استُدعِيَ للدفاع عن بلاده ضد الإرهابيين. لم يكن لدى الابن –الذي لا يؤمن بقتل أي كائن حي– رغبة في القتال. لم تكن

حربًا يؤمن بأهميتها. لم ترد كوكي أن ينخرط ابنها في الحرب، لا لأنها تراها حربًا لا طائل من ورائها، ولكن لأنه طفلها الوحيد، وهو جميل وغالٍ. لم يكن لدى إيميل من شكٍ في أن ابنه سيقاتل للدفاع عن بلاده. الحرب هي ما يحتاج إليه ابنُه ليصبحَ رجلًا، ليكون جديرًا بأن يُسمّى «رجلًا». انهار ذلك التوازن الهش داخل أسرة كويتزي. تفوّه الأب بألفاظ عرف منها الابنُ أنه يعاني من نقص ما. ونطق الابن بكلمات جعلت الأبَ يعرف أنه يعاني من نقص، في كل شيء. أمّا الأم فلم يكن لديها من الشجاعة إلا ما يكفي لمشاهدة الأب والابن وكل منهما يفطر، متعمدًا، قلبَ الآخر، يحطمه تحطيمًا، تاركًا الحطام على الأرض، أمامها، وعليها هي أن تلتقطه وتصلحه، إن أمكنها ذلك.

في نهاية المطاف، ذهب الابن إلى الحرب، ولم يعد قَطّ، فقد كان خياره أن يطأ حقل ألغام بقدميه، وأن ينفجر متحولًا إلى شظايا، شظايا لا يستطيع أحد، حتى كوكي نفسها، أن يجمعها مرة أخرى.

في بداية الأمر، لم تعرف كوكي كيف يمكنها أن تكمل حياتها في عالم أصبح فجأة خاليًا من ولدها الجميل ذي الشعر الذهبي. رأت استمرارها في الحياة نوعًا من الخيانة. شعرت أنها ستعيش ما تبقى لها من أيام في فراشها، ملفوفةً في ألم دائم وحزن لا يُحتمل. ولكنها أكملت حياتها. في الواقع، اعتراها النشاط، فحضّرت لجنازة طفلها، وحضرتها، وخرجت من بيت إيميل كويتزي، وانتقلت إلى شقتها الخاصة. كما تقدمت بطلب الطلاق، وحصلت عليه بعد فترة. وخلال كل هذا، لم تقضِ إلا ثلاثة أيام في فراشها، ملفوفة بحزن دائم وألم لا يُحتمل. وبدلًا من أن تتجمد حياتها في مكانها، بدا أنها راحت تدفع نفسها للأمام دفعًا. والآن فقط صار لديها من الشجاعة ما يكفي لأن تأخذ زمام المبادرة. ورغم ذلك لم تكف عن التفكير في أن هذه الشجاعة هي ما كان من شأنه أن ينقذ حياة ابنها، لو أنها واتتها في الوقت المناسب، ولكنها لم تواتها إلا بعد فوات الأوان، وبدا الأمر لها كأنه من سخرية القدر.

هذه أول مرة تعيش فيها كوكي بمفردها، وها هي تعدّ نفسها للترحيب بوحدة ساحقة. الوحدة ستكون الطريقة المثالية لإحياء ذكرى ابنها. لم تكن الوحدة هي ما رحبت به، رغم ذلك، بل صداقة شخص يُدعى تود كارمايكل. فعندما هاجم الإرهابيون منزله، وهو في جينيفا، في سويسرا، يحاول أن ينهي الحرب بشكل سلمي، فقدَ (تود) عائلته كلها –زوجته، وابنه، وبنته، وكلبه، وخادمته، والبستاني. كانت صداقة كوكي مع تود كارمايكل هذه هي خيانتها الثانية، بعد تركها فراش الحداد. جعلها (تود) تضحك، وكانت تلك هي خيانتها الثالثة. بدأت كوكي تهتم بمظهرها في عيني (تود)، فراحت تمارس الجري، والتزمت حميةً صارمة، وحاولت أن تقلع عن عادتها في تدخين علبة سجائر إفريست كل يوم، ولم تفلح، وأخضعت وجهها لما لا يُحصى من الوصفات للتخلص من التجاعيد التي كلما زالت، عادت. حاولت أن تبدو جذابةً في عيني الرجل، وكانت تلك

خيانتها الرابعة. وكانت الخامسة أنها أصبحت تشعر بالراحة في حضور (تود). طلب (تود) يدها للزواج، وقبلت، ربما بأسرع مما كان ينبغي، وشعرت كوكي أن خيانتها السادسة هذه هي أكبر خياناتها. كانت خيانتها الأخيرة تلك، هذه الخيانةُ التي جعلت الألم الدائم، والحزن الذي لا يُحتمل يتلاشى ليفسح الطريق شيئًا فشيئًا لمتع الحياة، كانت كبيرة للغاية حتى إن كوكي تيقّنت أنها لن تسامح نفسها أبدًا، وراحت تعذِّب نفسها بصور ابنها ذي الشعر الذهبي كل ليلة، بمجرد أن تغلق عينيها، وكل صباح، قبل أن تفتحهما.

وذات يوم استيقظت كوكي ولم تستطع أن تتذكر، بسهولة، وجه طفلها الجميل ذي الشعر الذهبي، ولا ما كان يعلوه من قسمات. استرقت النظر إلى صورته فوق رف الموقد لتتذكر كيف كان شكله يوم ذهب للحرب. لكن الصورة على رف الموقد لم يكن لِيُعتمدَ عليها؛ فشعره فيها بالغ القصر، وقد اعتاد أن يطيله، ووجهه فيها حاد الزوايا، ناضج، صارم، وقد كان غضًّا رقيقًا. كان –في تلك الصورة– كل شيء لم يكنْه: فخورًا ببلده، فخورًا بالدفاع عنها، وفخورًا بأن يكون من ذلك النوع من الرجال، الذي يدافع عن بلاده. بعبارة أخرى، كان في تلك الصورة فخورًا بأن يكون ابنَ أبيه. لم تكن صورةُ رفِّ الموقد لتعينَها على تذكر طفلها بأي حال من الأحوال. فالولد الذي رأته يُصافح صديقه فيدا دي فيلييه، ثم ينظر إليه بكل حب، لم يكن في تلك الصورة. والولد الذي كتب شعرًا رائقًا حصد الجوائز لم يكن في تلك الصورة. ابنها لم يكن في تلك الصورة، ورغم ذلك لم تستطع كوكي أن تقنع نفسها بالتخلص من الصورة، فهي آخر صورة أُخِذت له. وهذا أيضًا –عدم قدرتها على التخلص من صورة مَن لم يكن ابنها تمامًا، كان أيضًا خيانة.

بعد سنوات من انتهاء الحرب، جاء إلى كوكي رفيقُ حربٍ –هكذا عرّف الشابُ نفسَه– وأحضر معه شيئًا لا بد أنه حسبه هديةً لها. كان الشاب على وشك مغادرة البلاد متجهًا إلى كندا، وأثناء حزم أمتعته، صادف صورة للصبي الجميل ذي الشعر الذهبي، وهو يستند إلى سيارة جيب، بغير قميص، تتدلى من رقبته بطاقة تعريف، ومن شفتيه سيجارة، عاقدًا ذراعيه. بدا سرواله وحذاؤه العسكريان كبيرين عليه جدًّا. بدا كشخص على وشك الضحك، أو كشخص قد كف عن الضحك لتوه.

لم تعرف كوكي ماذا تصنع بالصورة. فالرجل الذي في الصورة –وقد كان حقًّا رجلًا، لم يعد طفلًا جميلًا ذهبي الشعر، هذا الرجل لا يشبه ابنها إطلاقًا، وإنما بدا نسخة مصغرة من إيميل.. وبدا فخورًا بهذا! هناك صورة أيقونية لإيميل كويتزي، أُلتُقطت عندما كان في نفس العمر تقريبًا، مستندًا إلى سيارة وقد بدا مستمتعًا بوفرة الشباب. هناك شيء غير منطقي في صورة ابنها، وهي تعلم أنه غير منطقي، فقد شعرت أن الصبي الجميل هو من طلب أن تُلتقط له هذه الصورة لأنه أرادها أن ترى نتيجة افتقارها للشجاعة. ورغم أن الطلاء

الأسود الذى طلى به وجهه جعله يبدو شرسًا، ورغم أن هناك ابتسامةً تلوح على وجهه، فقد بدت عيناه الزرقاوان خاليتين من الحياة. أخبرتها الصورة، الهدية، أن ابنها الجميل ذا الشعر الذهبي، حتى لو نجا من الحرب، فلم يكن له ليعود أبدًا كاملًا كما كان.

لم تسمح كوكي لنفسها بالتفكير كثيرًا في ما تفعل، فأخذت الصورة، صورة ابنها الذي لم تتعرف عليه، وقذفت بها في نار المدفأة. راقبت الصورة وهي تتلوى، وتذوي إلى أن تصير عدمًا من رماد. كان إحراقُ هذه الصورة هو الشيءَ الوحيد الذي قامت به بعد موت ابنها الجميل ذي الشعر الذهبي ولم يبدُ كخيانة.

ربما لم تكن كل خياناتها تلك لتبدو بتلك الفظاعة لو لم يصبح فيدا دي فيلييه مشردًا في الشوارع. لقد أحبَّ ابنها هو أيضًا، وقد فقده هو أيضًا. ولكنه، رغم ذلك، اختار ألا يواصل حياته دونه، واختار بدلًا من ذلك أن يتعامل مع العالم من بعده بطريقته الفريدة. كلما رأت كوكي فيدا في الشارع، ملفوفًا بألمه الدائم وحزنه الذي لا يُحتمل، رافضًا بكل عزم أن تتقدم حياته للأمام، منعزلًا تمامًا عن كل من حوله، حتى وهو يدفع عربة يده السكانيا وسطهم، حسدته لأنه وجد طريقة لئلا يخون الصديق الجميل ذا الشعر الذهبي الذي أحبه، بالاستمتاع بالحياة في غيابه. حسدته على شجاعته. ولطالما توقفت لتنظر إليه مفتونةً بقدرته على أن يفعل ما لم تستطع هي أن تفعله، وهذا ما كانت تفعله عندما أطاحت في الهواء بفتاة صغيرة عليها زي أزرق وأبيض.

فيدا

يقصد الناس الشوارع لدوافع مختلفة. كان دافع فيدا ركيكًا إلى حدٍّ ما، فعندما كان في السادسة عشرة نشأت صداقته بصبيّ ذهبيّ الشعر له صوت ملاك، غنّى «ذا ساوند أوف سايلانس» في إحدى المسابقات الموسيقية. ما إن سمع فيدا صوت الصبيّ، حتى اعتمل شيءٌ في نفسه. عرف اسم الصبي: إيفرلي كويتزي. وأثناء الاستراحة، تحيَّن الفرصة للحديث إليه، بعد أن شعر فجأةً بشجاعة لم يكن يتحلّى بها حتى تلك اللحظة. كان الصبي محاطًا ببحر من المعجبين، فلم يلحظ فيدا جيدًا، وإن ابتسم له ابتسامة لطيفة. اليوم -حسب فيدا ذي الستة عشر عامًا- كل شيء قد ضاع. لكن، بعد تلك الليلة، تعمقت صداقتهما إلى المنتهى.

بعد بضعة أشهر، شعر فيدا بارتباك وحيرة كبيرتين، فقد وقع في حب صديقةِ إيفرلي، روزاموند بييرس، وهي تقف مرتدية زيّ سباحةٍ، عاجي اللون، على حافة لوح الغطس، في حمام سباحة عائلة كويتزي. لم يسبق لفيدا أن رأى إنسانًا بهذا الجمال. غاصت في حمام السباحة وراح يراقب التموجات التي أحدثتها، ذاهلًا عن كل ما حوله. قبل أن تخرج من الماء، كان فيدا قد عرف، دون مقدمات، أنه وقع في الحب.

- إنها فاتنة، أليس كذلك؟

سأله إيفرلي هذا السؤال، ولم يكن حقًّا سؤالًا يحتاج إلى إجابة.

عندما خرجت روزاموند من حمام السباحة، جلست بأريحية في تلك المساحة الواقعة بينهما، وقالت، موجهة حديثها لإيفرلي: - أنت محق، إنه في غاية اللطف.

مالت نحو فيدا، وقبَّلته من شفتيه.

ازداد فيدا ارتباكًا. كان قد أدرك حقيقة أنه يحب صديقة صديقه. وأخذ وقتًا حتى أدرك فداحة الورطة. ماذا يسمى هذا؟ خيانة؟ ربما...!

ها هي روزاموند تقدم له شيئًا مغايرًا، مذاقًا جديدًا تمامًا، شيء لا اسم له. أرعبه هذا الأمر، بل هدد وجوده ذاته. إنه الآن وقع في حبها، فما هو التوصيف الأمثل للأمر؟

- لا تقلق، الأمر بسيط.

هكذا قال له إيفرلي، متفهمًا، كحاله دومًا، ما يمر به، ومتابعًا: - لا تعقد الأمور.

في تلك اللحظة عرف فيدا أنه ليس وحيدًا.

رضيَ عن نفسه، وشعر بعدم النقص.

كانت حياة رائعة. كان إيفرلي في الثامنة عشرة، وروزاموند في السابعة عشرة. كانوا صغارًا ولم يكن لديهم أي شيء يهتمون به إلا السعادة التي

يحصلون عليها من رفقة بعضهم بعضًا. لكن كانت هناك حرب تستعر، اَستدعي إليها إيفرلي، ولم يمر وقت طويل حتى خطا بقدميه في حقل ألغام.

بحثت روزاموند عن السلوى في أحد الأديرة. أما فيدا فالتحق بالجيش قبل موعده، عساه يموت هو أيضًا. لكنه لم يمت، ومات والداه بدلًا من ذلك. ماتا معًا، في حادث سيارة. وهكذا لم يعد هناك حب في حياته. ومكانَ الحبِّ، حل الغضب. لم يكن يعلم أن الحياة قد تكون مدمرة إلى هذا الحد، وأن السماء لا تبالي إلى هذه الدرجة، وأن العالم بكل هذه القسوة.

شعر بغضب عارم حتى إنه لم يستطع أن يبكي، ولم يكد يبكي إلا عند الاستماع إلى جانيس جوبلين بصوتها الصافي الحزين، الذي شعر فيه بالألم عميقًا حيًّا، فكان فيه سلواه. عندما أُرسِلَ إلى تونجالاند للمشاركة في حراسة الحدود، لكيلا يعبر الإرهابيون إلى البلاد أو يخرجوا منها، اصطحب معه مشغل كاسيت صغير، وكلما سنحت له الفرصة راح يستمع إلى جانيس جوبلين، ولم يشغل بالَه أن تُلفت جانيس انتباه الإرهابيين إلى مكمنه، بل كان يتمنى أن يحدث هذا. تونجالاند تُعرف بأنها «بؤرة الحرب الساخنة»، بسبب قربها من الحدود، وكان هذا ما جعل فيدا يؤمن أنه سيلاقي نهايته بها، وراح ينتظر تلك النهاية بعزيمة ثابتة.

إلا إن فيدا وجد أن تونجالاند هادئة، وآمنة، بشكل لا يناسب -على الإطلاق- منطقة حرب، كما وجد السكان الأصليين بالغي الكرم بالنسبة لأناس يحيط بهم الجند من كل مكان، تحت المراقبة ليل نهار، ويلقون معاملة سيئة من الجنود والإرهابيين، على حد سواء. سرعان ما أدرك فيدا السر؛ الناس هناك يزرعون الماريجوانا والمورينجا بكثافة، ويستهلكونهما بكثافة أيضًا. تجعلهم الماريجوانا يشعرون بالسلام وراحة البال، وتمنحهم المورينجا القنوع والرضا. لقد وجد الناس هناك طريقة للتعايش مع الدمار، والآلهة التي لا تبالي بالناس، والعالم بالغ القساوة، وتقاسموا تلك المعرفة مع فيدا، على نحو سخيّ.

وهكذا قضى فيدا حربه في تونجالاند مستمعًا إلى جانيس جوبلين، هانئًا بالسلام وراحة البال، بالقنوع والرضا. نعم لم يزل يعالج فقدًا، ولكنّه عرف كيف يخدّر ألم هذه الأحاسيس. لن يحب مرة أخرى أبدًا، وهو على يقين من هذا، ومصرٌّ عليه، فهو مدين لأولئك الذين أحبَّهم وفقدهم بألا يحب مرة أخرى، فلو فعل فلا معنى إذن للحب الذي مُنِحه، ومَنَحه. إن نجا من تلك الحرب –وقد كان حقًّا يرجو ألّا ينجو– فقد عزم على أن يحيا حياة لا مكان فيها للحب.

وذات يوم، تحديدًا في الثالث من سبتمبر من عام 1978، كان يقف متخفيًّا في أعشاب فيل تونجالاند الطويلة الصفراء، الضاربة إلى اللون الذهبي، وانتابه شعور لم يجد من الكلمات ما يصفه به. لم يكن هناك من أحد غيره في الميدان، إلا أنه لم يشعر بالوحدة! بطريقة ما، أحس بتمايل العشب على أنامله، وبرفرفة أجنحة طائر فوق رأسه، تهمس في أذنيه، وشعر بخصوبة

التربة، على لسانه! كان في حضرة شيء امتلأ له عجبًا. أحب ما يشعر به وإن لم يستطع أن يصفه. شيءٌ لا يمكنه إلا أن يشعر به، وليس بمقدوره أن يسمّيه، ولهذا أحبَّه أكثر.

لكن هذا الشعور لم يدم طويلًا. فقبل أن يتمكن من استيعاب ما يجري، كان يحدق إلى ماسورة كلاشينكوف أ. ك. 47. هذه هي النهاية – هكذا ظنّ. أخيرًا! ربما كان هذا ما سبَّب له ذلك الشعور، ربما كانت البشارة، طريقة لمعرفة الأمور قبل حدوثها.

لكنّ حامل الكلاشينكوف لم يطلق النار، وإنما خفض بندقيته ونظر إلى فيدا في عينيه، مباشرة.

- اسمي جولايد جوميدي.

هكذا قال الرجل، مردفًا:

- ستتذكرني.

- وأنا اسمي فيدا دي فيلييه.

رد عليه الرجل:

- أتحسب أنك تخبرني شيئًا لا أعرفه!

ولاحت، من تحت ابتسامته، فجوة بين ثنيتيه، بدت مألوفة للغاية عند فيدا.

عندما وضعت الحرب أوزارها، عاد فيدا لحياته في الشوارع، وقد طال شعره ولحيته لعدم اعتنائه بهما، وأطلق عليه ساكنو الشوارع «الراهب».

قضى فيدا نهاره متجولًا في شوارع المدينة، ومتى حلّ الليل، نام في زقاق خلف مخبز داونينجز. والزقاق الواقع خلف مخبز داونينجز في شارع جراي مكان فاخر بالنسبة للمتشردين، أو من لا مأوى لهم، أو الضالين –سمهم كما شئت. وأفضل أحوال هذا المكان الفاخر تكون في الشتاء، عندما تنبعث الحرارة من الأفران، التي يتم تشغيلها في الثالثة صباحًا، لتسري في جدران المخبز، وتجعل الشطر الثاني من النوم دافئًا مريحًا. كان فيدا يحب أن يسند ظهره إلى جدران المخبز، مفسحًا المجال للحرارة لتغزو جسده بينما تغلّفه رائحة الخبز الساخن.

لم يكن عند فيدا أجمل من الاستيقاظ على دفء رائحة الخبز الطازج، رائحةٌ تجعل اليوم، كل يوم، يبدو كأن به احتمالات لا عدد لها. كانت الرائحة كوعد، بل كعقد، كأنه تعهد من المدينة بأن تعتني بمواطنيها، تعهدًا يكاد يرقى لأن يكون ضمانةً لقدرتها على ذلك، أن تعتني بهم.

لم يصدق فيدا عينيه عندما عاد من الحرب ليجد زقاق مخبز داونينجز شاغرًا. ففي 1980، والدولة حديثة عهد باستقلال، لم يكن هناك الكثير من المتشردين، أو هؤلاء الذين لا مأوى لهم، أو الضالين، لم يكن هناك إلا الكثير من التفاؤل والبدايات الجديدة. لكنّ ساكني الشارع (كما كان فيدا يحب أن يسمي

المتشردين ومن لا مأوى لهم والضالين) كانوا يطوّقون قطاعات كاملة من المدينة باعتبارها ملكًا لهم، وهي ميزة أن يكون لدى الأفراد وفرة في الممتلكات، ليس لوفرة الممتلكات، وإنما لقلة المالكين.

كان ساكنو الشارع الأصليون من ذوي البشرة البيضاء، حصرًا، ولا غرابة فقد كانت المدينة المستعمرة مقصورةً على البيض. وكانوا يتألفون من بِيض فقراء، وعاهراتٍ متقاعدات، وأناسٍ من الأفضل لهم سكن المصحات النفسية، وحفنة من الساكنين القدامى الذين نسيتهم الإمبراطورية ونسيهم الزمن.

شهدت فترة ما بعد الحرب زيادة كبيرة في ساكني الشارع. فكان بعضهم، كفيدا، ممن خدم في القوات المسلحة، وبعضهم من مناضلي الحرية أو من الإرهابيين (على حسب المتكلم)، وبعضهم من المدنيين الذين أصابتهم الحرب بالاضطرابات العقلية ثم لم يجدوا لهم موضع قدم في المصحات النفسية التي غصّت بمرضاها، كما كان بعضهم ممن ترك الريف عندما احتدمت الحرب ومنّى نفسه بأمان المدينة النسبي. رأى معظمهم من الأهوال ما جعله ينزوي إلى عالم داخلي، عالم له عليه السيطرة المطلقة. تعلم هؤلاء القادمون في فترة ما بعد الاستعمار أن يتعايشوا مع المستوطنين المستعمرين. مثّلَ ساكنو الشارع في فترة ما بعد الحرب مجتمعًا متعدد الأعراق حقًّا، لعله كان أفضل مثال في الدولة للتسامح والتصالح بعد الحرب.

كان ينضم إليهم أثناء النهار حشودٌ من المتسولين العميان والمعاقين، يسيرون أو يعرجون وبأيديهم أطباق أو أكواب من القصدير، يهزونها لتخشخش العملات في قعرها. غالبًا ما كان يقودهم أطفالهم الأصحاء. وكان المتسولون يغنون أو يعزفون على إحدى الآلات الموسيقية، أو يقومون بهذا وذاك، إلى أن ترن عملة في قعر الإناء، فيتوقف المتسول، والطفل، ليشكر المانح. كان إيقاعًا سرعان ما أصبح جزءًا من حياة مدينة ما بعد الاستعمار. كان المتسولون، جميعًا، مطربين وموسيقيين ذوي موهبة كبيرة.

كان (شادراك) عازف فيدا المفضل، وهو رجل بُترت ساقاه من أسفل الركبة وهو طفل، لمنع الجذام من الانتشار في سائر جسده. يجوب شادراك المدينة على يديه، يجر بهما جسده متأرجحًا بين يمناه ويسراه، ويعبر الشوارع أسرع من أي شخص يعرفه فيدا. صنع شادراك ليديه وسائد من الجوارب الطويلة المحشوة بأكياس البلاستيك، وخِرَق القماش والصوف، ودائمًا ما كان يحمل على ظهره جيتارًا صنعه بنفسه، ويعزف عليه على نحو لو سمعه جيمي هندريكس لدمعت عيناه طربًا. أما صوته، فحدِّث ولا حرج. ولكم كان رائعًا وهو يغني للبيتلز «وِن ماي جيتار جنتلي ويبس»! لم يكن عند فيدا يوم أجمل من هذا الذي يكون فيه منتشيًا بحشيش تونجا الأصلي ويستمع إلى شادراك يعزف على جيتاره.

لم يكن المتسولون من العميان والمعاقين سكانَ شارعٍ بما تعنيه الكلمة، فهم يغادرون المدينة كل مساء متجهين غربًا، صوب ضواحي المدينة. كان لهم بيوت، وعائلات، ومسؤوليات، وهذا هو ما جعلهم يغادرون الضواحي كل صباح متجهين شرقًا، سعيًا وراء قوت يومهم.

هذا هو الفارق الجوهري بين متسولي الشارع وساكنيه، فساكنوه لا يتسولون. لم يكونوا في حاجة إلى فعل ذلك، فهم لا يحاولون تأمين القوت أو تعليم الأبناء، ولا أن يكونوا من أفراد المجتمع المنتجين. وعلاوة على ذلك، فهم يحصلون على مؤونة وافرة. فـ(جيش الخلاص) يوفر الملبس مرتين في السنة، مرّةً في بداية الشتاء وأخرى في بداية الموسم المطير، لكل من يريد شيئًا جديدًا –أعني شيئًا جديدًا بالنسبة لهم. أما عن الطعام، فهناك مطاعم، ومخابز ومحال جزارة، وإن لم يعطوك طبقًا من الطعام (عند مدخل العمال عادة)، فلا شك أنك ستجد شيئًا في القمامة التي يتخلصون منها كل ليلة بعد الإغلاق. يمكن لساكن الشارع أن يأكل أكثر مما يأكله المواطن المنتج في المتوسط.

كان ذلك في الثمانينيات من القرن التاسع عشر.

بدأت الأوضاع تختلف في التسعينيات. فجأة أصبح هناك حشود من سلالة جديدة من ساكني الشارع، كلهم أطفال. قررت الدولة أن تسميهم «أطفال الشوارع»، وقد جاء أطفال الشوارع إلى المدينة للتسول، وللمعيشة أيضًا.

كان هناك ميثاق للسلوك بين ساكني الشارع أنفسهم، وبينهم وبين متسولي الشوارع. ليس هناك صداقة حميمية، على الأقل من جانب الأوائل. لا يخرجُ المرءُ للشارع لأنه يريد أن يتخذ أصدقاء. الأصدقاء –كالعائلات– يتوقعون منك أمورًا وينشأ عن وجودهم التزامات. يخرج المرء للشارع ليحرر نفسه من التوقعات والالتزامات. يخرج للشارع لأنه يريد أن يتركه الناس لحاله، أو بالأحرى لأنه يريد تلك الخصوصية التي لا تتأتّى إلا من العيش وسط أناس يتظاهرون بأنهم لا يرونك. نعم، لم يكن هناك صداقة حميمية، ولكن كان هناك ميثاق سلوك، عقد اجتماعي يحكم الحياة في الشارع: تحترم ممتلكات الآخرين، ومناطقهم، وحدودهم، وعملاءهم، وزبائنهم، لا تتدخل في شؤونهم، تعيش حياتك كما شئت، وتترك الآخرين يعيشون حياتهم كما يشاؤون.

لم يلتزم أطفال الشوارع بأي من هذه القواعد. كوّنوا مجموعات صغيرة كثيرًا ما تحولت إلى عصابات. كانوا ينتشون باستنشاق الغراء، يسرقونه من متاجر هاسامال وإيسات، ثم يشرعون في القيام بكل ما يعينهم على المعيشة. كان كل شيء وكل شخص هدفًا مشروعًا لهم. لم يكن لديهم أدنى احترام لأي شيء أو لأي شخص. في الواقع لم يُلق عليهم فيدا اللوم، فمعظمهم أيتام، مات آباؤهم أثناء حرب التحرير، أو بسبب وباء الإيدز، أطفال قست عليهم الحياة أيما قسوة، ولم يعد لديهم أمل في شيء، فإن قرروا أن

يردوا للعالم الإساءة، فليفعلوا ما شاؤوا. رغم كل ذلك، لا شك أن وجودهم يجعل حياة ساكني الشارع أقل هدوءًا وراحةً.

بسبب أطفال الشوارع نزح كثيرون من قدامى الساكنين، كما هو حال (مِيك)، الذي كان يرافق فيدا أحيانًا، والذي تم طرده من مكانه المريح خلف جزارة (كولكوم)، فكان أن فقد وجبته الثابتة من فطائر لحم الخنزير، والنقانق، واللحم المقدد، والبولوني. وقبل أن يُطرد ميك، كان بينه وبين فيدا اتفاق: فميك يحضر شرائح البولوني الباردة ويحضر فيدا الخبز الساخن. قليلةٌ في الحياة تلك الأشياء التي تتناغم كما يتناغم خبز داونينجز الساخن وشرائح كولكوم الباردة من البولوني، فكان فيدا وميك يأكلان كما يأكل الملوك، وكان هذا مناسبًا للغاية، فهما يعيشان في سيتي أوف كينجز (مدينة الملوك).

ولّت تلك الأيام، ولم يكن ميك سعيدًا. كثيرون من قدامى الساكنين لم يكونوا سعداء.

شعر فيدا بالقلق، ولم يكن يحب أن يقلق، فهو شعور كبير الشبه بالمبالاة، بالاهتمام بمستقبل الأشياء.

سبَّبَ وصول أطفال الشوارع الكثير من المشكلات حتى إن فيدا اضطر إلى مخالفة ميثاق الشارع، بعد أن التزم به لاثني عشر عامًا. بسبب أطفال الشوارع، وجد فيدا نفسه يفعل شيئًا قطع على نفسه عهدًا ألا يفعله أبدًا: أن يقحم نفسه في حياة من حوله.

قال جوزيف بيربرا، أحد قدامى الساكنين ومخضرم حقيقي من مخضرمي الشارع، لواحدة من أطفال الشوارع، فتاة الخامسة عشرة تقريبًا احتلت مكانه في ساحة مكتب البريد العمومي، أن تعود إلى المنزل، إلى والديها، قالت له: - عُد أنت إلى بيتك في إنجلترا.

وعندما رد عليها جوزيف قائلًا إنه –وإن كان أسلافه قد جاؤوا من البرتغال– فإن عائلته في إفريقيا من قرون بعيدة، حتى إن البرتغال لم تعد وطنًا له، فردت الفتاة بقولها: - لا يمكن لوطني أن يكون وطنًا لك.. أبدًا!

وبرهنت على وجهة نظرها بأن وضعت ذراعها قرب ذراعه قدر استطاعتها، دون أن تلمسه (ليرى لون بشرتها ولون بشرته). رأى فيدا قلبَ رجلٍ جاوز السبعين وهو ينفطر، وكنوع من المواساة، عرض عليه أن يُقِلَّه في عربة يده السكانيا إلى جادة سيلبورن. عادةً ما كان جوزيف ينتهز الفرصة، ولكنه ابتسم ابتسامة حزينة هذه المرة ووضع يده على ذراع فيدا، وقال له: - أراك قريبًا يا بنيّ.

صبيحة اليوم التالي، وُجِد جوزيف مشنوقًا في ساحة مكتب البريد العمومي، بجوار لوحة تذكارية لمن ماتوا دفاعًا عن الإمبراطورية البريطانية في الحرب العالمية الثانية، مرتديًا بزته العسكرية. كان فيدا هو من قطع الحبل الذي شنق به نفسه، وانتظر بجوار جثمانه إلى أن جاءت الشرطة. وبّخته الشرطة على

تدخله في مسرح الجريمة، وتفهم فيدا غضبهم، ولكنه لم يندم على تدخله، إذ آمن أن موت جوزيف بيريرا يستحق الكرامة، وأن ترك جثمانه متدليًّا لفترة طويلة ينتقص من كرامته.

ثم تشاجر دافيد وجولايث.

أصبح دافيد من ساكني الشارع بعد بضع سنوات من فيدا. وبخلاف معظم ساكني الشارع من حقبة ما بعد الاستعمار، لم يكن دافيد من مصابي الحرب. كان له قصة فريدة، وربما لهذا السبب كانت أكثر قصة بؤسًا سمع بها فيدا. كان دافيد يعيش في الشارع لأنه لم يستطع أن يسافر للخارج ليكمل دراسته. كانت رقة حاله هي ما جعلت من حكايته حكايةً مأسويّة. فهو طالب ذكي، حصل على منحة ليدرس في جامعة هارفارد، ولكن أسرته كانت في حالة بائسة من الفقر والعوز، فلم تتمكن من إرساله إلى هناك. ثم كان أن حالفه الحظ، إذ جمع له الناس والكنيسة معظم المبلغ الذي يحتاجه لشراء تذكرة الطيران. ولكنْ اتضح في السفارة أن قلة المال أمر كبير، فرغم أنه حاصل على منحة فإنه في حاجة للمال لتكاليف المعيشة، وهي –في كامبريدج ماساتشوستس– تكاليف باهظة، كما أخبرته موظفة السفارة آسفةً، قبل أن ترفض منحه التأشيرة. تحطمت آماله، وانهار عقله اللامع بعد أن لمس أعتاب حلم جميل.

منذ ذلك اليوم، عزل دافيد نفسه عن بيئته، وانتهى الحال به بأن هام على وجهه في الطرقات. كان يتحدث مع نفسه، وينغلق عليها، ويشغل وقته بقراءة «ذا كرونيكل» من الصفحة الأولى حتى صفحة الرياضة، كل يوم، كلمةً كلمةً، ويحل لغزي الكلمات المتقاطعة: السهل، والمعقد. كان كل ساكني الشارع يتركونه لحاله، كلهم ما عدا جولايث، زعيم أسوأ عصابات الشوارع سمعة، «ذا سيرفايفرز»، والذي كان –رغم هزاله– بالغ الخطورة والأذى.

كانت عصابة (ذا سيرفايفرز) عصابة منظمة، ترتكب كل الجرائم –يقتحمون السيارات فيسرقون أجهزة المذياع وكل ما تقع عليه أيديهم، يدسُّون أيديهم في جيوب الموظفين ويسرقون أموالهم، يخطفون حقائب العجائز، ويضربون –بسبب وبغير سبب– الصبية في مدرسة ميلتون جونيور، ويسبون بأفظع الألفاظ طالبات مدرسة تاونسند الثانوية. بالطبع كان هناك عصابات أخرى من لصوص السيارات، والنشالين، وخاطفي الحقائب، لكنها كانت عصابات غير منظمة. خلال سنواته العديدة التي قضاها في الشارع، شهد فيدا حقيبة تختطف هنا أو هناك، وسمع جرس إنذار سيارة ينطلق بين الحين والآخر، أو جيبًا يُنشل، لكنه لم يرَ عصابة جديرة بالاسم. كان جولايث بلا شك زعيمًا لعصابة حقيقية، وكان أفرادها معروفين لكل من يعيش في الشوارع.

في اليوم الذي تعارك فيه دافيد وجولايث، خطف واحد من (ذا سيرفايفرز) جريدة (ذا كرونيكل) من دافيد وهو يقرأها، وفي لمح البصر، أطبق دافيد

أصابعه على رقبة الفتى، ثم كان هناك صوت زجاج ينكسر، وإذا بجولايث يلوح برقبة زجاجة جعة في وجه دافيد. اندفع جولايث صوب دافيد، الذي قام بدفع فتى الشارع نحو الحائط. في تلك اللحظة لم يكن لكليهما إلا هدف واحد: الدم. أدرك فيدا حينها أنه ليس أمامه من خيار إلا أن يتدخل. ولسوء حظه، انغرزت رقبة الزجاجة في كتفه، ولكن على الأقل لم يسل دم في ذلك اليوم غيرُ دمه.

وفي مرة أخرى، حاول فيدا التدخل عندما رأى فتاة –لا يمكن بأي حال أن تتجاوز الحادية عشرة– تدلف إلى سيارة رجل أعمال هندي معروف، يحب عاهرات الشوارع. كان الرجل يفضِّل البغايا السود (يحب فيدا أن يسميهن «السيدات الملونات» بسبب شفاههن الوردية وجفونهن الزرقاء وأظفارهن الطويلة، الحمراء، المدببة) اللائي يقفن خارج دور سينما كاين 600 وإليت 400، واللائي تروج تجارتهن بعد عرض مزدوج لأحد أفلام ستالوني، أو نوريس، أو سيجال، أو فاندام في السهرة، عندما ترتفع مستويات هرمون التستوستيرون، مقرونة بالرغبة في اقتحام شيء، أي شيء. لكن الرجل الهندي أحيانًا ما كان يحب أن يخلط الأمور، وقد اصطحب فيدا معه مرة أو مرتين. ومع ذلك، فإن اصطحاب مثل هذه الفتاة الصغيرة كان يُعد –في عُرف فيدا– أمرًا غير مقبول بأي حال من الأحوال. حاول فيدا إخراج الفتاة من السيارة، لكنها صفعته على وجهه، وقالت له إنها هي أيضًا بحاجة إلى المال لتتمكن من البقاء على قيد الحياة، ثم أغلقت الباب في وجهه. حينها، سمع فيدا رجل الأعمال الهندي يضحك، ويقول: - في المرة القادمة يا حضرة الراهب، في المرة القادمة.

ثم أدار سيارته، وانطلق. في اليوم التالي، كادت «السيدات الملونات» يفتكن بالفتاة، وأخذن منها المال الذي اكتسبته، عشرين دولارًا. بعد ذلك اليوم، انضمت الفتاة إلى (ذا سيرفايفرز) وإن لم تبدُ سعيدة بأي من هذا الأمر.

لم يتدخل فيدا في أمر لا يخصه وهو يتعمد أن يخالف ميثاق الشارع، إلا مرة واحدة. كان ذلك عندما رأى بنت جولايد جوميدي، إيموجين زولا نيوني، تطير في الهواء، كشيء من جمال محض، شيء عجيب يرتفع في السماء. كانت ستسقط على الأرض، مهشمةً، ولكنها هبطت على عربته السكانيا، وخفف أثر وقوعها لحاف صنعته له أمه، يفرشه فوق العربة. لم يدر كيف استطاع أن يصل إليها بهذه السرعة.

رفعت عينيها، ونظرت إليه، وقالت:

- أنت الراهب، أليس كذلك؟

ورد بشيء من التردد:

- بلى.

- لكنك لا تبدو كراهب.

- أعرف.

- فلم يسمونك الراهب إذن؟

- أعتقد أنه بسبب اللحية والشعر الطويلين.
- والأعين الطيبة.
ابتسم لها وابتسمت له.
- ربما عليك أن تحلق شعرك ولحيتك.
- ربما.
- لعلك تخشى أن يكف الناس عن مناداتك بالراهب لو فعلت.
لم يرها بوضوح إلا تلك اللحظة، وقال:
- ربما.
- لا تكترث، فستظل لعينيك نفس الطيبة.
ابتسم لها، وابتسمت له.
(ستذكرني).. كان هذا ما قاله له جولايد جوميدي. نظر فيدا إلى الفجوة بين ثنيتي إيموجين، وتذكر بالفعل. تذكر أيضًا إحساسه بتماوج العشب بين أصابعه، وذلك الشعور الذي ملأه بالعجب، تذكر البشارة.

ماركوس

كان اليوم التالي لحفل عيد ميلاد كريسِل الثالث عشر هو اليوم الذي اكتشف فيه ماركوس حقيقة ما بينه وبين جيني.

كانا يجلسان تحت شجرة جكراندة كاملة الإزهار، وجيني تصنع شيئًا ما من زهور الشجرة الأرجوانية، وماركوس يُمنّي نفسه أن يكون ما تبدعه يداها شيئًا من أجله، أيًّا كان، مستلقيًا إلى جوارها، يشاهدها، وهو يشعر بالرضا، في صباح يوم أحد يدعو إلى الدعة والراحة، أجمل صباح.

أخبرها أنه استطاع، أثناء حفلة عيد ميلادها، وفي غفلة من الكبار، أن يختلس كأسًا من الشراب، يعتقد أنه ويسكي، وفجأة قطعت حديثه، وقالت: - هل تعرف أن الفيلة بإمكانها السباحة؟

هز رأسه نفيًا.

- قد تعتقد أن هذا مستحيل، أليس كذلك؟ ولكنه ليس مستحيلًا. فالفيلة تطفو. رأيتها في نهر زامبيزي عندما ذهبتُ لزيارة جدي العام الماضي.

كانت نبرتها مليئة بالانبهار والرهبة، وتابعت: - تخيل هذا! فيلٌ يطفو كأنه أخف من ريشة!

نظر إليها ماركوس، وهو يستشعر أن شيئًا بينهما يتغير.

- إنها رائعة، يجب أن تراها، عدني أن تذهب يومًا لرؤيتها.

وجد نفسه يومئ واعدًا أن يفعل.

- إنه أجمل شيء ستراه في حياتك.

شك ماركوس في هذا شكًّا كبيرًا، فقد كان في تلك اللحظة يرى، بالفعل، أجمل شيء في حياته: إيموجين زولا نيوني، تحيط بها زهرات الجكراندة الأرجوانية الضاربة إلى الزرقة. شك كثيرًا أنه قد يرى ما هو أجمل من هذا.

- النهر العتيق والحيوان الهائل.. في تناغم تام.. طقسُ عبورٍ يجعله ما فيه من جرأة طقسًا مقدسًا.

جيني، وإن لم تزل في السادسة عشرة من عمرها، قادرة على تكوين جملٍ كهذه، فهي تقرأ وتفهم كتابات شكسبير، وتحب روايات جاين أوستن، وكثيرًا ما تقرأ الشعر دون أن يطلب منها أحد.

- الأمر حقًّا عجيب، إمكانيةُ ما يبدو مستحيلًا، كما أن هناك هذا الشعور الذي تشعر به.. نوع من المعرفة. يجعلك تصبح على دراية بمكانتك في هذا العالم. يجعلك تفهم أنك لست في خطة الأشياء الكبرى إلا ذرة، ذرة ضئيلة، وتدرك، معه، أنّ هذا يكفيك. فهناك شيء من الحرية في هذا النوع من المعرفة، بل وفيه جمال أيضًا، فهي معرفةٌ مآلُها الشعورُ بالسكينة. معرفةٌ تسمح لك بالتحليق. لا بد أن تجرب الأمر بنفسك.

قالت هذا وهي تبتسم له، وعلى وجهها كل أمارات الحُسْن والابتهاج.
أما ماركوس، ابن السابعة عشرة، فكان بمقدوره أن يقدِّر كلماتها لأنه يحب الأشياء الجميلة.
في لحظة من اللحظات سمع قلبه يصطخب.
أستسيرُ الأمور بالنسبة له على هذا النحو إذن؟ لن يكون الأمر بالنسبة له متعلقًا بضوء الشمس أو القمر، ولا بنسمة رقيقة ترفع ذيل فستانها قدرًا ما، ولا بزهرة في شعرها، أو رنة لضحكتها. لا، بل سيكون كل شيء متعلقًا بأفيال تسبح تحت شجرة جكراندة.
- جيني.
لم يكن صوته أكثر من مجرد همس. نظرت إليه، وتابع: - جيني، أنا...
بدت أمارات الضحك في عينيها.
فقد ماركوس شجاعته على الفور. ماذا لو أنه أخبرها بما يشعر به، فضحكت؟ عليه أن يجد شيئًا بديلًا يقوله، أن يجد مهربًا.
قالت:
- كنتَ تقول...؟
والضحك لم يزل بعينيها.
ارتبك.
- أعتقد أننا متفقان، أخيرًا.
ودون أن يعرف حقًّا ما يقوم به، أو أن يعد له، قبَّل ابتسامتها. قبَّلته قبلة قصيرة، ثم توقفت. تلاشى الضحك كله. غادرته، وسط أزهار الجكراندة الأرجوانية تلك، مرتبكًا بشأن كل شيء، إلا الأفيال السابحة.

كريسِل

في اليوم التالي لعيد ميلادها الثالث عشر، استيقظت كريسِل على صوت لم تسمعه في المنزل من قبل، صوت بالغ الغرابة حتى إنها –للحظة– حسبت أنها لم تزل نائمةً، تحلم. كان هناك شخص يتحدث بصوت غاضب، عال. ماركوس. ما الذي أغضب ماركوس، هذا الولد الطيب؟ حيّر السؤال كريسِل حيرة شديدة لم تستطع معها إلا أن تبحث عن الإجابة. لطالما خططت لهذا الصباح، الصباح الذي ستبدأ فيها مرحلة الأنوثة. أمضت معظم الصباح في السرير، وهي تشعر تمامًا أنها قد صارت امرأة حقًّا، ولكن عندما سمعت الضجة في الطابق السفلي، ألقت بالغطاء جانبًا، ووثبت من فراشها. وبينما كانت تنتعل خفيها، خطر لها أن مجرد ظهورها في المطبخ سيضع حدًّا لما يجري هناك، فشقت طريقها خلسة، وبكل حذر، وهبطت الدرج.

لم يزل المنزل يعبق بتلك الرائحة اللذيذة الشهية التي تخلفت من طعام حفل البارحة. دلفت كريسِل إلى المطبخ، لتلقيَ أمامها مشهدًا بالغ الغرابة: والديها، وعليهما ثياب النوم الساتان المتطابقة، جالسين، أو بالأحرى جاثمين يرتعدان، أمام طاولة الفورمايكا الصفراء، وماركوس (الذي كبر واشتد عوده في العامين الماضيين على نحو مفاجئ أسعده أيما سعادة) واقفًا فوق رأسيهما.

- أريد أن أسمع ذلك منكما.. من كليكما.

قالها بطريقة جعلت والديها يلتصق كل منهما بالآخر. ورغم أنهما كانا يجلسان في وسط المطبخ، فإنهما بدوَا محاصرين تمامًا من قِبَل ماركوس. لم يرفع أي منهما عينيه، كأنهما يأبيان أن يريا أي شيء سوى صفرة الفورمايكا. لا شك أنهما يشعران بالذنب.

عندما رأت كريسِل أمارات الشعور بالذنب على وجه أبويها، عرفت بالغريزة أن هناك شيئًا يتغير، وأن هذا التغيير لن يكون قابلًا للإصلاح.

كانت جيني جالسة في ركن الإفطار، وساقاها مثنيتين تحتها، وذراعاها ملفوفتين حول جسدها. بدت كما لو أنها تحاول أن تشغل أقل مساحة ممكنة. لم تكن تنظر إلى أحد، كأنها انكفأت على نفسها. من الواضح أنها تبكي. أرعب هذا الأمر كريسِل أكثر مما بدا على وجه والديها من الشعور بالذنب، فجيني لم تبكِ من قبل. لم تبك عندما جاءت لتعيش مع أسرة ماركوس، ولا عندما قرر ماركوس أن تكون حبيبتُه الحقيقيةُ الأولى هي أنيسو، ولا عندما كانت الثانية هي بيولي، والثالثة كولين، ولا حتى عندما صدمتها كوكي كارمايكل فأطاحت بها في الهواء. لم تبك جيني قطُّ.. إلا الآن.

وقفت يونيس، جدة كريسِل، بجانب الموقد، وعليها قميص نوم من قماش التيري، وقد انحرفت باروكتها عن مكانها بعض الشيء، وذراعاها معقودتان بحزم أسفل صدرها، وقد زمت شفتيها، وجزّت عليهما، وعلت عينيها نظرةٌ غريبة، وهي تنظر –بما يشبه الانتقاد– إلى أرضية المطبخ المكونة من قطع صفراء ورمادية في نمط شطرنجي، كما لو كانت ترى بها عيبًا لا يمكن إصلاحه.

بدوا جميعًا كممثلين في مسرحية، لكن كريسِل لم تستطع، حتى تلك اللحظة، أن تعرف أهي واحدة من الممثلين أم واحدة من المشاهدين.

قال ماركوس:

- تكلما.

مد أبوه يده نحوه ليلمسه، قائلًا:

- ماركوس! أرجوك...

أوقف ماركوس يد أبيه قبل أن تصل إلى مبتغاها، وصاح: - تكلما!

أفرجت جدتها عن لسانها، وقالت:

- جيني مصابة بالإيدز.

- هذا ما تقولين، ولكني أريد أن أسمعها منهما. فقد كان هذا سرهما هما.

- أنا مصابة بالإيدز، يا ماركوس.

هكذا قالت جيني، وهي بعدُ لا تنظر إلى أي أحد.

- لكن كيف؟ الإيدز مرض ينتقل عن طريق الجنس، ولم يسبق لجيني أن...

جلس ماركوس، مهزومًا، قبالة أبويه، ولكنه الآن –وقد صارت عيناه في مستوى عيني أبويه– قد اختار ألا ينظر إليهما. فوضع يديه على الطاولة برفق شديد، وراح يرقبهما وهما ترتعشان. وعندما اشتدت وطأة الصمت، قال والدها: - نعم قد ينتقل فيروس الإيدز.. عن طريق الاتصال الجنسي.. لكنه، أيضًا، قد ينتقل بطرق أخرى.

كما هو الحال دائمًا، كان والدها يحاول تقرير الحقائق عندما يسود الشك، ولكن كان هذا هو كل ما قاله، ثم أدرك أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يقول المزيد.

عقبت أمها، في محاولة لدعم زوجها، وقالت:

- كما يحدث بين الأم وجنينها.

لكن صوتها افتقر إلى اليقين والثقة التي كان يمكن أن توحي بهما الكلمات لو خرجت من فم أبيها.

فقالت جيني بيقين لا يلتبس بريب، وبنبرة قاطعة: - لكن أمي لم تكن مصابة بالإيدز.

- لا، لا أحد يلمح إلى أنها كانت مصابة به، وأنا واثق من هذا، فكما قلت، يوجد طرق.. طرق أخرى. الدم.. فعمليات نقل الدم، مثلًا، لو كان الدم ملوثًا. وهناك أيضًا العديد من الطرق الأخرى...

كان هذا ما قال والدها وهو يحاول أن يفسر لجيني، أو بالأحرى لطاولة الفورمايكا الصفراء، التي لم يرفع عينه عنها.

ساد الصمت بينهم مرة أخرى.

فجأة صدر صوت طنين. في أول الأمر حسبت كريسِل أن الصوت يصدر من داخل الغرفة. ثم أدركت أن الصوت كان آتيًا منها.. من داخلها. سمعت صوتها ينادي باسم جيني. رأت جيني تستدير وتعود راكضة في الشارع. سمعت صرير إطارات سيارة كوكي كارمايكل وهي تتوقف فجأة. رأت جيني تطير في الهواء للحظة ثم تهبط فوق عربة الراهب. رأت نفسها وهي ابنة عشر سنوات وهي تبتسم، لتخدع نفسها وتطمئنها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

أدركت الآن أن جيني والراهب قد خدعاها.

أدارت عينيها في الغرفة، وأدركت أن أسرتها تخدعها في تلك اللحظة.

نظرت كريسِل إلى عائلتها –أبويها وهما ينظران إلى طاولة الفورمايكا الصفراء، وماركوس وهو يحدق إلى يديه المرتعشتين، وجدتها وهي تنظر في أرضية الغرفة الشطرنجية، وجيني وهي تنظر في اللاشيء– وأدركت شيئًا: لم يكونوا يتجنبون النظر إلى بعضهم بعضًا، بل كانوا يتجنبون النظر إليها هي. كانوا يحجبونها عما يبدو في أعينهم.. الاتهام.

شعرت فجأة بالحرارة. شعرت بوخز في جسدها.. طنين. شعرت بأن شيئًا سائلًا ودافئًا يرشَح بين فخذيها. كانت تعرف أنها تترك أشياء الطفولة وراء ظهرها. محل تلك الأشياء كان عليها أن ترحب بالشعور بالذنب رفيقًا دائمًا لها.

غادرت كريسِل المطبخ راكضة، وصعدت الدرج، مدركة أن ما يخرج من جسدها، أيًّا كان، يلطخ سروالها الداخلي الأبيض الزنبقي، والذي نُقشت عليه كلمة (يوم الأحد) بأحرف متصلة جميلة. لا شك أنها عندما وصلت إلى غرفة نومها الوردية، وخلعت سراويلها الداخلية، وجدت بياض زنبقها ملطخًا بسائل أحمر بني. الأنوثة.. ليس مشهدًا جميلًا بأي حال. استلقت على الفراش، عازمة على ألا تخبر أمها أو جدتها بهذه الحادثة، ومتمنية من كل قلبها أن يغرق هذا السائل الأحمر المائل إلى البني الذي يخرج منها ملاءة السرير، وأن يتسرب إلى المرتبة، ثم يترك هناك بقعة لا تُمحى، بقعة يُعمل لها ألف حساب، إلى الأبد.

أرادت ألا تبكي، لكنها بكت بالطبع. أرادت ألا تنتظر حتى يأتي من يواسيها، لكنها بالطبع انتظرت أن يأتي شخص ما (أي فرد من أفراد عائلتها، لم ترد أحدًا بعينه) ليواسيها. لم يأت أحد، أو على الأقل، لم يأت أحد في الوقت المناسب.

بعد ساعات، دلفت جيني إلى الغرفة، بابتسامة على وجهها، وجلست إلى جوار كريسِل في الفراش، كأن ما جرى في المطبخ لم يحدث قَطّ.

قالت لها كريسِل، وهي تنشج:

- أرجوكِ أن تسامحيني.

وردت جيني بابتسامة تعرف جيني أنها زائفة:

- لم تفعلي ما يحتاج إلى السماح.

منذ ذلك اليوم، عرفت كريسِل شيئًا جديدًا عن أسرتها، عرفت أنها عائلة لا يُوثق بها. لا يُوثق بأي واحد منهم. فلو لم يكن هناك حقًّا ما يستدعي المسامحة، فلمَ لم تتحدث عائلتها قط عن حادثة جيني وعن دور كريسِل فيها؟ لو لم يكن هناك حقًّا ما يستدعي المسامحة، فلمَ لم تأت عائلتها على ذكر تلك الحادثة في المطبخ وكلهم يعرفون أن كريسِل قد شهدتها؟

عندما كانت كريسِل في أفضل حالاتها المزاجية، كانت تقول لنفسها إن العائلة ربما أرادت خيرًا بصنيعها هذا. ولكن ألا يعرفون أنه من بالغ القسوة ألا يعطوها الفرصة لتتكلم عن الحادثة وعن دورها فيها، كيف يتمادون إلى تلك الدرجة لكيلا يجعلوها تشعر بمسؤوليتها عن مرض جيني، ذلك المرض الذي لا شك أنه سيقتلها في يوم من الأيام، كيف يتركونها ترزح تحت هذا الشعور بالذنب في صمت ووحدة؟

في كل مرة تطلب كريسِل من جيني أن تسامحها، ترد جيني بقولها إنه ليس هناك ما يستدعي المسامحة.. في كل مرة.

وزادت جيني الأمور سوءًا، ربما عن غير قصد (لم تكن كريسِل متأكدة تمامًا)، بأن عادت إلى طبيعتها القديمة، أختًا كبرى تحب أختها وتحرص عليها. ربما كانت جيني تتصنع على الدوام، منذ اللحظة التي أصبحت فيها جزءًا من العائلة، وربما كانت تتظاهر فقط بما تريده وتحتاجه منها عائلة ماسوكو، أن تكون ابنة لا تسبب المشكلات، صانعة سلام، ناجحة ومتواضعة، أن تكون ذلك العمل الخيري الذي يجعل سائر أفراد الأسرة يشعرون بالرضا عن ثروتهم وتميزهم، أن تكون تلك الشابة الشجاعة التي لا ينال منها أو يزعجها نبأ إصابتها بالإيدز.

بدأت كريسِل من يومئذ تشك أن حال جيني هو هو حال شهرزاد، ولكنها لا تغير الحكايا كشهرزاد، إنما تغير الأداء: ألف أداء وأداء. ليس هناك جيني حقيقية، أصلية. ربما لم يكن هناك جيني حقيقية أصلية قَطّ، وإنما مجرد أدوار تُؤدى.

وفي السنتين التاليتين كانت جيني تضحك، وتحب، وتعيش كما لو لم يتغير في حياتها شيء، حتى كان ذات يوم، ظهيرة يوم عيد ميلادها الثامن عشر، ودون سابق إنذار، جمعت كل متعلقاتها التي دخلت بها إلى المنزل، وشقت طريقها إلى الراهب. دخلت جيني الغرفة وهي فتاة في العاشرة من عمرها،

تحمل بينيلوب وسبيكس تحت إحدى ذراعيها، وتحت الأخرى حقيبة قديمة. كانت هذه هي كل ممتلكاتها، ولم يكن شيء عندها أثمن منها. وعندما رحلت، بعد ثماني سنوات كان ذلك كل ما أخذته –بينيلوب، وسبيكس، وحقيبة قديمة محشوة بثياب لم تعد تناسبها، لم تزل أثمن ممتلكاتها.

الجزء الخامس

الوباء: الحب في زمن الإيدز

فيدا

سطعت الشمس، ثم غابت.

- الراهب!

قالها صوت أنثوي.

فتح فيدا عينيه، شيئًا فشيئًا، ثم نظر. كانت.. بالغة التوهج، حتى إنه اضطر إلى أن يحمي عينيه. بدا شعرُها البني المحمر تحت الشمس هالةً مشتعلة. استغرق الأمر منه برهة ليدرك من هي. إنها ابنة جولايد جوميدي، إيموجين زولا نيوني. هي الفتاة التي أمسك بها وهي تحلق في الهواء منذ ما بدا ردحًا من الدهر. أمالت رأسها ذات اليسار، فضربته الشمس في عينيه. أغلقهما بإحكام، ثم سبّ.

- لقد أنقذت حياتي ذات يوم، شكرًا لك.

قالت هذا، ثم صمتت، تنتظر الرد.

كيف يُفترض به أن يرد على هذا؟ لم يكن لديه ما يقول، ولكن كان من الواضح أنها تنتظر منه أن يقول شيئًا. لم يكن يحب أن ينتظر الناس منه شيئًا. نطق أخيرًا، ولم تزل عيناه مغلقتين: - لا داعي لأن تشكريني، تصادف وجودي هناك، هذا كل ما في الأمر، في المكان المناسب، والوقت المناسب، على ما أظن.

فجأة شعر بكل حرارة الشمس على جسده. هل رحلت؟ لكم رجا أن تكون قد فعلت، أن تكون لا مبالاته قد جعلتها تعلم أنه لا رجاء فيه. ولكن رغم أنه كان يرجو أن تكون قد تركته لحاله، فقد علم أنه ليس محظوظًا إلى هذه الدرجة. شعر بها تجلس إلى جواره.

- لقد أنقذتَ حياتي، وها أنا ذا قد جئتُ لأنقذ حياتك.

رائحة فانيلا.. وشيء آخر.. رائحة دخان الخشب. كتم أنفاسه، فهو لا يحب أن يشم رائحة الناس، ولكم حاول بكل جهده ألا يفعل هذا الأمر. دائمًا ما كان يكتم أنفاسه كلما مر أحد على مقربة منه. هناك شيء بالغ الحميمية في شم رائحة إنسان، كأنه نوع من الاحتواء، من المشاركة، امتصاص هذا الآخر واستهلاكه. إن الرائحة على مسافة خطوة واحدة من التذوق. سمعٌ، وبصرٌ، ولمسٌ، وشمٌ، وتذوق: هكذا تتراتب الحواس عند فيدا، من أسفل إلى أعلى. كان يحب أن تقتصر معظم تفاعلاته الإنسانية على الحاستين الأوليين فقط. ولكن ها هي ابنة جولايد جوميدي، وبعد ثوان قليلة من اقترابها، تغزو رائحة الفانيلا التي تفوح منها أنفه، حتى تصير جزءًا منه. زفر زفرة طويلة، ولما كان

قد حبس أنفاسه طويلًا، فقد اضطر إلى أن يفغر فاه. دخلت الرائحة فمه، حتى كادت أن تتجسد مذاقًا. اضطرب شيء بمعدته، فشعر بالضيق.

ليس بإمكانه الآن سوى أن يفتح عينيه، ويلتفت إليها. رآها ضبابًا، فعيناه ما زالتا تصارعان للتكيف مع الشمس. تجلس على حقيبة، وتحمل بين ذراعيها – بلا أي خجل– عروسًا من قماش ودميةً لِدُبّ. كم عمرها؟ لا شك أنها أكبر من أن تتجول في المدينة، في وضح النهار، تحمل دماها في يديها. ابتسمت له، مسفرة عن فجوة بين ثنيتيها، فجوة جعلت شيئًا في معدته يضطرب ثانيةً، فغشاه الغضب.

- أتيتِ لتنقذيني؟

- أجل.

وهي تهز رأسها، وتبتسم.

- ومن قال إني في حاجة إلى الإنقاذ؟

لم يكن منها إلا أن نظرت إليه وواصلت الابتسام. لعل بها شيئًا غير طبيعي. لعل بها عِلّة بالرأس، فقد سبق لها أن عانت من إصابة في الرأس على كل حال.

- شكرًا، لكني لست في حاجة إلى إنقاذ.

فردت على الفور، وكأنه أمر مسلم به:

- أوه، ولكنك في حاجة إليه.

لم تعجبه الطريقة التي نظرت بها إليه. الطريقة التي حدَّقت بها إليه. الطريقة التي جعلته هو من يشيح بناظريه أولًا. كم عمرها؟ لا يمكن أن يزيد عمرها على ثماني عشرة سنة، ولكنها رغم ذلك تنظر إليه نظرةَ من يعرف عنه أشياء لا يعرفها هو على نفسه. أغمض عينيه مرة أخرى، آملًا أن يخيِّب أملها فيه، فتمضي لحال سبيلها. ولكنه وجدها بدلًا من ذلك تستوي في جلستها وتأخذ راحتها إلى جواره.

- من برفقتنا؟

كان هذا ميك، متحدثًا بلسان ثقيل، مترنحًا، يعود إلى مكانه الشرعي إلى جوار فيدا، ورائحة الكحول والتبغ تفوح من أنفاسه.

هز فيدا كتفيه، وهو لم يزل مغمض العينين، وأدار وجهه للأعلى، تجاه الشمس. ربما يكون ميك هو ما يحتاج إليه لصرف الفتاة بعيدًا. ولكن ما إن لاح له هذا الخاطر، حتى شعر بها تمد يدها عبر صدره. فانيلا.. دخان الخشب.. لا.. لا.. هذا كثير جدًّا. حبس أنفاسه.

- إيموجين زولا نيوني، مسرورة بلقائك.

فقال ميك، وقد بدت عليه أمارات السعادة والاندهاش: - وتصافحين أيضًا!

وتابع حديثه:

- أنا مايكل ماكينتوش، لكم يسعدني أن أتعرف إليك.
ضحك ميك، وكذلك فيدا. شعر فيدا بالحماقة والطفولية لأنه يعرف أنه لم يضحك إلا ليجرح إحساسها. أما ميك فضحك لأنه كان مخمورًا، أو منتشيًا، أو للسببين، وأي شيء في هذا الوقت يكون إما محزنًا للغاية، أو مضحكًا للغاية.
- يدعوني أصدقائي ميك.
- ميك؟ ليس مايك؟
- لا. شهرتي (ميك ذا تيك «القرادة»)، واختصارًا ميك.
- تتحدث بلكنة.
- أصلي من الولايات المتحدة الأمريكية. أتيت إلى هنا كمرتزق.. جندي يبحث عن المال. ومنذ ذلك الحين والدولة غير قادرة على التخلص مني. فأنا، بلا شك، ذا تيك (القرادة).
ضحك ميك ملء فيِّه على مزحته.
- يناديني أصدقائي جيني.
- فما هي قصتك إذن؟
- تقول إنها هنا لتنقذني.
قال هذا فيدا ولم يزل مغمض العينين.
علت ملامح الجدية وجه ميك فجأة، وقال:
- لم أكن أدري أنك في حاجة إلى الإنقاذ.
- ولا أنا.
- أنت الراهب، أفليس من المفترض أن تتولى أنت مسألة الإنقاذ؟
هكذا واصل ميك حديثه، دون أن تفارق وجهه أمارات الجدية.
هز فيدا كتفيه.
- وكيف تنوين أن تنقذيه؟
- لست متأكدة تمامًا بعد.
ضحك فيدا ساخرًا، وقال:
- يا لكِ من منقذة!
نام ميك إلى جواره وبدأ يصدر شخيرًا. شعر فيدا أن الشمس آخذة في الغروب خلف برج الساعة في قاعة المدينة. غربت الشمس، وبدأ جدار المرحاض العمومي الذي يسند فيدا إليه ظهره يبرد شيئًا فشيئًا. دقت الساعة ست مرات. أمست المدينة أكثر هدوءًا مع انحسار صخب ساعة الذروة. هذا هو ثاني أحبّ أوقات اليوم إلى فيدا.. بعد استيقاظ المدينة صباحًا على رائحة الخبز الساخن.
نهض فيدا فجأة، وبسرعة كبيرة. شعر بالدوار، ورأى النجوم التي يراها الدائخ. كان عليه أن يستند إلى الجدار لدقيقة، مما منح جيني متسعًا من

الوقت لتنهض هي الأخرى. كاد ينسى وجودها. خطا أول خطوة، ولما يزل يشعر بالدوار، فاضطر إلى أن يستند إلى الجدار ثانية، وهو يطرد عن رأسه فكرة أنه كاد ينسى وجودها، فقد أَلِفَه بالفعل.

- أنا ذاهب إلى سكوبي لأتناول مشروب الغروب.

قال هذا متظاهرًا بأنه يحدِّث ميك، الذي لم يزل يشخر بصوت عالٍ.

مضى دون أن ينظر إليها.

وبالطبع، تبعته.

استدار فجأة، فاصطدمت به. اللمس!

فقال، وهو يواصل السير:

- عودي إلى منزلك يا جيني.

تقدمت خطوة نحوه. يا لها من فتاة عنيدة!

كان –في بدء الأمر– يحسب أن الشمس هي ما غشيت عينيه، ولكنه رأى الآن أنه مخطئ، فالفتاة مشرقة، كأن ضوءًا بداخلها، يجعلها مشعة.

ارتد على عقبيه بضع خطوات، وقال:

- لا أعرف فيما تفكرين، ولا ما الذي تخططينه، لكنه على الأرجح فكرة غير صائبة. هلّا تعودين إلى المنزل. لا شك أن أولياء أمرك قلقون عليكِ.

شعر على الفور بالندم على قول تلك الكلمة. كان عليه أن يقول «والديك»، فكلمة «ولي الأمر» توحي بأنه على دراية ببعض شؤونها، بعض أخص تفاصيل حياتها. استدار وعاد للسير مرة أخرى. يعرف أنها تسير وراءه، ويشعر بقربها منه. فجأة طرأ له خاطر جعله يلتفت إليها. لم تصطدم به هذه المرة –سريعة التعلم.

- هل حدث شيء غريب في المنزل؟

عبست، ونظرت إلى الأرض.

قلقًا أمسك بذراعها. اللمس! ترك ذراعها. حشر يديه في جيبيه، وكرر سؤاله:

- هل حدث شيء غريب في المنزل.

رفعت عينيها نحوه سريعًا، مرتبكةً، وقالت:

- غريب على أي نحو؟

- هل حدث شيء لا يعجبك؟

- مثل ماذا؟

أجرى يدًا مرتعشة في شعره، وتجنب النظر في عينيها، وقال: - هل لمسكِ أحد على نحو لم تكوني مرتاحة إليه.

كانت الكلمات تتسارع من فمه.

- لا.

شعر براحة كبيرة، وقال لها:

- عليكِ أن تعودي إلى المنزل.
- لم يعد منزلي.
- هل طردوكِ؟
- لا.
- فماذا إذن؟
- كما قلت لك من قبل، جئت لأنقذك. فقد حان الوقت.
- حسنًا، أنا ذاهب إلى حانة سكوبي. يمكنك أن تنقذيني بعد ذلك إذا أحببت.
قالها مستسلمًا، ومضى إلى الحانة، وهي في إثره.
كانت ترتعش، وربما كان بالهواء قرصة من برد لم يكن يشعر بها، وهذه إحدى مميزات العيش في الشوارع، حصانة ومناعة ضد أشياء كثيرة.
أشار إلى حقيبتها، وقال:
- أليس معكِ هنا معطف أو سترة؟
فقالت، وكأنها تقول كلامًا منطقيًا:
- لم تعد الملابس هنا على مقاسي.
لِمَ تحمل حقيبة مليئة بثياب لم تعد على مقاسها؟ لا بد أن بهذه الفتاة شيئًا على غير ما يرام. خلع معطفه العسكري المموه البالي، وهو يدرك تمامًا أنه يعبق برائحة الدخان والجعة، برائحة الشارع ورائحته، وأعطاه لها. نوى أن يقضي بعض الوقت في حانة سكوبي. قد يصير الهواء قارص البرودة في الليل، هكذا خمن.
- لا يمكنكِ أن تدخلي، لا يُسمح بدخول من هم تحت الحادي والعشرين. إن قررتِ أن تذهبي إلى المنزل، فاتركي المعطف عند الباب.
ارتشف زجاجتين من الجعة على مدار ساعتين. وعندما خرج، لم تكن جالسة خارج الحانة كما حسب، أو بالأحرى، كما كان يخشى. وبدلًا من أن يشعر بالارتياح لعدم وجودها هناك، شعر بالذعر. لكن هذا الشعور لم يدم إلا للحظة، فقد رأى حقيبتها على بعد بضعة أمتار من المدخل، تلمع تحت ضوء أحد مصابيح الشارع. مسح المنطقة بعينيه مسحًا سريعًا، ليجدها تستند إلى نافذة إحدى السيارات، سيارة بولسار خضراء فاتحة، في الجهة الأخرى من الشارع، ولم تزل تحمل الدميتين. ربما، دون أن تعرف، كانت هدفًا لخيال منحرف مريض. ربما أيضًا كانت تطلب توصيلة، وكان السيد النبيل بداخل السيارة يريد أن يسديها معروفًا، هكذا حاول فيدا أن يقنع نفسه، وهو يعبر الشارع عدوًا. لكنه عاش بالشارع زمنًا يكفي لئلا ينتظر منه خيرًا. لم يطل التفكير، وأزاحها بعيدًا عن النافذة، ومد يده فأمسك برقبة السائق، وكال له قليلًا من اللكمات قبل أن يستوعب السائق الموقف، ويدير سيارته، ليفر هاربًا.
- كان يسأل عن الطريق فحسب.

- لا يسأل أحد عن الطريق في الثامنة والنصف مساء.
قال هذا، وهو يجرها عبر الشارع، عائدًا. اللمس! لم يمانع، ظل ممسكًا بها.
- كونك بالسذاجة التي تجعلك تصدقين أنه يسأل عن الطريق دليل كافٍ على أنك في حاجة إلى العودة إلى المنزل.
رفع حقيبتها، وأعطاها لها.
- اذهبي إلى المنزل قبل أن تري أشياء لا يفترض بك أن تريها.
جرّب استعمال بعض الرفق، فربت ذراعها بلطف، وقال: - أرجوك.
ابتسم ابتسامة خفيفة، ولكنها تظل ابتسامة على كل حال.
- ليست هذه الشوارع كما تبدو في النهار، لا يمكنك أن تبقَي هنا، ليس هذا مكانًا لك، أرجوكِ اذهبي إلى المنزل.
فردت، وهي تبتسم بدورها:
- أنا في المنزل بالفعل.
أعانت رائحة الخبز الدافئ فيدا على الصحو من نومه، ففتح عينيه لينظر إلى آخر إضافة إلى مجتمع ساكني الشارع –طفلة شوارع اسمها إيموجين زولا نيوني، جيني.
كانت تغط في نوم عميق هانئ بالنسبة لشخص ينام في مكان غريب، إلى جانب شخص غريب. عندما نظر فيدا إليها، لم يخطر بباله إلا كلمة واحدة - المسؤولية. شعر فيدا بالاضطراب في معدته مرة أخرى، وأدرك الأمر على حقيقته: إنه الخوف. لم يرد أن يكون مسؤولًا لأن المسؤولية لا تعني إلا شيئًا واحدًا لا شك فيه، وهو أنه سيخيِّب ظن كل من يعتمد عليه. شعر بتوتر جسده يزداد، وشعر بيديه تنقبضان، وبشفتيه تنغلقان بعزم. كانت المقاومة تتصاعد.
الشارع يغير كل الناس، ولا يغيرهم للأفضل أبدًا. ما أشد بؤسَه إذا كان هو المسؤول عن تحولها إلى كائن متصلب، قاسٍ، بارد، وأناني!
- أرجوكِ أن تذهبي إلى المنزل.
هكذا قال البارحة، محاولًا أن يقنعها بكل سبيل ممكن.
- أنا في المنزل بالفعل.
هكذا ردت بكل بساطة، ويبدو أنها كانت أكثر منه إقناعًا، والدليل أنها هنا بالفعل.
المنزل.. قلب المدينة.
فتحت جيني عينيها فجأة، كأنها لم تكن نائمة بالمرة، ووجدت فيدا ينظر إليها.
جعلته الطريقة التي نظرت بها إليه يشعر بالضيق في البيئة التي اعتاد أن يشعر فيها بالارتياح. بدا أنها تراه، وأنها تعرفه على حقيقته. تذكر النظرة التي نظر بها أبوها، جولايد جوميدي، في حقل العشب، نظرةَ من يعرف كل شيء،

من يرى كل شيء. لم يرغب فيدا في أن يراه أحد.. لم يرغب في أن يعرفه أحد.

نهض فيدا من نومه. عليه أن يضع مسافة بينهما. أحس أن حياتيهما قد تشابكتا بالفعل، وأن عليه أن يخلص نفسه في الحال قبل فوات الأوان. التقت أعينهما، وطالت النظرة. الإيمان.. كان هذا هو ما يشع من عينيها. لقد آمنت أنه قادر على القيام بأمور مستحيلة. سار مبتعدًا عنها، ولكن الأوان كان قد فات بالفعل. تشابكت حياتاهما، وتداخلتا.

في البداية، بدوَا كزوجين متناقضين - هو ببشرته الشاحبة وملابسه العسكرية، وهي ببشرتها السمراء وملابسها الملونة. كان هادئًا ويميل للعزلة والتأمل، وكانت دومًا توشك على الضحك، ولا تفارق الابتسامة شفتيها. هو يترك الدنيا تمر أمامه دون أن يعيرها انتباهًا، وهي دائمًا ما تجد طريقة أو أخرى لإقحام نفسها فيها. ولكن لم يمر وقت طويل حتى تحول التناقض إلى تناغم، وأصبحا كما لو أنهما كانا يسيران في الحياة معًا طيلة الوقت.

رغم أن فيدا كان له حضور كبير، فإنه كانت لديه حياة بالغة الخصوصية، وقليل من الأسرار، وقد كان هذا إنجازًا لا يُستهان به، فقد كان الشغل الشاغل للجميع هو معرفة أسرار الآخر. ورغم أنه يعيش فيما يفترض أنه مدينة، فإنها كانت في واقع الأمر كبلدة صغيرة. فقبل أن تنتهي من تفكيرك في أمر ما، تجده قد طاف أرجاء المدينة. فلا تقول شيئًا إلا ويعود إليك، مشوَّهًا، ولا تفعل شيئًا، إلا ويشرحه الناس، ويزِنونه، ويصدرون أحكامهم عليه.

ولأن الخصوصية والأسرار بضاعة بالغة الندرة، فقد كان فيدا يقدِّرها أيما تقدير. يراه الناس في الشارع ويحسبون أنه لا يفعل في حياته سوى أن يأكل الخبز الساخن الطازج من مخبز داونينجز، ويتشمس في (سيتي هول)، ويحتسي الجعة عند الغروب في حانة سكوبي. وعندما يرونه يجمع الأغراض المعدنية عبر أنحاء المدينة، وهو أكثر ما يقضي وقته في عمله، يحسبون أنه لا يفعل إلا ما يفعله سائر المتشردين، ومن لا مأوى لهم، والضالون، من جمع الأشياء لمجرد الجمع، بلا أي هدف. لكم أعجبه ألا يرتاب أحد في شيء عند رؤيته دافعًا أمامه عربته السكانيا محملةً بخردة المعادن! التي حاول بلا جدوى أن يخفيها عن أنظارهم بوضع اللحاف الذي صنعته أمه أعلاها.

كان سر فيدا الأكبر أنه لم يكن يجمع المعادن لمجرد أن يؤلف منها تشكيلة ما. وبما أن جيني قد دخلت إلى حياته، فلم يعد لديه شك كبير في أن سره يوشك أن يخرج إلى النور. ولأنها دومًا إلى جواره، وبما أنها تحب إقحام نفسها في كل ما حولها، لم يكن لدى فيدا خيار سوى أن يشركها معه في جمع المعادن. عرف أنه ستحين لحظة تسأله فيه عما يفعل بهذه الخردة، وخشيَ هذه اللحظة، لأنه عرف أن لن يكون أمامه إلا أن يخبرها بالحقيقة.

أثبتت جيني مدى جدواها له في عمله، فقد كان لديها عين تسعى خلف الملون، والفريد، والثمين. كانت ترى الجمال في الأشياء التي قد يتجاهلها، أو يتخلص منها. مشّطا الطرقات معًا، من البلدات الصغيرة على أطراف المدينة، إلى مركز المدينة، إلى المواقع الصناعية، والضواحي. كان يقود، وكانت تتبعه. لكنْ لم يدم الحال طويلًا على هذا النحو، فسرعان ما أصبحت تسير إلى جواره، حتى في أضيق الأزقة. سارت إلى جواره، وأثبتت وجودها. بل إنها في بعض الأوقات تتقدمه نحو شيء يبرق على بعد، فتصل إليه، وتحمله بحزم في كلتا يديها، وتريه له، فيكون مآله إلى مكانه في عربته السكانيا.

لم تسأله جيني قط عما يفعل بتلك الخردة.

من الواضح أن بإمكانه أن يُبقي سره طي الكتمان، لو أراد ذلك.

أدهشته السهولة والعفوية التي تشارك بها سره مع جيني، وأفضى إليها بما يقوم به في حياته الخاصة، تلك الحياة التي لم يكن أحد ليعرف ما يجري فيها بمجرد النظر إليه.

كان سره هو أن لديه مستودعًا خاصًا به خلف مرأب دي فيلييه وميندلسون. كان يضع في المستودع ماكينة لحام ويعيد تشكيل الخردة، ليبدع منها تماثيل نابضة بالحياة لهؤلاء الأشخاص الذين يشكلون حياته في الشارع. فكان هناك تمثال لميك وهو يضحك تحت الشمس الساطعة، وتمثال لشادراك وهو يعزف على جيتاره. كما كان هناك تمثال طويل لجوزيف بيريرا، يقف فيه شامخًا فخورًا، وآخر لديفيد وجولايث وهما يتصارعان صراع حياة أو موت. كما صور «السيدات الملونات» وهن يتبخترن ويتمايلن، و(ذا سيرفايفرز) بكل مجدهم الشائن. كانت هناك تماثيل لكل رفاقه من سكان الشارع، وكلٌّ وما يفعل.

لقد كان يجمع الخردة ويلحمها لسنوات وسنوات دون كلل، يقوم بعمل يمثل حبًّا حقيقيًّا. كان ينظر إلى اللحام على أنه الشيء الذي يحفظ عليه صِدقه ونزاهته. أحب تشكيل المعادن، وبناء الهياكل، وإعادة خلق الحياة. أحب دقة هذا العمل، وأحب العناية التي يتطلبها، والوقت الذي يقضيه فيه. جعله حبه لما يفعل يظل رجلًا صادقًا مع نفسه. كان يفعل هذا ليبني لنفسه مكانًا في هذا العالم، وليعطي معنى لحياته. كان رجلًا بإمكانه أن يثني المعادن كيفما شاء، ويشكّلها وفقًا لما يرى، وكان هذا كافيًا بالنسبة له.

رأى جيني تنظر إلى الأشياء التي صنعها برهبة وذهول، رآها ترفع يدها إلى فمها تخفي آهة اندهاش وتعجب أفلتت بالفعل، رآها تمد اليد الأخرى فتضعها برفق على كتفه، رآها تنظر إلى ما أبدعت يداه نظرة من يرى جمالًا محضًا، ودون أن تفارق عيناها الرائعتان تماثيله تهمس في أذنيه: - كنت أعرف. كنت أعرف أنك مميز. لم أشك بهذا.

حينها، وحينها فقط، أدرك أن ما أبدعته يداه قد تسري فيه الحياة حقًّا، حياة تتخطى حياته.

في صغره، أخبروه أن لديه موهبة فنان، وتعايش مع إمكانية أن يصبح فنانًا في يوم من الأيام. ولكن عندما كبر كانت البلاد تترنح بفعل الحرب، ولم يكن هناك مكان حينئذ للفن، وهو –وقد دمرته الحرب– رأى الفن أثمن من أن يخرج من يد كيَدِه. جعلته نظرة عيني جيني يعرف أنه ربما كان مخطئًا، وأن شيئًا نفيسًا، شيئًا جميلًا يسر الناظرين، قد تبدعه هاتان اليدان التي لم يحسن الظن بهما. حينها، شعر أن جيني جاءت إلى حياته من أجل هذا الغرض تحديدًا –أن تجعله يعرف حقيقة نفسه.

ذات يوم، وهما يجمعان المعادن، جرحت جيني فخذها جرحًا بليغًا، وتدفق الدم من فخذها بغزارة. أسرع ليسعفها، ولكنها أخبرته ألا يقترب، حتى إنها لم تقبل يده التي مدها إليها يعينها على الوقوف. علم حينها أنه في موضع الاختبار. كانت هذه هي لحظة الحقيقة، لحظة المكاشفة. نهضت بنفسها، ونظرت في عينيه، وراحت –دون مقدمات– تخبره بشأن أزهار عباد الشمس، والسوجا، والمنقذين، والأسرار. قصت عليه حياتها، ثم انتظرت رده.

- إذن، فلم أنقذك بالمرة.

هكذا قال دون أن يفكر، وأدرك –بعد فوات الأوان– أن قوله لم يكن هو ما يجدر به أن يقال. شعر بها تنزوي إلى نفسها. فجأةً ارتاع لخاطر فقدانها، وعلم أن عليه أن يتابع حديثه بحرص أكبر. كان يعرف ما الذي تنتظره منه. وكان يعرف أنه شيء بإمكانه أن يمنحها إياه. سمع صوت أبيه وهو يقول: - هناك طرق عديدة لتكون رجلًا، لا تنسَ هذا أبدًا.

عرف أن أباه، بنطقه هذه الكلمات، كان يعده للحظة كهذه تمامًا. خرجت هذه الكلمات من فم أبيه عندما كان فيدا في أمسّ الحاجة إلى من يفهمه ويقبل به كما هو. وهذه لحظة في حياة جيني تحتاج فيها إلى من يفهمها ويقبل بها كما هي.

عندما كان فيدا في الثالثة عشرة من عمره، وبينما يسير في طرقات ثورنجروف بمفرده لأول مرة في حياته، كان يشعر بأنه أحد المغامرين، حتى جاءت مجموعة من الصبيان يعرفهم طيلة حياته، مجموعة كان يعدُّهم أصدقاءه، وتبِعوه وراحوا ينعتونه بالجبان، وكانوا يصيحون به بصوتٍ عالٍ، ليسمع الجميع. الآن يدرك أنهم كالنسور، كانوا يتحيّنون اللحظة المناسبة، اللحظة التي يكون فيها بمفرده، ضعيفًا.

سار بخطوات منتظمة. شعر بالفخر لأنه لم يجرِ، ولم يبكِ. ظل رابط الجأش حتى رأى حزام الكركديه المزروع بعناية حول منزله، وهنا بدأت قواه في التداعي. مرَّ حجرٌ يئزُّ بجوار أذنه. وصاح أحد الأولاد «جبان!» للمرة الأخيرة، قبل أن يهرولوا جميعًا عائدين أدراجهم، وهم يضحكون، ويسخرون، فخورين بأنفسهم أيّما فخر.

كاد الخجل يقتله إذ فتح البوابة ليرى أباه، إيزيكيل دي فيلييه، جالسًا في شرفة الدور الأرضي، مرتديًا ثوب العمل، وفي يده زجاجة جعة، وإلى جواره، كما هو الحال دائمًا، صندوق أدواته الأحمر. ففي كل يوم أحد، يوم إجازته من العمل في مرأب بيترز بانيل، يفكك أبوه المحركات الموجودة في ساحة منزلهم الأمامية، ويعيد تركيبها. وقف فيدا على مسافة من أبيه، وأخذ يزمُّ عينيه، يطرد عنهما الدموع. لم يمسحها، ولكنه وقف في سكون وانتظر أن يجففها الهواء قبل أن يتقدم نحو أبيه. كان يرجو، عبثًا، ألا يكون أبوه قد سمع ما ناداه به الأولاد. بدأ مؤخرًا يدرك أن علاقته بأبيه آخذة في التغير، وأن أباه الآن يعلق عليه كثيرًا من الآمال. لم يدْرِ ما هي تلك الآمال تحديدًا، ولكنها ثقلت على نفسه. شعر أنه سيخيِّب آمال أبيه بطريقة أو بأخرى.

نظر إليه أبوه وهو واقف ينتظر أن تجف دموعه. لم يتفوه إيزيكيل بكلمة، وإنما أخذ جرعة كبيرة من الجعة، دون أن تُبين ملامحه عن شيء، ثم نهض وترك الشرفة ودلف إلى المنزل. انتهز فيدا الفرصة ومسح آثار الدموع عن عينيه، ثم وقف في مكانه لا يدري ما يصنع. عاد أبوه، ووقف بجوار الباب الأمامي وفتح زجاجة من الجعة مستخدمًا في ذلك إطار الباب. عاد للجلوس على عتبة الشرفة، ومد يده بالزجاجة إلى فيدا. زفر فيدا ارتياحًا، ولم يدرك إلا حينها أنه كان يحبس أنفاسه، ثم مضى ليجلس إلى جوار أبيه. احتسيا الجعة في صمت، وصندوق الأدوات الأحمر بينهما.

وأخيرًا تكلم أبوه.

- يمكنك أن تبكي إن شئت، فأنا أبوك، ولن يغير أي شيء تفعله من هذا، ولا من حبي لك.

حاول فيدا أن يتحلى بالقوة والصلابة، لكن دموعه انسالت رغمًا عنه.

لم يطوقه أبوه بذراعه، ليواسيه. كل ما فعله هو أن خلع قبعته التي لا يذكر فيدا أنه رآه يومًا دونها، ووضعها على رأس فيدا. ثم فتح صندوق أدواته الأحمر الأزلي. كان بالصندوق أدوات كثيرة بدت امتدادًا لأبيه ذاته. كان به أيضًا زوجان من القفازات: زوج كبير وبالٍ، وزوج آخر أصغر، جديد تمامًا. ناوله أبوه الزوج الثاني، وقال: - هناك طرق كثيرة ليكون المرء رجلًا، لا تنسَ هذا أبدًا.

شعر فيدا بصدره ينتفخ، يمتلئُ حبًّا، وفخرًا، وامتنانًا. إن كونه ابنًا لإيزيكيل دي فيلييه لشيء رائع حقًّا.

نهض أبوه، وقال:

- هيا بنا إلى العمل!

تبعه فيدا، وكانت هذه هي اللحظة التي عرّفه أبوه فيها بأشيائه الحبيبة: مفتاح براغي، وسقاطة، ومقبس، ومفك براغي، وزرديّة. ويدًا بيد، فككا أحد المحركات وأعادا تركيبها. وعندما انتهى اليوم، عرف كلاهما أنهما أمضيا يومهما على أتم وجه.

الآن، وهو ينظر إلى الفتاة التي قصت عليه قصتها للتو، قصتها عن أزهار عباد الشمس، والسوجا، والمنقذين، والأسرار، أدرك أن كلمات أبيه لم تكن هي وحدها المهمة، وإنما كلماته وأفعاله. لقد أراه أبوه –بالكلمة والفعل– أنه يقبل به على النحو الذي هو عليه، أيًّا كان.

على فيدا الآن أن يجد الشيء الذي عليه أن يقوله، والشيء الذي عليه أن يفعله، ليكون الرجل المناسب لهذه اللحظة. فمد يديه، ومسح الدموع عن عيني جيني. اللمس! لم تمانع جيني. أخبرها بقصته: الطفولة السحرية الجميلة، وموت أبويه المأسويّ، الفتى الذي أحبَّه وفقده، والفتاة التي أحبَّها ولم يفقدها.. تمامًا، الحرب التي حاربها، المعارك التي لم تزل تعتمل في روحه، الغضب، والغضب، مقابلته لأبيها في حقل أعشاب الفيل، وذلك الشعور الذي أحسَّ به قبل لقائه، تلك البشارة. قال كل ما عنده، يصبه صبًّا، حتى فرغت كأسه منه. فوقفا في مكانهما لا يحول بينهما شيء. لم يعد هناك أسرار. مدت جيني يدها إليه، ومسحت دموعه. اللمس! عرف كل منهما صاحبه معرفة حقيقية، ولم يعد هناك ما يخفيه، ولم يكن هناك من خيار إلا أن يقبل أحدهما الآخر على ما هو عليه. إنه التحرر.

المنشأ

وأخيرًا، أخذ فيدا جيني إلى (المنزل الذي بناه جاك).

والمنزل بناه جاك بنفسه في مطلع القرن العشرين، جاكوب دي فيلييه، جد فيدا الأكبر، الأفريقان غريب الأطوار. وتماشيًا مع شخصية جاكوب، تم بناء المنزل ذي الطابقين على منحدر تل، حيث تجتمع الطبيعة والثقافة لإنشاء هيكل غير متناسق، ولكنه بناء مذهل على كل حال. عمّرت فيكتوريا، زوجة جاكوب الإنجليزية –تمامًا– ما يكفي لزراعة حديقة إنجليزية، حديقة ستكون ذات يوم مصدر فخر للبلاد، قبل أن تقضي عليها، كحال معظم الزوجات الإنجليزيات، بعضُ الأمراض الاستوائية المحضة.

كان جد فيدا، فريدريك دي فيلييه، ابن جاكوب من خادمته بلو، قد وُلد في المنزل، ولكنه لم يستطع أن يعيش فيه إلا كخادم، بفعل قوانين تقسيم الأرض في ذلك الوقت. وكحال أبيه من قبله، حُرِم أبو فيدا، إيزيكيل دي فيلييه، بالقانون، من الإقامة في المنزل إلا كخادم، أيضًا. لكن، وعلى خلاف أبيه، لم يكن لديه من رغبة في الإقامة في المنزل، فغادره وهو في الثالثة عشرة من عمره، ثم لم يعد إليه قَطّ. وفي عام 1980، وهو في الثامنة عشرة من العمر، عاد فيدا من الحرب ليجد أن جده الأكبر قد أوصى له بالمنزل. لا شك أن فيدا لم يفعل ما يُكسِبه المنزل، ولكن فجأة أصبح المنزل الذي بناه جاك ملكًا له. كان إرثًا شعر فيدا بثِقَلِه عليه، وكان حقًّا إرثًا ثقيلًا.

في كثير من الأوقات، في حانة سكوبي، كان فيدا –قليل الكلام– يُسمع وهو يسُبُّ جده الأكبر.. وجده.. وأباه، الذين ورَّثَ كلٌّ منهم مشكلة ما لفيدا – هذا المستأنث الطيب، ليحمل ثقل اسم العائلة، وثقل إرثها. وكلما سمع الساقي كلمة «مشكلة» تخرج من بين شفتي فيدا، عرف أن عليه أن يسأله الرحيل. وغالبًا ما تمنى فيدا، في صحوه، أن يكون له بعض من حب جده للمنزل، أو بعض من نفور أبيه منه، ليستطيع أن يتخذ قرارًا بشأنه. لكنه لا أحبَّه، ولا نفر منه. شعر أنه لو باع المنزل فسيخيِّب أمل جده. كما شعر أنه لو عاش به، فسيخيِّب أمل أبيه. أيًّا كان قراره، فلا شك أن أحدهما سيتقلب في قبره خائبَ الأمل. فقرر فيدا ألا يعيش في المنزل.. وألا يبيعه. كان هذا القرار حلًّا مرضيًا، إلى أن جاءت جيني وقررت أن تطلعه على حقيقة قصتها.

فتح فيدا وجيني –معًا– باب المنزل العتيق، المصنوع من خشب الساج، فصرّ وهو ينفتح صريرًا غليظًا كأنه مصاب بالربو، كاشفًا عما يشبه قبوًا علاه الغبار. كان كل شيء في (المنزل الذي بناه جاك) من حقبة غابرة – قديمًا، باليًا، صدئًا، نال منه الدهر كل منال. كما بدا أن لكل شيء حكايته: مجموعة الرماح في علبة العرض في الغرفة المشمسة، ورؤوس الحيوانات الغاضبة المحنطة

في غرفة التذكارات، وأثاث فيكتوريان روز العتيق في غرفة الجلوس، والشمعدانات الكريستالية في غرفة الحفلات، وطاولة غرفة الطعام الفخمة والكئيبة في ذات الوقت، والمصنوعة من البلوط، بكراسيها العشرين المتماثلة، وموقد (ويلكوم دوفر) المهيب في المطبخ.

رغم أن فيدا وجيني شعرا في البداية بالارتباك، وبشيء من الخوف، مما رأياه أمامهما، خاصة في غرفة التذكارات، فإنهما وجدا طريقة للتعايش مع المنزل. المنزل به ما لا يُحصى من الغرف، فليختر كل منهما ما شاء. اختارت جيني الغرفة التي تسطع بها الشمس أغلب الوقت، ووضعت حقيبتها على الفراش، وفتحتها، واستخرجت منها بينيلوب وسبيكس بكل رفق، ووضعتهما على الوسائد، كأنها تقول «هذه غرفتي». لم تنزعج لكون الشريط الذي يغطي السرير رباعي الأعمدة مصفرًّا أكلته العثّة، ولا لأن الأرضية الخشبية مائلة بعض الشيء؛ كل ما أهمهما أنها الغرفة التي تسطع بها الشمس أغلب الوقت. أما فيدا، فاختار الغرفة الواقعة في الطرف الأقصى من الردهة، فقط لأنها آخر غرفة في الردهة، مما سيسمح له ولجيني أن يتعايشا بخصوصية.

لحسن الحظ، فبعد وفاة جاكوب دي فيلييه في 1975، نجح أعضاء الجمعية الأثرية وأعضاء (فيكتورياز أون) -وهو فرع خاص من قسم معونة النساء بجمعية المستوطنين، متخصص في الإشراف على الحدائق الإنجليزية في المدينة– في إقناع مجلس المدينة بإعلان المنزل الذي بناه جاك وحديقة فيكتوريا - كنزين أثريين. وكان من ثمرة هذا أن حظي المنزل والحديقة برعايةٍ طيبة من قِبل مدبرة منزل مخلصة، ماتيلدا، وبستاني، ستيفانوس، عيَّنهما مجلس المدينة لهذا الغرض. أصبح المنزل، والحديقة، قبلة للسياحة الداخلية والخارجية، وذاع صيتهما بين من يحبون إحياء نسخ رومانسية من الماضي الاستعماري بتناول شاي الرابعة عصرًا في حديقة فيكتوريا، وعشاءات الأصناف السبع في غرفة الطعام الفخمة، والتقاط الصور في غرفة التذكارات، أو قضاء الليل رقصًا في غرفة الحفلات، يقوم على أمرهم في كل هذا خدم سود البشرة، يرتدون ثيابًا رسمية، ولا تفارق شفاههم أجمل الابتسامات. وكانت عائدات هذه الحفلات تذهب، بالتساوي، إلى أربع جهات: قسم معونة النساء بجمعية المستوطنين، والجمعية الأثرية، ومجلس المدينة، وصندوق باسم عائلة دي فيلييه.

ولكن في 1995، قام (الرجل ذاته)، وهو من تناول العشاء مرةً، أو مرتين في غرفة الطعام المهيبة، بلْ إنه ليُعلّقُ على جدار مكتبه صورةً له يقف فيها وقفة الفاتحين، وقد عَلَتْ إحدى قدميه هامةَ أسد من أسود حجرة انتصارات جاكوب دي فيلييه –قام في تلك السنة بالإنكار على مجلس المدينة لتعاونه مع جمعية النساء المساعدات، التابعة لجمعية المستوطنين، والجمعية الأثرية، في صيانة (المنزل الذي بناه جاك) وحديقة فيكتوريا؛ قائلًا إن هذه الكيانات تفوح منها

رائحةُ الاستعماريةِ، فأوكِلَتْ صيانة العقارَيْن إلى الجمعيتيْن، لا يعينهما عليها أحد، وذلك في وقتٍ كانت فيه عضوية الجمعيتين، كلتيهما، آخذة في التآكل: إمّا لموت عضو، وإما لنفيه، بدار من دور العجائز، وإما بإعادته إلى بريطانيا، ممّا جعل الجمعيتين عاجزتين عن صيانة المنزل والحديقة، وشاء حسن الحظ أن يقرر ماتيلدا وستيفانوس المكوث في المنزل.. إلا أنهما لن يتقاضيا بِنْسًا، فكان أن أحسنا.. بقدر ما استطاعا.

ولذلك فعندما وصل فيدا وجيني إلى المنزل، كان أمامهما عمل كثير، ولأن المنزل لم يرَ نشاطًا اجتماعيًّا لعامين كاملين فقد كان في حاجة إلى عملية تنظيف كبيرة، وشاملة. انهمكا في العمل وأسعدهما أن ينشغلا به. وعندما لم يكونا ينظفان المنزل، بمساعدة ماتيلدا، أو يحاولان إصلاح الحديقة، بمساعدة ستيفانوس، كانا يخرجان لجمع الخردة، أو يذهبان إلى الورشة خلف المرأب، حيث تقوم جيني بمساعدة فيدا وهو يثني المعادن ويشكلها. ومتى حل الليل ارتمى كل على فراشه، مرهقًا، سعيدًا.

وبعملهما الجاد، لم يكن بوسع المنزل إلا أن يتحول من مجرد حجارة إلى بيت يشع دفئًا. تحول أحد الكراسي من مجرد كرسي متواضع فيما سبق إلى كرسي جيني المفضل؛ إذ أعجبها كيف أن بإمكانها أن تطوي نفسها فيه، كما راح فيدا يقتطع بعض وقته كل يوم لمشاهدة غروب الشمس وسط سكون حديقة فيكتوريا، وأصبح موقد (ويلكوم دوفر) مكانًا تحرق فيه جيني حلوى الكاسترد حرقًا خفيفًا لتكسبها طعمًا أفضل، وأصبح من المستحيل أن ينام فيدا دون أن يستمع إلى تشكيلة جده المتواضعة من التسجيلات على الجراموفون.

وبينما ترك جد فيدا الأكبر، جاكوب دي فيلييه، خلفه وفرةً من الأغراض، لم يترك جده، فريدريك دي فيلييه، سوى ثلاث أسطوانات من الموسيقى الكلاسيكية، ونسخة بالية من إنجيل الملك جيمس، وبطانية رقيقة، مطوية على نحو أنيق، وقبعة سوداء مستديرة، وحُلّة قديمة، وتشكيلة من أصداف البحر، وُضعت بعناية في علبة صدئة من القصدير. اكتشف فيدا متعلقات جده بالصدفة عندما فتح، عنوةً، بابًا منتفخًا كان يحسبه يفضي إلى غرفة يضع بها بعض الأدوات القديمة، ليجد أنه المكان الذي كان جده يقضي فيه معظم أوقاته – مسكن الخدم.

تذكر فيدا جده، الذي كان يزورهم كثيرًا في ثورنجروف، كرجلٍ معتد بنفسه، دائمًا ما يرتدي حلة وقبعة سوداء مستديرة، ويجلس معتدلًا، واضعًا يديه الخشنتين من أثر العمل بحزم على ركبتيه. لكن فيدا لم يستطع التوفيق بين ذكرياته عن هذا الرجل المعتد بنفسه وبين ما وجده في غرفة الخدم. لا شك أن لحياة جده أبعادًا غير تلك التي خلّفها وراءه. شغل فيدا نفسه بحثًا في (المنزل الذي بناه جاك) عن مزيد من الأغراض التي قد تخص جده، وعندما لم يكن يجد شيئًا، كان الحزن يستولي عليه، حتى يبكي. كان كثيرًا ما يقضي بعض

الوقت في صحبة ما تركه جده من متعلقات، ويعاملها أحيانًا كما لو كانت مفاتيح ستكشف بعض الحقيقة عن جده، وأحيانًا كنقاط على خريطة تفضي به إلى فهم حياته، وأحيانًا كقطع من أحجية متى استطاع وضع كل واحدة في مكانها الصحيح كشف جده عن حقيقته. ومهما كان النحو الذي تعامل به مع تلك المتعلقات، فإنها لم تعنه على قراءة حياة جده أو الأنس به.

وفي حين كان فيدا مشغولًا بجدِّه، اعترى جيني الفضولُ بشأن الأم الحقيقية لعشيرة دي فيلييه -بلو– خادمة جاكوب من الكويسان.. أو من الهنتوت، كما كانوا يقولون في ذلك الزمن. قطعًا لم يكن لها من أثر في المنزل. لم يكن هناك سبيل لمعرفة كيف كانت تبدو، ولا أين كانت تعيش قبل مجيئها إلى المنزل، ولا ما كانت تحب أو تكره. لم تترك (بلو) خلفها سوى الأسئلة: كيف التقاها جاكوب؟ كم عاشت في المنزل؟ كيف كان شعورها حيال ظروفها؟ كيف كان جاكوب يعاملها؟ هل كانت تحب ابنها، فريدريك؟ هل كانت تحب نفسها؟ هل كان الحب يعنيها ابتداءً، أم أنها أسلمت نفسها بالكلية لشيء مختلف تمامًا؟ هل كان خيارها أن تحيا حياةً قد تنتهي، وقد انتهت حقًّا، بلا أثر؟ ما اسمها الأصلي –الاسم الذي كانت تُدعى به في صغرها، الاسم الذي حملته طويلًا قبل أن تلتقي جاكوب؟ كانت جيني تحب أن تتخيل (بلو) في صغرها كما كانت تذكر هي نفسها في صغرها، تلهو في حقل من عباد الشمس. هل كان عباد الشمس موجودًا في هذا الجزء من العالم في تلك الأيام؟

ففي منزل امتلأ عن آخره بأغراض جاكوب دي فيلييه، بدا غياب (بلو) أمرًا بالغ الغرابة بلا شك.

كل ما عرفه فيدا عن جدته الكبرى هو أنها سافرت مع جاكوب، متنكرةً في هيئة رجل، وعاشت معه سنوات طويلة على أنها خادمه، قبل أن تحمل بفريدريك وتكشف سرها، في معلومة مبتورة لا تؤدي إلى شيء. اعتادت جيني أن تدقق في وجه فيدا، بحثًا عن أي أثر لبلو، لكنها لم تجد شيئًا. هل كل ما في الأمر هو أن (بلو) قد اختارت أن تحيا حياة غير ذات بال، أم كان قرارًا فُرِض عليها؟ كان غيابها أمرًا ملغزًا لجيني، ومحبطًا في الوقت ذاته، وربما كان ذلك لأن هذا الغياب كان به حقيقة حاولت جيني ألا تقر بها: أن المرء قد يأتي إلى هذا العالم، ويعيش حياة (غنية أو فارغة، راضية أو بائسة) ثم يرحل دون أن يترك أثرًا. كان مجرد هذا الخاطر يملأ جيني بحزن لا تعرف كيف تعالجه.

وذات يوم وجدت جيني نعلين صغيرين من الحرير، لم يبليا تمامًا، في صندوق أسفل فراش جاكوب، وعلى الفور أقنعت نفسها أنهما يخصان (بلو). ربما كان مقاسهما، أو جمالهما، أو بساطتهما، وربما لونهما.. أو مجرد إحساس شعرت به عندما لمستهما هو ما أقنع جيني أنها عثرت على شيء يخص (بلو)، على شيء بالغ النعومة، والرقة تبقى منها.

فيدا وجيني وماركوس

في يوم مشرق صافٍ من شهر مايو، وبينما جيني وفيدا يقودان سيارتهما إلى متجر توماس ميكيليز، كان فيدا لم يزل يتساءل كيف يتحول مجرد شراء مرتبة إلى عمل كبير كهذا. فقد راحا يختبران كل أنواع المراتب، بحثًا عن المرتبة المناسبة، حتى نظر إليهما البائعون في المحل نظرة رأى فيدا فيها شيئًا من الغطرسة. كان فيدا يستعد لمغادرة المحل بعد المرتبة الثانية، ولكن جيني كانت تجد طريقة أو أخرى لإشراكه في عملية اتخاذ قرار الشراء. هل هناك حقًّا أي اختلاف بين المراتب غير الثمن؟ عندما اقترح فيدا في بدء الأمر شراء مرتبة، حسب أنهما لن يستغرقا أكثر من عشر دقائق ليجدا أفضل المراتب سعرًا، فيشترياها. لكن من الواضح أن لجيني رأيًا آخر. دخل المتجرَ رجلٌ جذب العيون إليه بحدبة على ظهره وسيدة حسناء إلى جانبه. ما إن رأته جيني حتى وقفت إلى جواره، وأشارت إلى مرتبتين: - أيهما نختار في رأيك؟

سألته كأنها كانت تنتظر طيلة الوقت ليأتي فيساعدها. بوغتت الحسناء، ولكن الرجل نظر إلى جيني.. كأنه يعرفها، وقال: - أنتِ ابنة جولايد جوميدي؟

لم يكن سؤال من لا يعرف، وإنما سؤال من يتأكد.

- نعم، أنا ابنة جولايد جوميدي، رغم أن هذه الحقيقة لا تعينني بأي حال في تلك اللحظة على اتخاذ قراري.

وأشارت إلى فيدا برأسها، وواصلت: - وهذا الواقف هناك، رغم أنه يحسن كل شيء، فإنه لا فائدة تُرجى منه لهذا الأمر.

ابتسمت الحسناء لفيدا كأنها تعتذر نيابة عن جيني، ونظر إليه الرجل ذو الحدبة بعينين كأنهما تقولان: «يا للنساء!» شعر فيدا من تلك النظرة أن الرجل يعرض عليه شيئًا نادرًا ما يعرضه: الصداقة. وبعد أكثر من ساعة، كان الرجل ذو الحدبة يساعد فيدا في وضع المرتبة على سقف السيارة الأوستين ميني كوبر. وعندما فرغوا من العمل، أعطى الرجل جيني وفيدا شيئًا آخر، فمد إليهما يده، كان فيدا واثقًا أنه لا يفعل هذا إلا نادرًا، أيضًا. قال الرجل: «فالينتاين تاناكا» وهو يصافحهما. لكن هذا لم يكن نهاية الأمر. فقد أصرت جيني حينها على أن يذهبا إلى متجر توماس ميكيليز لشراء مكونات حلوى الكاسترد. قادا السيارة عبر شوارع المدينة وعليها المرتبة. عندما ترجلا من السيارة، نظر فيدا إلى المرتبة، التي كانت تشبه تمامًا المراتب الأخرى التي لم يشترياها، وتساءل هل كان الأمر يستحق كل هذا!

- لا تقلق.

هكذا قالت له جيني، وهي تشق طريقها إلى المتجر، متابعة: - بالنظر إلى كل ما فيها وكل ما تفعله، فهي تستحق العناء.

سألها فيدا:
- وما الذي تفعله المرتبة؟
لكن قبل أن تجيبه جيني، وجدا ماركوس أمامهما. تصرف فيدا على النحو الذي يتصرف به في الشارع: لم يتدخل، وترك تلك اللحظة تمر في حياة ماركوس وجيني حتى نهايتها المقدورة. بل إنه ابتعد قليلًا، إلى مكان تأكد أنه لن يسمع منه ما يدور بينهما من حديث. ولمزيد من الاحتياط، أجبر نفسه على الدخول في محادثة مع جولايث النحيل، زعيم عصابة (ذا سيرفايفرز)، والذي أصبح الآن يعد نفسه صديقًا لفيدا، لأنه تصادق مع جيني، أو بالأحرى، ولوضع الأمور في نصابها، لأن جيني اتخذت منه صديقًا.
نظر فيدا من فوق كتفه إلى جيني وماركوس. شاهد ماركوس وهو ينظر إلى السيارة التي تحمل المرتبة، نظرة لم توحِ بشيء سوى اليأس. فجأة، ورغم المسافة بينهما، أصبح يأس ماركوس جَليًّا أمام فيدا، حتى إن فيدا جال بخاطره –للحظة– أنه قد يأتي يوم يجد نفسه وليست جيني إلى جواره. تقبلت جيني خبر رحيل ماركوس إلى أمريكا على نحو طيب، أكثر مما حسب ماركوس، الذي اختاره رب العمل لتلقي دورة تدريبية في قسم المالية في واحدة من الشركات القومية الخمسمائة على قائمة فورتشن. قال لها ماركوس: - يجب أن تأتي معي.
وكانت هذه فكرة جديدة، حتى بالنسبة لماركوس نفسه، كل ما كان يريده هو أن يعود بها إلى المنزل، بعيدًا عن فيدا. لكن هذا كان قبل أن يرى المرتبة وهي تثقل على الأوستين ميني كوبر. غيَّرت المرتبة كل شيء. جعلته قلقًا، وجعلت يديه تتلهفان لفعل شيء لا يمكنه أن يفعله أمام الناس. لم يكن يعلم ما هو هذا الشيء على سبيل اليقين.
- أحبك!
هكذا قال ماركوس لوجه علاه العبوس بالفعل لما طلب منها العودة معه إلى المنزل. فابتسمت جيني لتصريحه هذا، وقالت: - بل أنت تريد أن تحبني، ورغبتك في أن تحبني ليست هي هي أن تحبني.
أدرك حينها أن ابتسامتها لم تكن سوى نهاية لأمل كاذب، وقال: - إنك لم تسامحيني قَطّ، أليس كذلك؟
وكأنه يشعر بشيء من الانتصار في وسط حزنه.
- أسامحك؟ علام؟
- لم تسامحيني قَطّ على ذلك الصباح، في المطبخ. لم تسامحيني قَطّ على تخلّيَّ عنك. على.. على ما فعلتُ بعد ذلك.
- ليس هناك ما يستدعي المسامحة.
قالتها، وأخذت يديه برقة بين يديها، لتعطيها –أخيرًا– شيئًا تفعله.

- هل تذكر كيف اعتدت أن أدفن قدميّ في التربة في حقول عباد الشمس؟
هنا علا العبوس وجه ماركوس، بدوره، وتابعت جيني: - وهل تذكر كيف أنك لم تفعل هذا ولو لمرة واحدة؟
تركت جيني يديه، وتابعت:
- إن تركي لكَ هو طريقتي في التعبير عن حبي لك.

فيدا وجيني

كان فيدا لم يزل يشعر برائحتها في أنفه، وبطعمها في فمه، ولم يزل بأنامله وخز من لمسها. وضع ذراعه على عينيه وهو يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يلتقط أنفاسه، أنفاسه التي –منذ بضع لحظات فقط– كانت سعيدة بأن ترحل عنه. سمعها وهي تصارع أيضًا لالتقاط أنفاسها. سمع نفَسَها وهو يعود إلى طبيعته، وضبط أنفاسه على أنفاسها.

قالت جيني:

- هذا الشيء الجميل شيء يحتاج الجسد إليه.

شعر بها تعتدل في جلستها. رفع فيدا ذراعه عن عينيه، ونظر إليها. كانت قد أدنت ركبتها من صدرها، تحتضنهما، وعليها هالةٌ مما كان بينهما. قالت له جيني:

- عدني ألا تكلمني عن الحب أبدًا.

نظرت إليه، وأجرت ظهر راحتها برفق على صدره، متابعة: - إن عدم اضطرارنا للكلام عن الحب ليشعرنا بالحرية.

- أعدك.

هكذا ردّ فيدا، وكان وعدًا يسهل قطعه، فهو يذكر النظر إلى عينين زرقاوين بالغتي الجمال، وشعورًا بالرضا، والقنوع، والكمال.

وفي تلك اللحظة، شعر بالارتياح لأن جيني لم تكن تطلب منه ذلك الشعور بالرضا، والقنوع، والكمال.

فيدا

غادر فيدا المدينة بما فيها من رائحة الخبز الطازج لأن تغييرًا قد حدث، تغييرًا لم يكن مرحبًّا به.. في البداية. ولكنه اعتاد هذا التغيير بمرور الوقت، اعتاد هذا التغيير الذي دائمًا ما صحبته رائحة الفانيلا ودخان الخشب، تعوَّد على الطريقة التي تضحك بها عند بداية أغنية «كولنج أوكيوبانتس أف إنتربلانيتري كرافت» لفريق (ذا كاربينترز)، اعتاد الطريقة التي تحرق بها حلوى الكاسترد لتعطيها مزيدًا من النكهة، الطريقة التي تبدو بها وكأنها تعرف كل شيء، ثم لا تكف عن السؤال عن كل شيء، في تناقض مذهل، اعتاد كيف بدت مستقلة تمامًا، بل وعنيدة أحيانًا، اعتاد الطريقة التي تتناول بها الأطعمة المطبوخة بالماريجوانا، وشاي المورينجا، اللذان كان يصنعها لها لتخفيف آلام الإيدز؛ الطريقة التي تلصق بها جسدها بجسده لتهدئ الصخب في صدره؛ الوحدة التي تركتها له عندما ذهبت إلى مستشفى (ميتير دي) لتمكث هناك ستة أسابيع تُعالج من السُّل؛ الطريقة التي حاربت بها الالتهاب الرئوي بالمضادات الحيوية: اعتاد السعادة التي تقاسمتها معه عندما توافرت مضادات الفيروسات القهقرية؛ اعتاد أن أصبحت شيئًا يؤنسه في ليله؛ والطريقة التي كانت دائمًا ما تشبك بها بين ساقيها وساقيه متى ناما؛ واعتاد همسها باسمه في أذنيه في صمت الليل؛ وكيف أنها جعلته يشعر كرجل يقف وحيدًا في حقل من أعشاب الفيل الطويلة، الصفراء، التي تضاهي الذهب، رجلًا لم يستطع أن يصوغ في كلمات ذلك الإحساس العجيب بأن يكتشف أنه لم يكن حقًّا وحيدًا قَطّ.

لم يحدد فيدا وجيني نوع العلاقة بينهما قَطّ، ولم يتكلما عن الحب قط. كانا معًا، وهذا كل ما في الأمر. ولأنهما كانا معًا، فقد أصبح فيدا فنانًا معروفًا. حثته جيني على أن يُرِي تماثيل «ساكنو الشارع» لبياتريس بوفورد، والتي قامت بدورها بشرائها بمبلغ ضخم، ثم تبرعت بها للمدينة، في مناسبة كبيرة قام فيها فيدا، وعمدة المدينة بحمل مقص هائل قصا به شريطًا أصفر عملاقًا، ثم قام العمدة بإهداء فيدا مفتاحًا ذهبيًّا مغلَّفًا بقماش مخملي أحمر – مفتاح المدينة. قررت دائرة تخطيط المدينة وضع التماثيل في منتصف جادة سيلبورن، قبالة متنزه سينتينيري. شعر ساكنو الشارع بالفخر، بل شعرت المدينة بالفخر، وسرعان ما أصبحت التماثيل من المعالم السياحية، مما عاد على المدينة بمال وفير. أحب السياح التقاط الصور لـ «ساكنو الشارع» مع ساكني الشارع الحقيقيين الذين كانوا مصدر الإلهام لفيدا. أما (ذا سيرفايفرز) فحوّلوا الأمر إلى تجارة رائجة لأنفسهم، خاصة إنهم لم يأخذوا المقابل سوى بالعملة الأجنبية. تصادف أن كان أحد السياح منتجًا موسيقيًّا هولنديًّا، فاكتشف «شادراك»، وانتقل إلى أمستردام، حيث أصبح فنانًا ذاع صيته في العالم. وهكذا، هبَّت رياح التغيير، فطالت كل شيء.

بين ليلة وضحاها، أصبح لفيدا شأن كبير، أضحى معبود الجماهير. وراح الصحفيون، والنقاد والأكاديميون يكتبون عنه وعن أعماله. أسموه فنانًا حقيقيًا من فناني ما بعد الاستعمار. في فهمه، كان هذا يعني ببساطة أنه فنان يبدع في مرحلة ما بعد الاستقلال، وهو صحيح بدرجة كافية. ولكن عندما كان الصحفيون والنقاد والأكاديميون يستخدمون المصطلح كان فيدا يشعر أنهم يعنون به أكثر مما فهم. أجروا معه مقابلات، ونشروا عنه مقالات حمّلوا فيها حياته في الشارع من المعاني أكثر مما كانت عليه. وَفقًا لهم، كانت تماثيل «ساكنو الشارع» تمثل (حالة ما بعد الاستعمار)، وهو، لقدرته على تصوير تلك الحالة، فنان من فناني ما بعد الاستعمار، بحق. من الواضح أنه عندما كان يثني الحديد ويشكله يفعل ما هو أكثر من ثنيه وتشكيله، فقد كان يعبِّر عن شيء من زمن ما بعد الاستعمار، بحق. ولكن ما أبهج النقاد أكثر من أي شيء هو استخدامه للخردة، إذ رأوه عبقريًّا لإدراكه –بذلك الوضوح– أن خردة المعادن تُصوِّر حالة ما بعد الاستعمارية خيرًا من أي مادة أخرى.

واصلت جيني الذهاب معه لجمع الخردة، وقضت معه الساعات في ورشته. تحدثا عما يقوم به من عمل بكلمات يفهمها: مفتاح البراغي، السقاطة، المقبس، مفك البراغي، الزردية، وماكينة اللحام. ساعد هذا فيدا على الاستقرار، فقد كان وقتًا عاصفًا، وما أسهل أن ينجرف خلف فكرة كونه فنانًا لزمن ما بعد الاستعمار! بدلًا من ذلك، كان كل ما يفعله هو أن يفتح صندوق أدواته الأحمر، الذي ورثه من أبيه، ثم تناوله جيني الأدوات التي تمكِّنه من صنع ما يحب.

وبهذه الطريقة، صنع ما سيصبح أشهر أعماله: «نظرية الطيران: في ثلاثة أجزاء»، وهو عمل يتألف من ثلاث قطع: «الذهبي»، «السيدة المنتظرة»، و«طائر النار». أهدى العمل لجيني لأسباب بدت واضحة له. أجمع الصحفيون والنقاد والأكاديميون أن فيدا قد تجاوز الواقعية، ولأنهم فسروا العمل على نحو مختلف ولم يمكِّنهم أن يتفقوا إلا على أقل القليل، فقد أجمعوا على أن «نظرية الطيران» كانت عملًا من بعدِ، ما بعد، زمنِ الاستعمار. حتى إن أحد النقاد كتب يقول: إن «نظرية الطيران» تنير الطريق للأمام بشجاعة كبيرة. ولم يكن من فيدا إلا أن تساءل بينه وبين نفسه، الطريق إلى أي أمام؟

طافت «نظرية الطيران» أرجاء العالم، إلى أن استقرت أخيرًا في معرض الفن الوطني. وهذه المرة، كان (الرجل ذاته) هو من أمسك بالمقص الضخم وقطع الشريط الأصفر العملاق. بدا أن التاريخ على استعداد لتكرار نفسه.

ولكن رياح التغيير كانت تهب الآن على نحو مختلف، فانهار كل شيء. اضطربت الولاية سياسيًّا، وكف السياح عن المجيء. تغيرت أقدار المدينة وبدأ الناس يخربون تماثيل «ساكنو الشارع» عند جادة سيلبورن، ووجدوا استخدامات أخرى للخردة المجموعة. لم يكن أمام المدينة من خيار إلا بناء

حواجز من الأسلاك الشائكة حول إبداعات فيدا. ثم قرر (الرجل ذاته) أن لفيدا دي فيلييه بشرةً أشد بياضًا من أن تسمح له بأن يكون فنانًا حقًّا لعصر ما بعد الاستعمار، فأمر بفك التماثيل والتخلص منها، فلم يكن أمام المدينة إلا أن تنصاع للأمر.

لحسن الحظ، حدث احتجاج دولي، وعرض كثير من جامعي القطع الفنية، والمعارض، والمتاحف من كل أنحاء العالم شراء أعمال فيدا، فباعتها المدينة بسعادة. انتهى الأمر بـ «ميك الضاحك تحت الشمس» في حدائق كليفلاند الثقافية بأمريكا، و«شادراك عازفًا جيتاره» في متحف ميدلهايم المفتوح للمنحوتات في بلجيكا، وبـ «جوزيف بيريرا الواقف في شموخ» في حديقة كريستينبوش النباتية بجنوب إفريقيا، وبتمثال «دافيد وجولايث في صراعهما الأبدي» في متحف تشانجتشون العالمي للمنحوتات بالصين، وبـ «السيدات الملونات المتبخترات» في متحف منحوتات وندسور في كندا، و«ذا سيرفايفرز» بكل مجدهم الشائن في متحف هيرشهورن وحديقة المنحوتات في أمريكا.

ثم كلّف (الرجل ذاته) فنانين ممن عدهم حقًّا من فناني ما بعد الاستعمار ليستبدلوا «ساكنو الشارع». قام فنانو ما بعد الاستعمار هؤلاء بنحت تماثيل لـ (الرجل ذاته)، وضعها أمام بنايات مختارة من بنايات المدينة، لكن التماثيل تم تخريبها والكتابة عليها مرارًا وتكرارًا، حتى سنّ (الرجل ذاته) قانونًا يجرِّم مثل هذا الفعل، ويُعاقب بالسجن مدى الحياة كل من يشوه أيًّا من تماثيله.

كان الوقت الوحيد الذي لا يقضيه فيدا وجيني معًا هو الوقت الذي يسافر فيه فيدا –مدعوًّا– إلى خلوة فنانين في ستوكهولم كل عام. تخيلت جيني ستوكهولم مكانًا بالغ البرودة لن يروقها، فلم تسافر معه، ومكثت بالمنزل. وفي كل عام، كان فيدا يعود ليجد جيني تنتظره في الشرفة، وما إن تراه حتى تفتح ذراعيها، وتقول: «فيدا! أخيرًا! الوطن» تقولها، بوجه مشرق، ثم تعانقه، وتمطر شفتيه بالقُبلات.

وهذا ما كان ينبغي أن يكون عليه الحال عندما عاد من ستوكهولم قبل عيد ميلاده الخمسين بوقت قصير. لكن الحال لم يكن كذلك. فحينها، وجد ماتيلدا وستيفانوس ينتظرانه بقلق في الشرفة. وقبل أن يسألهما فيدا عن جيني، انفجرت ماتيلدا: - السيدة، يا سيدي، ليست بخير.

- ماتيلدا، ألم نخبرك ألف مرة ألا تنادينا بالسيد والسيدة؟! لسنا إلا جيني وفيدا.

قالها فيدا بنبرة هادئة، أدهشته هو نفسه.

- بلى يا سيدي. بالطبع، يا سيدي.

فقال ستيفانوس، بعصبية وهو يسحق قبعته بين يديه: - السيدة.. إنها لا تأكل. نحاول أن نطعمها، وتقول ليس لديها شهية للطعام.

وقالت ماتيلدا، وهي تكاد تبكي:
- لا نعرف ما نفعل يا سيدي.
- منذ متى؟
فقالا، في الوقت نفسه:
- منذ خمسة أيام.
- أنا واثق أن كل شيء سيكون على ما يرام.
وطمأنهما بابتسامته.
فقالت ماتيلدا بارتياح:
- حمدًا لله على عودتك يا سيدي.
وقال ستيفانوس، وهو يفتح الباب الأمامي لفيدا:
- حمدًا لله.
عندما رأى فيدا جيني، صدمه كيف أن خمسة أيام فقط قد صنعت بها كل هذا الفارق، إلا إنه لم يُظهر صدمته. وجد جيني جالسة بمفردها، هادئةً تنظر إلى شيء لم يستطع رؤيته. بدا أن هذا الشيء يسكن زاويةً من زوايا أي غرفة تكون بها. أحس أنها تسلم نفسها لهذا الشيء لكي تهدأ. كان هذا الشيء مفترسًا جشعًا، يأكل في جسدها، ويسرق النور من عينيها، ويطفئ تلألؤ بشرتها. كان من الواضح أنه عازم على استلابها منه، وكانت تدعه يفعل ما عزم عليه. شعر فيدا أن استسلامها خيانة.
لطالما مرضت جيني على نحو خطير، ولكنها كانت تعود كل مرة، وكان هذا يريح فيدا أيما راحة. جرّب فيدا وصفته الموثوقة من الماريجوانا والمورينجا، ولكن جيني أبت أن تأخذ هذا أو ذاك. لقد حدث تغير في جيني نفسها.
حاربت جيني كل ما جره عليها مرض الإيدز. حتى حينما كانت تبدو –ظاهريًّا– بصحة جيدة، كان فيدا يعرف أن هناك معارك تدور في داخلها. فلم استسلمت إذن؟
لعله كان يقبل بهذا إن حدث قبل سنوات.. في البداية. ففي البداية، كانا يحسبان أن وقتهما معًا قصير، وعندما كانا يتعاملان على نحو واقعي، كانا يتوقعان أن يحظيا بثلاث أو خمس سنوات معًا، وعندما يتفاءلان ويحلمان، يتوقعان سنوات عشر، لكن هذا كان قبل الإيدز.
ما أكثر ما مرا به وتجاوزاه من قبل! فلم لا ينجوان الآن من هذا الشيء القابع في الزاوية؟ كانت الإجابة بسيطة – لا يستطيعان النجاة لأن جيني لا تريدها لهما.
خائفًا، وقف فيدا في نطاق رؤيتها، حاجبًا هذا الشيء القابع في الزاوية. رفعت جيني عينيها عن الشيء ببطء، ونظرت إليه، لا لأنها أرادت ذلك، ولكن لأنه أجبرها عليه. شعر بأنها تنظر إليه مضطرة.

كان ما بالزاوية ضيفًا ثقيلًا غير محل لترحاب، يحول بينهما. أتى بعد سنوات قضياها معًا، واستقر بينهما، وبدا عازمًا على ألا يرحل إلا وجيني معه.

جعل (ما بالزاوية) فيدا يشعر باليأس. ما أكثر التغيرات المفاجئة التي عوَّد نفسه عليها من قبل! لكنه لن يستطيع أن يتأقلم على هذا التغير. على الأقل، لن يستطيع دون خوض معركة معه.

استغرق الأمر منه ثلاث محاولات حتى جعل جيني تضع شيئًا في فمها، ولم يفعل إلا بعد أن اعتراه القلق، ونفد صبره، وغضب.

أخيرًا، قالت جيني، بصوت تعِب:

- عليك أن تتركني أرحل.

قالتها ببساطة كما لو كانت تطلب منه أن يصلح شيئًا في المنزل!

كان خياره أن يتجاهلها، وحاول أن يقحم ملعقةً من العصيدة في فمها. لم تفتح فمها إلا بعد وقت طويل.

همست في أذنه، وهي تبتلع الطعام، ببطء، وألم:

- أنا متعبة، يا فيدا.

تجاهل الحزن في عينيها وهو يقحم ملعقة أخرى في فمها، وهو –في كل هذا– يدرك أنه باستطاعته أن يكون أكثر رفقًا.

تقيأت هذه المرة، لتُخرج الملعقتين اللتين تناولتهما. حاول أن يقحم ملعقة ثالثة في فمها، ولكنها أبت أن تفتحه. سقطت الدموع على يديه، فلم يدر أدموعها هي أم دموعه.

ضغط جبينه على جبينها، وقال، محاولًا أن يكون أكثر رقة هذه المرة: - أرجوك يا جيني. عليكِ أن تأكلي. الدواء به مادة كاوية/حارقة ولا يمكنك أن تتناوليه دون طعام. تعرفين هذا.

- لن آخذ الدواء، أيضًا.

نظر إليها. ونظرت إليه، بإصرار.

قالت جيني:

- لقد استولى قدامى المحاربين على مزرعة بوفورد.

قالت ذلك بنبرة عادية، لم يتبين منها ما علاقة هذا الأمر بالموقف الراهن، وتابعت: - عليك أن تتركني أرحل.

وفي تلك اللحظة أدرك فيدا أن هذا التغيير لم ينشأ في أيام خمس. كان شيئًا خططت له، بعمد، وعزم، وإصرار. وهي تجلس قبالته على مائدة الإفطار. وهي ترقد إلى جواره. وهي تُجري أيديها برفق في شعره. عند مرحلة ما من كل ما اعتاداه، قررت أن تكف عن المقاومة. بلا مبالاة، وبكل قسوة.

راح الخوف، واليأس والغضب، وشيء آخر يشبه الكراهية على نحو خطير، راحت كلها تسري في عروقه، وتغلي لها دماؤه. أقحم الملعقة في فمها.

بصقت الثريد في وجهه.
- تريدين أن تموتي؟
- أجل، أجل.
هكذا ردت، بكل هدوء، فارتاع لهذا الهدوء أكثر من أي شيء. رآه استسلامًا، دليلًا على أنها قد رضيت حقًّا بهذه الفكرة، ووطنت نفسها عليها.
مضى مبتعدًا، ولكنه لم يسر خطوة أو خطوتين، حتى انهار على الأرض: - كيف تريدين أن تتركيني!
- كنت أحسب أن الحب مسألة عطاء، ولكني الآن أعرف أنه أناني.
- لكننا اتفقنا على ألا نتكلم عن الحب.
- هذا لأني كنت على يقين من أنك ستفي بوعدك.
- لم يكن هذا هو مغزى الوعد.
- ليس بإمكانك إنقاذي يا فيدا. ليس هذه المرة. هذه المرة عليك أن تتحلى بالشجاعة.
لكنه أنقذها. أخذها إلى مستشفى (ميتير دي)، فلم يكن بإمكانها وهي على ذاك الضعف أن تقاوم، وشاهدها وإحدى الممرضات تحاول أن تجد وريدًا يصلح للتقطير الوريدي، فتغرز الإبرة تلو الإبرة في كلتا ذراعيها، ولا تفلح إلا في المحاولة الحادية عشرة. رأى، وتجاهل عيني جيني وهما تنظران إليه مع كل وخزة وتتهمانه.
بعد بضعة أيام، قالت الدكتورة مامبو، وهي بادية السعادة، أن مجيء جيني إلى المستشفى كان نعمة وإن بدا غير ذلك، فقد وجدوا في عنق الرحم أنسجة متضررة لو لم يجدوها في الوقت المناسب لتحولت إلى خلايا سرطانية. وبالطبع، عليهم أن يراقبوا هذه الأنسجة، وبالطبع يعني هذا إعطاءها مزيدًا من الأدوية. كما أنه، طبعًا، يعني اتخاذ مزيد من الاحتياطات. ولكن رغم كل هذا فهي نعمة وإن بدا غير ذلك.
كان فيدا ممتنًا لكنه لم يشعر بتلك النعمة التي تحدثت عنها الطبيبة.
بعد أسبوع، عادت جيني من المستشفى بصحة جيدة، وبدا أنها عادت إلى طبيعتها القديمة. واصلت حياتها كأن شيئًا لم يكن –كأنها لم تحاول أن تتركه، عامدة، كأنها لم ترغب في أن ترحل عنه. يمكنه أن يغفر لها أشياء كثيرة، لكنه في تلك اللحظة لم يستطع أن يغفر رغبتها في تركه.
مضت السنون، بسعادة أغلب الوقت، وبمرورها بدأ يسامح.. وينسى.
وصبيحة عيد ميلاد فيدا السابع والخمسين، صحا من نومه ليشعر بأنفاس جيني الدافئة على جلده، وهمست في أذنه برفق، قبل أن تطبع قبلة رقيقة على شفتيه: - عيد ميلاد سعيد، عزيزي فيدا.

- عيد ميلاد سعيد! من بحق السماء هذا الذي لا يحب أن يكون عيد ميلاده السابع والخمسون على هذا النحو؟

فتح عينيه، ليجدها تبتسم له، من علٍ.

مد يمناه ليجذب وجهها نحو وجهه. لم تكف عن الابتسام عندما التقت الشفاه.

ثم، انعقدت ساقاها حول خصره بقوة جعلته يدرك أنها في تلك اللحظة لم يكن عندها شيء أهم منه. نظرت في عينيه كما لو لم يكن في الدنيا شيء غيرهما، وشعر فجأة بالارتباك. وجد نفسه يوشك على قول شيء. ليس هناك كثيرٌ من الأشياء يحويها قلب الرجل. كان هناك أشياء لم يجدها إلا معها، لا يمكنه أن ينكر ذلك، أشياء جميلة يشعر بأنه محظوط للتنعم بها. وقبل أن يتمكن من إيقاف الكلمات، وجدها تنساب على لسانه. سمع نفسه وهو يقول: «أحبك»، ثم شاهد عينيها وهما تفقدان تركيزهما. أصبحت تنظر إليه بنفس القوة، ولكنها لم تعد تراه. أسلمت نفسها للشعور. تجعّد حاجبها، وفغرت فاها، ولم تخرج منها إلا كلمة واحدة، بأنفاس لاهثة: - فيدا!

ثم استسلمت، موجةً موجةً، ولم يكن منه إلا أن اعتلى واحدة من تلك الأمواج.

بينما كان فيدا يشاهد جيني وهي قادمة نحوه حاملةً حقيبته لرحلته إلى ستوكهولم، حاول ألا يكثر التفكير في قوله (تلك الـ) «أحبك»! الكلمة لم تبادله إياها. وضعت الحقيبة في صندوق السيارة، ثم ضبطت ياقة قميصه، وعانقته من ظهره، وطبعت قبلتين على عنقه.

- إنك لتذكرني بالأنهار التي اعتدت أن أسبح فيها في زمن بعيد. أنت وطني.

قالتها همسًا في أذنه اليسرى، ثم قبَّلت –فوق قميصه القطني الخالص– تلك الندبة المدببة فوق كتفه، والتي أحدثتها زجاجة جولايث المكسورة من سنوات بعيدة، قبل أن يصبح رجلًا تم إنقاذه.

لم يفهم ما قالت. هل هذه طريقتها في الحديث معه عن الحب؟

عندما استدار ليسألها عما تعني، قبَّلته بحنان جعله يجد نفسه مرة أخرى في حقل من أعشاب الفيل الطويلة الصفراء، الذهبية، متحولًا إلى رجل يشعر بخدر مألوف في أنامله.

الكتاب الثاني

الجزء الأول

نظرية المعرفة

جيني

عندما كانت جيني في وسط زهور عباد الشمس كان الأمر كأنها تتذكر، تتذكر نفسًا ليست سوى نفس منسيّة. لم تستمتع بشيء كما استمتعت بغرز قدميها في التربة البنية المحمرّة أول شيء في الصباح. أحبَّت الوخز الذي تشعر به في جلدها متى لمست ذراعاها العاريتان سيقان عباد الشمس الطويلة النحيفة. اعتادت أن تدير وجهها صوب الشمس وتختلس النظر إلى الشمس من بين الزهور، وتغلق عينيها وهي تنصت إلى طنين النحل فوقها. لكم أحست أنها كانت ذات يوم زهرة من زهور عباد الشمس! فهي أيضًا نحيفة وطويلة، تحب الشمس، وهي أيضًا ذات وجه أسمر بني دومًا ما يبحث عن الشمس، وهي أيضًا تحب أن تتمايل تحت وقع النسيم العليل. كان الاختلاف الأوحد بينها وبين زهور عباد الشمس هو أن للزهور هالة صفراء، بينما هالتها هي بنية محمرة كما التربة، إلا أن الاختلافات في الحياة شيء تسمح به الطبيعة ويجب أن يُقبل.

تتراقص طفولة جيني بين الزهور وتومض في رأسها وهي تشاهد بقعة الدم تكبر ويتغير شكلها على الملاءات البيضاء. بدت بقعة الدم لفترة من الزمن كفراشة، ككائن قرمزي مجنّح. أما الآن فهي تبدو كخريطة إحدى الدول، دولة لها حدود سائلة إلى حد كبير، دولة تعرفها جيدًا.

لا ترغب جيني في شيء قدر رغبتها في إنقاذ المرتبة، ولكنها تخشى أن يكون الدم، دمها، قد انتشر في الملاءة وعبر منها إلى المرتبة. سيتحتم على فيدا أن يشتري مرتبة جديدة. تشعر جيني بندم بالغ لأن هذه هي مرتبته المفضلة. عاشا معًا عشرين سنة، على ثلاث مراتب: كانت أولاهما مليئة بالنتوءات، والثانية بالغة الاهتزاز. أما الثالثة، هذه، فقد كانت ملائمة تمامًا –ثابتة وبها شيء من اللين. كان عليها بمجرد أن بدأت في النزيف أن تنتقل إلى الأرض، وأن تنقذ المرتبة، وأن توفر على فيدا عناء شراء واحدة أخرى. ولكنها الآن أوهن من أن تفعل شيئًا وليس أمامها إلا أن ترقد هنا وتنتظر، وحيدةً، لا يلازمها إلا غياب فيدا.

كان ماركوس هو من علَّمها درسًا مهمًا عن الغياب، وبسببه اكتشفت أن الغياب، شأنه شأن الحضور، يشغل مساحة، فله أبعاد، ومتغيرات، وله نوع من الدوام. بسببه أدركت أن الغياب أكثر ثباتًا من الحضور، فليس بإمكان المرء أن يأخذ حضورَ شخص آخر معه أينما ذهب، ولكن بإمكانه أن يشعر بغيابه في أي

مكان. بسببه تعلمت أن الغياب، كما الحضور، هو شيء يمكنك أن تختبره بشكل حميميّ.

وفجأة، كما لو أن كل هذا الغياب قد استدعاه، كان هناك حضور. ولدٌ، اسمه سيكومبوزو، يجلس أمامها في الفصل على بعد بضعة صفوف، يشير نحوها بإصبع كأنه يتهمها، ويصرخ فيها:

- لقد متِّ! متِّ! عليكِ أن ترقدي على الأرض. لقد قتلتكِ! قتلتكِ! ارقدي على الأرض، الآن!

يقولها، وينتفش صدره بشيء يرعب جيني حقًّا. لا بد أنهما كانا يلعبان لعبة (الحرب) أو (بازوكا) أو (اتخذ ساترًا)، ففي كل هذه الألعاب يصدر اللاعبون أصوات قعقعة وكلٌّ يصوب نحو الآخر بندقية أ. ك. 47 مصنوعة يدويًّا، ويقذف القنابل الخيالية ويفجِّر حقول الألغام. كانت الحماسة الطروب التي يتطلبها قتل كل الأصدقاء لكي تكون آخر من يتبقى هي ما يقضي على جيني في نهاية الأمر، فتلقي ببندقيتها في الأرض.

تقول لسيكومبوزو:

- لقد قتلتني. أنا ميتة.

ثم تمضي، فيقول، غاضبًا، يشعر بأنها لا تحترمه:

- لا يمكنك أن تسيري، فأنت ميتة. ميتة. عليك أن ترقدي على الأرض. لقد قتلتكِ. قتلتك. على الأرض الآن. هذه هي قواعد اللعبة. لا يمكنك ألا تتبعي قواعد اللعبة. أنت ميتة.

وثاني شيء تذكره جيني هو وقوفها فوق جثمان سيارة مهجورة، (براون كار)، في وسط حقل من عباد الشمس، وبينيلوب في ثنية ذراعها اليمنى، وسبيكس في اليسرى. تشاركها بينيلوب وسبيكس النظر إلى التلال الزرقاء الضبابية في الأفق. تدير الزهور رؤوسها نحو التلال الضبابية، مثلهم، وتنتظر بنفاد صبر معهم. ويشاهدون، جميعًا، والدي جيني وهما يصبحان زوجين عملاقين من الأجنحة الفضية، وينطلقان صوب السماء، ليتحولا إلى ومضة من ضوء وهما تتلألآن وتومضان تحت أشعة الشمس. تصغر الأجنحة العملاقة شيئًا فشيئًا حتى لا تصبحا سوى بقعة صغيرة في زرقة السماء. ثم، كما لو كان الأمر سحرًا، تتحول البقعة الصغيرة إلى عدم، ويتلاشى والداها.

تظل جيني في أمان وسط الزهور، ثم ترى شاحنتين عسكريتين تسيران على الطريق الترابية، وتشقان طريقهما نحو مزرعة بوفورد، وبالشاحنتين جنود السوجا، حاملين بنادق أ. ك. 47 حقيقية، مرتدين بيريهات حمراء قانية. بعد وصول السوجا مباشرة، تسمع جيني صرخات متواصلة، وضوضاء متقطعة، وأصوات تصيح مذعورة، وأصوات تنتحب. تشم رائحة لحم يحترق، رائحة ليست بتلك التي يسيل لها اللعاب، إنما تلك التي تثير الغثيان، هي قطعًا

رائحة لحم لا يُؤكل، ليست برائحة حيوان مما يطعمه الناس، بل رائحة حيوان من نوع آخر، كائن بشري، رائحة إنسان، إنسان يحترق.

وفجأةً ينتهي كل شيء. فلا صراخ، ولا ضوضاء. لا أصوات تصيح، ولا أصوات تنتحب. لا يتبقى إلا رائحة لحم بشري يحترق.

تسمع جيني الشاحنات العسكرية وهي عائدة عبر الطريق الترابية، وتتوقف إحدى الشاحنات إلى جوار حقل زهور العبَّاد. تسمع وقع الأحذية الثقيلة على الطريق الترابية، ثم تشم رائحة حشائش تحترق. يصيح أحد الأصوات: «أطفئها!»، متابعًا: «ماذا فعلت لك زهور عباد الشمس؟»، تدور الشاحنة ثانية، وتبدأ الأحذية في الحركة، بشيء من التردد.

بدأت الشمس تغيب في الأفق، مؤذنة بنهاية النهار، وتعرف جيني أن كل ما يأتي من أيام بعد هذه اللحظة لن يكون إلا مختلفًا.

تفتح جيني عينيها.

تنظر حولها. هل كانت تحلم، أم إنها تتذكر فحسب؟ لكنها لا تعرف. إنها ليست بمزرعة بوفورد، وليست وسط الزهور. إنها في غرفة، غرفة جميلة مليئة بالبياضات، والمساحيق، والحلي، وخشب الساج البني المحمر. إنها في غرفتها، تلك الغرفة التي تتشاركها مع فيدا، غرفتهما، على فراش جميل، عليه بقع من الدم، من دمها، على فراشها، الفراش الذي تتشاركه مع فيدا، على فراشهما.

لكن رائحة اللحم البشري المحترق لم تزل عالقة في المكان.

تتلوى معدتها، توشك على التقيؤ، لكن لا يخرج منها شيء. لم يعد في معدتها شيء تتقيأه.

يكفيها أنها، لما كانت تعلم أن هذه لحظة محتومة، قد استعدت لها فاعتنت ببعض الأمور. فهي قد نظفت حُلّة فيدا الوحيدة في المغسلة. تتذكر وقوفها في المغسلة، حاملةً سترة فيدا قرب أنفها، وهي تتشمم رائحته بها، وعاملة المغسلة تنظر إليها وقد رفعت حاجبها، وإن لم تقل شيئًا. قامت بنفسها بِكَيّ قميصه المفضل، وتأكدت من تنشيّة ياقته. وجعلت ستيفانوس يلمع حذاء فيدا حتى صار يبرق. جعلت ماتيلدا تجمع متعلقاته الصغيرة، وترتبها: المنديل، ورابطة العنق، وزوجان من الجوارب الملونة، وقبعة من القماش.

كم كان غريبًا أن تكون أفكارها واهتماماتها أثناء لحظاتها الأخيرة هي كل هذا!

بعد أن عاشت عمرًا كاملًا وهي تؤمن أنها في رحلة، أنها شيء مذهل في السماء، ألم تكن بالأحرى كائنًا هجينًا أصله في الأرض ولكن له حرية الطيران؟ هل يمكن أصلًا أن يوجد شيء كهذا؟

كل ما تعرفه هو أنها –في هذه الحياة– مدت يدها نحو شيء، ولمسته. وهذا يكفي. فعندما يكون ما يتبقى، في النهاية، هو مرتبة شربت الدماء سيتم

التخلص منها، مرتبة عليها بقعة من الدماء أخذت شكل دولة، عندما يكون هذا هو كل ما تبقى فربما ما يهم حينئذٍ أن يكون كافيًا.

«يهم»؟

يا لها من كلمة مثيرة! تسمح لنفسها بالوقوع فيها.. في ظلمتها.

تعود إلى حقل عباد الشمس. مع ماركوس، هذه المرة. يشاهدان معًا صندوق سيارة وهو ينفتح، ليخرج منه –على مراحل، وببطء- رجل بالغ الطول، رجل لا يشبه أي رجل رأياه من قبل. أطول حتى من عباد الشمس، أو هكذا يبدو. رجل رائع. وعندما ينظر نحوهما مباشرة، من بين عباد الشمس، تعرف جيني فورًا، ويقينًا، أن هذا الرجل الطوالة الرائع هو أبوها، جولايد جوميدي. لطالما عرفت أن أباها سيصل في هيئة بطل من أبطال الروايات.

تتركز عيناه على عينيها. تجاهد جيني للتحرر من قبضة ماركوس، وتعدو خارجة من الزهور متجهةً إلى أبيها. ينزل أبوها على ركبتيه، ويمد يده ليلمسها برقة، وحنان، كما لو كانت حقًّا أثمن وأجمل شيء في الدنيا. في هذه اللحظة تعرف أن أمها كانت دائمًا تقول الحقيقة. فهي، جيني، قد خرجت من بيضة من الذهب. تبتسم لأبيها، كاشفة عن فجوة بين ثنيتيها. يبتسم أبوها أيضًا، كاشفًا عن فجوة بين ثنيتيه، كذلك. ورثتها منه.

محمولةً على كتفي أبيها، تتمكن جيني –للمرة الأولى– من رؤية رؤوس الزهور. تلاحظ أن وجوه الأزهار لم تعد تواجه الشمس، بل استدارت، كلها، ناحية أبيها، وناحيتها، وهما يشقان طريقهما عائدين إلى البيت. ترى أمها، إليزابيث نيوني، تعدو نحوهما يتبعها قوس قزح من الألوان، وشعرها يطير وراءها، ويداها ممدودتان بسعادة وترحاب.

توقن جيني أن المستقبل قد وصل.

تسمع جيني صوت إطارات على الحصى، وصرير البوابة وهي تنفتح، وترى أضواء السيارة الأمامية تتراقص على جدار غرفة النوم، فتخرج من الظلمة التي دخلت فيها، إلى ظلمة الغرفة.

تسمع وقع أقدام على الدرج.

فيدا.

أخيرًا.

الوطن.

فيدا

يعرف فيدا على الفور أن المنزل مظلم لأن جيني ليست به. في الأيام العادية، تكون الأنوار في المطبخ وغرفة المعيشة وغرفة نومهما مضاءة، فجيني تكره دخول غرفة غير مضاءة. الباب الخلفي المؤدي إلى المطبخ غير مقفل؛ لا يعرف فيدا إذا ما كان هذا أمرًا مريبًا أم لا.

يشعل فيدا ضوء المطبخ، ويلحظ على الفور كأسين على الطاولة. كأسين! فارغتين إلا من شريحة جافة من الليمون في قعر كل منهما. يملأ جفافُ شرائح الليمون قلبَه خوفًا. هناك ما يريب في الأمر. أين جيني؟ أين ماتيلدا وستيفانوس؟ منذ متى ذهب الجميع؟ ماذا حدث بالضبط هنا؟ يشق فيدا طريقه نحو غرفة النوم وهو لا يدري ما يفعل.

وفي غرفة النوم، يجد جيني نائمة في بركة من دمها.

أول ما يدركه فيدا بعد هذا هو وقوفه في رواق بارد خارج وحدة العناية المركزة في مستشفى ميتير دي. تلمسه الدكتورة مامبو برفق على كتفه، وتشرح له أنه ليس هناك ما يمكنه فعله، وأنه يحسن به أن يذهب إلى المنزل. تحاول أن تترفق به، لا شك عنده في هذا، ولكنه لا يجد فيما تقول شيئًا من الرفق.

- وقوفك هنا، على هذه الهيئة، لن يغير من شيء.

على هذه الهيئة؟! هنا يلاحظ فيدا، فقد علا الدمُ -دم جيني- يديه المرتعشتين وقميصه وحذاءه.

- لو سمحت يا فيدا، عُد إلى المنزل، واعتن بنفسك.

يعود إلى البيت، ولا يمكنه أن ينام. لا يمكنه أن يخلع ملابسه. لا يمكنه أن يستحم. يشعر أن غسل دم جيني عن جسده كأنه استسلام، خيانة. لا يود الصعود ومواجهة الفراش وعليه بقعة الدم. لا يريد الصعود ومواجهة غياب جيني. فيجلس إلى طاولة المطبخ، وينظر إلى الكأسين وفيهما شريحتا الليمون الجافتان. من الواضح أن جيني كانت لديها رفقة في مرحلة ما من غيابه. يشعر أن هذا أمر مهم، ولكنه لا يعرف وجه أهميته.

وأين ماتيلدا وستيفانوس؟ لماذا ليسا هنا؟ لماذا لم يكونا هنا عندما حدث شيء كهذا؟ إن المفارقات أكثر من أن تكون مجرد مصادفة.

يشعر أن هناك نقاطًا في حاجة إلى أن يتم توصيلها، وأنه إن وصّل هذه النقاط فسيعرف شيئًا جديرًا بالمعرفة. ولكنه متعب. متعب ذهنًا وجسدًا. تَعِب.

في ساعات الصباح المبكرة، وبينما يوشك أن ينعس أو بعد أن نام لبرهة دون أن يشعر، وهو لم يزل يعتقد أنه يفكر بينما كان في حقيقة الأمر يحلم، تمر به ذكرى من اليوم السابق. حلته الوحيدة، نُظِّفت لتوها ولم تزل في غطائها

البلاستيكي الواقي، وقميصه المفضل، مكويًّا نُشّيت ياقته، كما يحب تمامًا، وكلاهما –الحلة والقميص– يتدليان من العلّاقة، وتحتهما حذاؤه المفضل، لُمّع حتى صار يبرق، وقبعته القماشية، وزوج من الجوارب المرقطة، ومنديل، ورابطة عنقه مفرودة بعناية على مسند القدمين بجوار علاقة الملابس. كان قد لاحظ الملابس بمجرد أن أشعل الأنوار. ولكن ما أدهشه أكثر من أي شيء هو حقيبة جيني أسفل الفراش.

يترك طاولة المطبخ، ويندفع صاعدًا الدرج، مسرعًا عبر الرواق. يفتح باب غرفة نومهما، ويتعمد ألا ينظر إلى بقعة الدم. يفتح حقيبة جيني. وهنا تنكشف حقيقة موقفه. فهناك، بين ثياب طفولة جيني، يجد بينيلوب وسبيكس موضوعتين بعناية، ومعهما خُفّا (بلو) الزرقاوان الحريريان.

قد أعدت جيني نفسها للرحيل عنه. كما أنها قامت بكل ما تستطيع لتعده هو أيضًا.

لكنْ لا شيء من هذا يحل لغز الكأسين وشريحتي الليمون الجافتين بهما. بات واضحًا لديه الآن أن جيني عملت على ألا تكون ماتيلدا وستيفانوس في المنزل وهي تستقبل أيًّا كان هذا الذي قابلته. من هو هذا الشخص الذي زار جيني؟ من هذا الذي فتحت له الباب وأعدت له مشروبًا يتطلب شريحة ليمون؟ من هذا الذي لأجله تكبدت عناء شق الليمونة؟ كانت قد تكبدت عناء إحضار حلته الوحيدة من المغسلة. كانت قد تكبدت عناء دخول غرفة نومهما القديمة وإحضار ثلاثة أغراض دخلت بهما هذا المنزل –حقيبتها، وعروستها، بينيلوب، ودُبّها، سبيكس. تكبدت كذلك عناء وضع خُفي (بلو) الحريريين الزرقاوين في حقيبتها. تركت وراءها من العلامات ما جعل فيدا يتأكد –بلا شك– أنها كما اختارت بكل سهولة أن تدخل حياته، قد اختارت أيضًا أن ترحل عنها، اختارت هذه النهاية لنفسها.

يدخل فيدا إلى الحمام –شاعرًا بالخيانة– وعليه كامل ثيابه ليدع الماء يغسل الدم، دم جيني، عن جسده وعن ثيابه. وفي تلك اللحظة يراها: نظارة شمسية على حافة حوض الاستحمام. ليست نظارته. ليست نظارة جيني. لم يدخل هذا الشخص إذن المطبخ وحسب، بل دخل غرفة نومهما أيضًا، وسمحت جيني له -أيًّا كان– أن يدخل مكانهما المقدس. ينظر إلى النظارة، غيرَ قادر على استيعاب ما تمثله، إلى أن يصبح الماء النازل فوق رأسه أبرد من الثلج.

وفي محاولة عقيمة للانتقام، يضع عليه الثياب التي أعدتها جيني بكل عناية ليحضر بها جنازتها. يخرج من غرفة نومهما، ويهبط الدرج، يمر بالمطبخ، متعمدًا ألا ينظر إلى الكأسين فوق الطاولة، ويخرج من الباب الخلفي، ليسير عبر ممر السيارة، ومنه إلى البوابة، ثم إلى الشارع. يسير لا يدري أين يمضي. كل ما يهمه هو أن يبتعد قدر ما استطاع عن شريحتي الليمون الجافتين، عن الحقيبة المحزومة، وعن بقعة الدم على الفراش.

يضع النظارة الشمسية في جيب حلته الأمامي.

الراهب

تشاهد جيني فيدا، مفتونةً وهو يطلق دوائر رائعة من الدخان من فمه. تلتقط إحدى الدوائر المتصاعدة بفمها قبل أن تتلاشى. ثم تشرع في الضحك، ضحكًا لا تتحكم فيه، ضحكًا يعدي. لا يمكنه إلا أن يضحك هو الآخر. يجلس هو، وتستلقي هي على أحد الأحجار في الساحة الخلفية، وكلاهما منتشٍ بحشيش تونجا الأصلي. بالليل نسيمٌ عليل يبعث على الارتياح. خرجا ليشاهدَا النجوم، النجوم اللامعة والتي بدت قريبة للغاية في سماء سوداء كالحبر، إلا أنهما لم يفعلا شيئًا سوى النظر إلى بعضهما بعضًا.

يمد يديه ويجذب رأسها برفق نحو رأسه. تبتسم وتميل عليه تقبِّله. لم يقبِّل أحدهما الآخر من قبل. تتلامس شفتاهما، تلامسًا خفيفًا، مترددًا، على نحو غير مكتمل.

حينها يدرك فيدا تمام الإدراك أن هذه اللحظة غير حقيقية، ويحاول بكل قوته أن يتعلق بهذه اللحظة، بتلك الذكرى داخل الحلم، ولو لدقيقة أخرى، إلا أن لمسة جيني تتلاشى، بكل قسوة، وعلى نحو لا يُغتفر.

لكنْ، لحسن الحظ تبقى الرائحة، رائحة الفانيلا الدافئة، على ياقة قميصه. يفتح فيدا عينيه.

يعميه ضوء الشمس الحاد، وإن كان في الشتاء.

تبدأ عينه في إدراك ما حوله: الرصيف، باردًا، كئيبًا، والسقيفة، ممزقةً، أشعلتها الشمس، والناس يروحون ويجيئون، ضوضاء مرور، وأدخنة بغيضة – قلب المدينة. كان قلب المدينة في تلك اللحظة مينًا، وإن كان يدق على نحو غريب.

متى جاء إلى الشارع؟ منذ ثلاثة أيام؟ أُغلق مخبز داونينجز منذ سنوات، فلم يعد لديه أمان الزقاق، ولا رائحة الخبز الطازج.

يشعر فيدا بشيء يرفرف فوق صدره، فينظر ليجد طائرًا ملونًا. ينظر إليه الطائر نظرةً من تساؤل، ثم يرفرف ثانية، ببعض الصعوبة. جناح مكسور يتعافى.

- ما أزهى ألوانك، أيها الجميل! وودود أيضًا!

يشعر بحاجة ماسة إلى لمس الطائر، أن يمس ريشه الزاهي، ولكن الطائر يحلق مبتعدًا. يرفع فيدا يمناه بشيء من التردد.

حينئذ، يدفع أحدهم بجريدة (ذا كرونيكل) في يده، ويقول: - أنت في العنوان الرئيس.

ثم يمضي في سبيله قبل أن يتبينه فيدا.

يرتاع الطائر، فيختفي، ويشعر فيدا أن شيئًا استُلِبَ منه، ويغضب.

ينظر في الجريدة بين يديه، ليقرأ ما كُتِبَ بخطَ عريض: «الراهب يعود إلى الشارع». يجد صورة له –لفيدا– تحتل نصف الصفحة. لا شك أنها ليست أفضل صوره، وما كان لها، طبعًا، أن تشق طريقها إلى الجريدة إلا لهذا، فقد كان فيها فاغرًا فاه يسيل لعابه، تتدلّى من يده زجاجة من شيء يشربه، ولم يعد يذكره.

وعلى الرغم من العنوان المثير والصورة المحرجة، فإن المراسل، بيكيثيمبا نياثي، ليس لديه الكثير ليكتبه. تقول القصة: - عاد الرجل الذي كان يُعرف سابقًا باسم «راهب الشوارع». بعد أن دنّس الشوارع لأول مرة مع وجوده في الثمانينيات، عندما كان يمكن رؤيته وهو لم يزل يرتدي زيه العسكري بعد فترة طويلة من انتهاء كفاح التحرير، اختفى الجندي السابق دون أن يترك أثرًا في منتصف التسعينيات، وقد عاد الآن، حمدًا لله دون زيه العسكري. السؤال الذي يطرحه الجميع الآن، بالطبع، هو: «لماذا عاد الراهب؟» يقول البعض إنه أحد هؤلاء المزارعين البيض الذين استُرِدّت منهم الأراضى التي كانوا قد حازوها بشكل غير شرعي، كما يقول البعض إن أنشطته غير القانونية (ولا يسعنا إلا أن نتساءل ما هي هذه الأنشطة) قد جنت عليه. ويقول آخرون إنه قامر بثروته الطائلة. متى حانت منه لحظة من صحو، فإنا نود أن نسأله بعض الأسئلة لنعرف حقيقة الأمر.

يستيقظ فيدا، ليجد لديه، أخيرًا، شيئًا يفعله، شيئًا غير الانتظار. يترنح، ويستند إلى الحائط. يعاني من أثر الشراب، ولكنه يعقد عزمه، فهو يحتاج إلى توضيح الأمر، وإعادة الأمور إلى نِصَابها.

فهو لم يُعرف قَطّ باسم «راهب الشوارع». إطلاقًا.

وهو لم يكن قَطّ أحد المزارعين البيض. إطلاقًا.

والشيء الوحيد الذي قامر به من قبل هو حياته، ولم يكن في هذا بدعة من أمره، فما من أحد إلا وقامر بحياته في السبعينيات من القرن العشرين، بطريقة أو بأخرى.

لا بد لهذا الـ «بكيثيمبا نياثي» أن يُخبر بالحقيقة.

يتوقف، ويشعر فجأة بالحيرة. هناك طائر حط على صدره منذ بضع دقائق، أليس كذلك؟ أم أنه كان واهمًا؟ يرجو أن لم يكن كذلك. يريد أن يطمئن إلى أن هذا الطائر الملون موجود فعلًا، وأنه سيشعر بأمان كافٍ معه حتى يحط على صدره.

- كان هناك طائر.. كان لدي طائر.. طائر ملون. منذ لحظات.

هكذا يجد نفسه يسأل امرأة غريبة تمامًا عنه، أو بالأحرى يخبرها. تنظر إليه هذه الغريبة، وهي بائعة متجولة تبيع في الزاوية طماطمَ وبصلًا ذابلًا، وتبتسم، وتبدو عيناها كأنها تخترق روحه. يكرر فيدا قوله، وقد تأكد هذه المرة من أن يصوغه في شكل سؤال واضح: - كان هناك طائر.. كان لدي طائر.. طائر ملون. أليس كذلك؟

- هل تتحدث إليّ؟
هكذا تسأله البائعة، وعلى شفاهها ابتسامة حائرة، وتتابع قولها: - آسفةٌ فعينيّ لا تريان الجمال.
حينئذٍ يدرك فيدا أن المرأة عمياء.
يتمتم، متأسفًا لها، ويمضي في سبيله، ثم يستدير ويقول لها: - ليس هناك جمال يُرَى. لم يعد هناك جمال.
يقولها، وهو متأكد أنها لا تسمعه، فالشارع مليء بالضوضاء. كان فيدا يعتقد أن مظهره الأشعث سيسبب له مشكلة، ولكن يتضح أن الدخول إلى مقر «ذا كرونيكل» والوصول إلى بيكيثيمبا نياثي أمر بالغ السهولة.
- لم أكن مزارعًا أبيض في حياتي كلها.
يقولها، وهو يلقي بالجريدة على مكتب بيكيثيمبا نياثي، مردفًا، وهو يذرع الغرفة ذهابا وجيئة: - الآن أنا في ذروة صحوي، وها أنا ذا، فاسألني لم عدت إلى الشارع.
لا شك أنه في حالة صحو الآن، ودائمًا ما يكون للمشي في الشوارع هذا التأثير عليه، يصفي ذهنه ويساعده على التركيز. وعلى حين غرة، ولشدة حنق فيدا، يجد فيدا نفسه يجاهد لئلا يشعر بالشفقة على بيكيثيمبا نياثي. يريد أن يشعر بالغضب. يحتاج إلى البقاء غاضبًا. الغضب عاطفة نشطة. إنه أفضل بكثير من الرضا والتقبل. نعم يريد هذا، ولكن جلوس بيكيثيمبا نياثي في هذا المكتب الصغير المتهالك يثير شفقته عليه. كيف لا، وكل ما حوله مدعاة للشعور بالحزن، فالكراسي –وليس هناك منها إلا اثنان- قديمة جدًّا، حتى إن مقاعدها قد تآكلت تمامًا تحت سطوة الزمن، والمكتبُ قد وُضِع حجر تحت أحد أرجله لسد الناقص منها، ومن نافذة الغرفة –الوحيدة– تنبعث رائحة كريهة من بولٍ أثرت عليه الشمس، قادمًا من الزقاق الواقع خلف الحجرة. وضع مثير للشفقة. إذا كان على الرجل أن يعمل في هذه البيئة كل يوم، فإن قلمه لا بد أن يكون مسمومًا. يبدأ بيكيثيمبا حديثه بقوله: - يا صديقي الراهب...
فيقاطعه:
- الاسم هو فيدا.
- فيدا دي فيلييه، أعرف هذا. كيف يمكنني مساعدتك؟
يسأله وقد نجح، إلى حد ما، في أن يبدو كمهني حقًّا، فيرد فيدا: - لم أكن مزارعًا أبيض في يوم من الأيام. لست بأبيض، ولست مزارعًا.
- تبدو أبيض.
- حسنًا. لست كذلك. أنا ملوّن.
- فهمت.

- ولم يعرفني أحد من قبل باسم (راهب الشارع). كل ما في الأمر هو أنهم يدعونني (الراهب).
- أعرف، ولكن عليك أن تُقِرَّ أن (راهب الشارع) له وقع لطيف.
- قد يكون هذا صحيحًا، ولكنهم يدعونني (الراهب) وحسب.
- ألك في قليل من الشاي؟
قالها بيكيثيمبا، ناهضًا فجأة، وتابع:
- سأعد لنا كوبين من الشاي. لديّ شاي أخضر حسن، ترسله لي زوجتي، من إنجلترا حيث هي الآن. سيهدؤك ويعينك على الاسترخاء.
- لا أريد أن أهدأ، ولا أن أسترخي. كل ما أريده هو أن تنشر الحقائق. فيدا دي فيلييه يعود إلى الشارع لأن إيموجين زولا نيوني ترقد في غيبوبة في مستشفى ميتير دي، وهو يرفض، رفضًا قاطعًا، أن يعود إلى المنزل إلا وهي معه.
يتنهد بيكيثيمبا نياثي، ويقول:
- انظر يا فيدا، أنا أعرف بشأن إيموجين، ومحال أن أنشر تلك القصة – قصة رجل يلجأ للشارع لأن زوجته ترقد في غيبوبة في مستشفى ميتير دي.
فيصحح له فيدا قوله:
- لسنا متزوجين.
ويتابع بيكيثيمبا حديثه:
- نحن نعيش في زمن الإيدز. ولدى كل الناس أناس يرقدون في أحد المستشفيات يصارعون الموت. وهذه هي الحقيقة الوحيدة –أن لجميعنا أناسًا يصارعون للنجاة– يجب أن تكون هي العنوان الرئيس كل يوم، ولكنها ليست كذلك. إنه واقعنا، الطريقة التي نحيا بها الآن، حقيقتنا، فمن الطبيعي ألا نقدر على الاعتراف بها، بأن ننشرها. لا يمكننا أن ننشر مثل هذه الأمور، فنحن لا ننشر ما يهم أبدًا، لا ننشر الحقيقة أبدًا، ولكن رغم كل شيء علينا أن نبيع الجريدة بطريقة أو بأخرى. ولذا، فليس لدينا إلا الإثارة. وعلى هذا النحو توجّب أن تكون قصتك. آسف.. حقًّا.
- لا يمكنني أن أعود إلى منزل ليست به.
هكذا يقول فيدا، وقد أزعجه إدراكه أنه على وشك البكاء.
فيقول بيكيثيمبا:
- أعتقد أني سأمضي في عمل الشاي.
مغادرًا المكتب ومستوثقًا من غلق الباب خلفه.
يدرك فيدا أنه قد مُنِح فرصةً ليبكي كما يشاء، ويقدِّر الفرصة.
عندما يعود بيكيثيمبا بعد قليل وفي يمينه الغلاية وبها الماء المغلي، وفي يساره كوبان، كوب مكسور وبالآخر شرخ خفيف، يقول فيدا، وعلى وجهه ابتسامة من حزن: - لقد بكى الراهب. يمكن لهذا أن يكون عنوانك غدًا.

يوجد على مكتب بيكيثيمبا نياثي بضع جوائز وشهادات تقدير. يدقق فيها فيدا. من الواضح أن بيكيثيمبا نياثي هذا كان صحفيًّا ذا شأن في يوم من الأيام. يناوله بيكيثيمبا الكوب ذا الشرخ البسيط، وهو يقول: - هذه (الجوائز والشهادات) من عهد مضى. الثمانينيات والتسعينيات. في تلك السنوات، كان لدينا بعض الحرية، وإن لم تكن مطلقة، للقيام ببعض الصحافة الحقيقية.

ثم يضع كيسًا من الشاي في كل كوب، ويصب عليه الماء المغلي، وهو يتابع: - كانت أيامًا بحق.

يجلس فيدا على أحد الكرسيين الباليين، وقد أدركه الإرهاق فجأة.

- أنا من نشر قصة جولايد جوميدي في الثمانينيات.

يقولها بيكيثيمبا، وصدره ممتلئ فخرًا وعلى عينيه نظرة شاردة، متابعًا: - قابلت إيموجين، وأمها إليزابيث. يا لها من عائلة رائعة! يمكنك أن ترى بمجرد النظر إليهم أن بهم شيئًا مختلفًا. كأنهم يعيشون في عالم خاص بهم. سعداء.. بل في غاية السعادة. وإيموجين كأنها إلهام حقيقي.. مشرقة للغاية، ذكية، وثاقبة. في الواقع أعتقد أنها هي من أجرت معي المقابلة، لا أنا. عارٌ ما جرى! حقًّا عار! أحيانًا أعتقد أني لو لم أكتب تلك القصة، لما جرى ما جرى.

يقول بيكيثيمبا هذا، ويتنهد بحرقة، ثم يعود إلى اللحظة الحالية، وكتفاه يتدليان تحت وطأة الذكرى.

- لقد أنقذ حياتي، جولايد جوميدي أنقذ حياتي. وجدني رابضًا في الأجمة، أستمع إلى جانيس جوبلين.

- كنت تستمع إلى جانيس جوبلين وأنت في الأجمة؟

- كنت في السابعة عشر من عمري، غبيًّا، وكنت مفتونًا بجانيس جوبلين، أصطحبها معي في حلي وترحالي. كانت بندقيته الـ أ. ك. 47 مصوبة إلى هنا (ويشير إلى جبهته). كان بإمكانه أن ينسف رأسي، لكنه لم يفعل.

- وبعد سنوات تزوجت ابنته. أعتقد أن هذا شيء يستحق نخبًا (ويرتشف بعض شايه الأخضر).

- هو حقًّا كذلك.

يأخذ فيدا رشفة من كوبه، غير آبهٍ بالتصحيح لبيكيثيمبا نياثي هذه المرة، ومكتفيًا هذه المرة بأن يتلذذ بأنه هو وجيني متزوجان في عين واحد من الناس.

يسكن (جالين هاوس) جموعُ غفيرة، تعاني كلها من شيء أو آخر. يعج المدخل بالناس، وكذلك تمتلئ بهم الأروقة. كما أن ساحة انتظار الدكتور دينجاني ماسوكو مكتظة. الممرضات في عجلة من أمرهن، عليهن أثر ضغط العمل، ويتعاملن بشكل عدائي، والأطباء يبدون شاردين باردين.

- ألديك ميعاد؟

هكذا تسأل الممرضة الشابة من خلف مكتبها، دون أن تكلف نفسها رفعَ عينيها عن ملفات المرضى التي تعمل عليها. وهذا شيء آخر مما تعج به غرفة الانتظار – أكوام وأكوام من ملفات المرضى.

- لا.

يظهر أثر الامتعاض على وجه الممرضة.

- خذ رقمًا، واستمارةً، ودوّن بها اسمك، وتاريخك المرضيّ وسبب حضورك اليوم. حاول أن تختصر قدر الإمكان. ألديك تأمين طبي؟

- نعم.

يزول أثر الامتعاض عن وجه الممرضة، وتقول:

- تأمينك مع شركة ماذا؟

- أنا هنا لأرى الدكتور ماسوكو.

- كل هؤلاء الناس هنا لرؤية الدكتور ماسوكو. بل إن بعضهم قد حجز ميعادًا.

- إن الأمر متعلق بـ.. بابنته. جيني.

حينئذ تنظر إليه الممرضة، فيبدو في عينيها أنها قد عرفته.

- آه. الراهب. بالطبع. آسفة. كنت أحسب.. إنه مع مريضٍ الآن. لكن إن تذهب إلى غرفة الفحص الثانية، فسيكون معك بعد قليل.

في غرفة الفحص، لا يجد فيدا خيارًا سوى أن يجلس على سرير فحص من جلد صناعي أخضر، فليس هناك سواه، وكرسيّ دوار من الواضح أنه يخص الطبيب. تفوح من الغرفة رائحة المطهرات، نافذةً كأنها تخشى أن يحل بها ولو جرثومة واحدة أو ذرة من قذارة. لا تطمئن الرائحة فيدا، بل تقلقه.

- طابت ظهيرتك مدام سيجوك.

يقولها دينجاني، وهو يسحب الستارة البيضاء ويقرأ من إحدى الاستمارات. أخيرًا يرفع دينجاني عينيه عن الاستمارة، وعلى وجهه ابتسامة سرعان ما تتلاشى: - فيدا! لستَ مدام سيجوك!

- لا، لستُ إياها.

- ماذا تفعل هنا؟

- أتيت لأخبرك أن جيني في غيبوبة. وهي في مستشفى ميتير دي. في العناية المركزة.

- همم!

يجلس دينجاني، ببطء، ويبدو كما لو أنه قد هزمه شيء طال صراعه معه.

يُذكّر دينجاني فيدا بأسد رآه ذات مرة في حديقةٍ للحيوانات في ستوكهولم. كان الأسد وحيدًا، في الجليد، بعيدًا للغاية من السافانا. كان فراؤه أجرب أكلته العتة. كان أكثر كائن بؤسًا رآه فيدا في حياته. عندما نظر إليه فيدا، أشاح الحيوان بناظريه، كما لو كان يخجل من حاله. فهم فيدا حينها أن الأسد فقد

كبرياءه ولذا كان قادرًا على الشعور بالخزي. لم يلق باللائمة على الأسد، وإنما على من أبعدوه عن موطنه الطبيعي.

هذا ما يقوم به دينجاني، جالسًا هناك دون عائلته، بتذكير فيدا به: أسد فقد كبرياءه.

يسأل دينجاني فيدا:

- لماذا؟

ليرد عليه فيدا:

- لم ماذا؟

- لم هي في غيبوبة؟

وعلى الفور يختفي كل ما تبقى لدى فيدا من تعاطف تجاه دينجاني (الذي لا فخر لديه)، فالرجل ليس أسدًا، وإنما نعامة.

يكرر دينجاني سؤاله:

- لم هي في غيبوبة؟

يرد فيدا عليه، محدقًا إلى عينيه:

- لم في رأيك؟

ولا يرفع ناظريه عنه، إلى أن يشيح هو بهما عنه.

- سمعت بشيء، طبعًا، ولكن المرء لا يريد أن يصدق أن شيئًا كهذا صحيح حقًّا.

يشاهد فيدا دينجاني وقد خارت قواه، فانحنى عوده وأصبح خاويًا.

- ماذا فعلت؟

هكذا يسأل دينجاني بهدوء، وهو ينظر إلى أرضية غرفة الفحص ذات المشمع المصمم كرقعة شطرنج من الأسود والرمادي.

لا يعرف فيدا إذا ما كان دينجاني قد وجه السؤال إلى نفسه أم إليه، ويقرر أن يرحل قبل أن يعرف الإجابة. يثب عن السرير، ويقصد الباب.

- إنها غلطتك. غلطتك.

يقولها دينجاني بصوت عالٍ هذه المرة، ولكنه لم يزل ينظر إلى الأرضية، ويظل فيدا لا يعرف إلى من يوجه دينجاني سؤاله.

- سيتحطم ماركوس.

هكذا يقول دينجاني بينما يفتح فيدا الباب، ويتابع: - إنهما مرتبطان ببعضهما على نحو كبير، ماركوس وجيني. ربما يكون من الأفضل ألا تخبره. ليس الآن.

يصفع فيدا الباب خلفه، دون أن يلتفت.

ماركوس

هذه هي النهاية. يشعر ماركوس بهذا شعورًا عميقًا. لا يكاد يتبين جيني من بين الغبار. يراها تفتح فاهًا لتقول شيئًا، ويكون الصوت الخارج من فمها ليس صوتها، وإنما صوت كارين كاربينتر، وهي تغني أوائل أغنية «كولنج أوكيوبانتس أُفّ إنتربلانيتري كرافت».

يستيقظ ماركوس جَفِلًا، ويجد كارين كاربينتر تغني «كولنج أوكيوبانتس أُفّ إنتربلانيتري كرافت»، ولكن في نغمة هاتفه. يمد ماركوس يده ويتناول هاتفه، ليرد. على الطرف الآخر صوت أمه، متقطعًا. يعتدل في جلسته، ويقول: - آسفٌ أمي، فالشبكة هنا سيئة.

تتحدث أمه بصوت أعلى، وأوضح، لكنّه لا يميز سوى كلمةٍ واحدة – «غيبوبة». الساعة الآن 4:37 صباحًا. تعيش أمه الآن في بلجيكا، حياةً جديدةً، لنفسها. يشك بقوة أنه هناك رجلًا آخر في حياتها. لو أن هناك خطبًا حل به، هذا الرجل الجديد في حياتها، فما كان عليها أن تتصل.

- من في غيبوبة، يا أمي؟

هذه المرة لا يميز إلا كلمةً واحدة – «أب».

- أهو أبي؟ أحدث له شيء؟ أهو في غيبوبة؟

- ليس.. أب.. أخت..

تصدر زوجة ماركوس –إيزميه– النائمة إلى جواره صوتًا يتبيّن منه أنها تغط في النوم، وتقترب منه. تنتقل عقارب الساعة فوق طاولة بجوار السرير من 4:37 إلى 4:38. ينهض عن فراشه، ويذهب ليقف بجوار النافذة.

- هل حدث شيء لكريسِل؟

- لا، ليس لكريسِل، إنما لجيني. جيني في غيبوبة.

يسمعها، هذه المرة، بوضوح كافٍ، ولكنه يجد نفسه يعتذر مرة ثانية، ويقول: - آسف، أمي. لا أفهمك تمام الفهم.

- اتصل أبوك بي. دخلت جيني في غيبوبة منذ بضعة أيام. بالطبع لم يخبر فيدا أباك في حينها. تلكّعَ...

قاطعها ماركوس:

- جيني في غيبوبة؟

وهو يحاول أن يخفي انفعاله، دون جدوي.

- لا أريدك أن تقلق يا ماركوس. أنا على يقين من أنها ستكون بخير، طبعًا.

تقول أمه هذا في عجالة لا تقنعه ولا تطمئنه.

يحاول ماركوس أن يبدو مقتنعًا، ومطمئنًا، وهو يقول: - بالطبع.

- تعرف جيني وكم هي قوية.
يمكنه، من رعشة صوت أمه، أن يعرف أنها تحاول أن تبتسم فلا تفلح.
- ناقشت الأمر أنا وأبوك، وقررنا أنه من الأفضل أن أذهب إلى المنزل. أبوك بمفرده. وهذا.. همم! لا يحسن به أن يكون في المنزل بمفرده في وقت كهذا.
يعرف ماركوس أن صمته يُزعجها، فأمه لم تحب الصمت قَطّ.
- والآن، يا ماركوس، أريدك ألا تتخذ أي قرارات متسرعة. ليس عليك أن تذهب إلى المنزل. سنعالج أنا وأبوك هذا الأمر.
- ما هذا بالضبط الذي يحتاج إلى معالجة؟
- ليس.. المنزل.. جيني..
يتقطع صوت أمه مرة أخرى.
يعتذر لأمه، بقوله:
- آسفٌ أمي. الاتصال هنا سيئ.
ثم يغلق الهاتف. لا يسمع الآن إلا دقات قلبه، سريعةً.
المنزل.. فكرته عن المنزل دائمًا ما تبدأ برائحة شيء دافئ، مريح.. رائحة الفانيلا، ودخان الخشب. ثم تأتي الصورة. يدخل ضوء القمر من خلال النافذة ويسقط على السرير الضيق. جسم جيني تغطيه بطانية رقيقة رثة، وظهرها ناحيته. يعرف أنها واعية بوجوده إذ ترفع البطانية بيدها. ليست متيقظة تمامًا. لا تدير وجهها لتواجهه. يصعد إلى الفراش، فيصر زنبرك السرير تحت المرتبة النحيلة –يشعره الصوت بالراحة. المرتبة مترهلة والسرير منخفض عند المنتصف، فينزلق نحوها. يشبك قدميه الباردتين مع قدميها الدافئتين، فلا تتضايق. يحتضنها بذراعيه، ويجذبها إليه. تقول شيئًا يبدو مألوفًا على نحو مبهج:
- هل تذكرت أن تغلق حظيرة الدجاج؟
يجيب:
- همم!
ينظر إلى شبكة البعوض فوق السرير. رائحة الفانيلا ودخان الخشب محتبسة في شبكة البعوض، وفي المرتبة، في البطانية الرقيقة، وفي قميص نومها البالي، وفي شعرها وبشرتها. يأخذ أنفاسه بعمق، ويغط في نوم عميق، دون حتى أن يحاول النوم.
المنزل. الحرم المقدس. الملاذ الآمن. كيف كان الحال ليكون لو أن والديه لم يأتيا ليأخذاه من مزرعة بوفورد؟
يطلع الفجر. منذ متى وهو واقف هنا؟ تشير الساعة إلى جوار الفراش إلى 5:42. يجيل نظره في الغرفة -السرير ذو الأعمدة الأربع، سرير عتيق ثقيل (موجود عند عائلة إيزميه من أجيال)؛ الخزانة المصنوعة من خشب البلوط، هناك خزانتان متطابقتان منها: واحدة تخصها والأخرى تخصه. وكلتاهما ليستا

إلا غرضًا للزينة، فماركوس وإيزميه لديهما ويستخدمان خزانة كبيرة من تلك التي يدخل الناس إليها؛ المتّكأ، والذي لم يُستخدم قَطّ، إلا أنه يبدو جميلًا إلى جوار الهاتف ذي المظهر الأثري، والذي يعمل بشكل تام، والذي نادرًا ما يُستخدم في تلك الأيام، وفي الزاوية تلك المجموعة من الحقائب التي أبلاها الترحال وتعاقبت عليها السنون، والتي اشتراها في مزاد لأنها تذكّره بشيء ما –لعلها رحلة لم يقم بها– والتي تُشعره بالحنين بطريقة أو بأخرى.

يذهب إلى الحقائب، ويفتح واحدة منها ويخرج منها نسخة أطلس 1965 التي أرسلتها إليه جيني. يحاول ألا يفكر في السبب الذي جعله يختار أن يضع الأطلس في هذه الحقيبة وهو يتصفحه ليصل إلى الصفحة التي طالما زارها: الصفحة ذات بصمة اليد الصغيرة البنية المحمرّة.

يرى ماركوس إيزميه في الفراش. يعيد الأطلس إلى الحقيبة بسرعة. تمتد يد إيزميه، باحثة عنه، وعندما لا تجده تستيقظ، مذعورة، وتشعر بالقلق على الفور، فتُجري عينيها في الغرفة، سريعًا، حتى تجداه. تشعر بالارتياح، ويبتسم لها، ليطمئنها.

- يا له من صباح جميل!

تنهض إيزميه من الفراش، وتتجه نحوه، وهي تسأله: - ألديك مشكلة في النوم ثانيةً؟

- قليلًا.

تلف ذراعيها حوله، ويأخذ إحدى يديها، ويطبع عليها قبلة، وهي إيماءة قديمة، اعتاداها بمرور الوقت.

- هل تلقيت مكالمة أثناء الليل؟

- نعم.

- أكل شيء على ما يرام؟

- لقد كانت أمي هي من حادثتني.

- ألم تزل تعتذر؟

- شيء من هذا القبيل.

- ماركوس؟

تقولها، وهي تحاول أن تديره، أن تجعله يواجهها.

- سقط كل شيء، سقط، سقط تمامًا!

من الذي سمعه ماركوس يردد هذه القصيدة من قبل؟ جيني؟ كريس؟ «سقط كل شيء، سقط، سقط تمامًا!» هذا هو ما حدث لأشجار شبابه. لقد قطعت أمه كل أشجار الجكراندة في باحة منزلهم. قطعتها، ثم تركت زوجها وعادت إلى بيتها في بلجيكا منذ بضعة أشهر. لم فعلت هذا؟

يحل ماركوس ذراعي إيزميه عن خصره، باذلًا كل ما يستطيع من جهد لئلا يبدو أنه يفعل هذا اعتراضًا.
لحسن الحظ، يرن هاتفه. ينتظر أن تغادر إيزميه الغرفة قبل أن يجيب الهاتف.
- أبي؟
- أخبرتني أمك أنها اتصلت بك. طلبت منها ألا تفعل ذلك، لأني لم أرد أن أسبب لك القلق. لم تخبر كريس بعد، أليس كذلك؟
- لا. لم أخبرها بعد.
- من الأفضل ألا تفعل، فأنت تعرف كريس. وأيضًا ليس هناك ما يستدعي القلق. ستصبح جيني على ما يرام. تعرف كم هي قوية. ستتعافى. ستـ...
تسلل إلى صوت أبيه شيء لا يحبه ماركوس – الخوف.
في العمل، دائمًا ما يكون أبوه هو من يتولى شأن كل شيء، وهو من يدير دفة كل الأمور. وهذا الرجل الذي يتعثر في كلماته، ويبحث بحثًا أعمى عن أي بادرة تطمئنه، ليس أباه. يحب ماركوس أباه الواثق من نفسه، أما هذا الرجل فهو لا يحبه، وإنما يريد أن يجرحه.
يقول ماركوس، لهذا الرجل:
- إن جرى أي شيء لجيني، فستكون غلطتك.
تفاجئه الكلمات، حتى إنه ليرغب في أنه لم يقلها.
لكن الكلمات لا تفاجئ أباه. بل لكأنه يتوقعها.
- أنت محق. بالطبع، أنت محق. إنها غلطتي. كل شيء غلطتي.
ينقطع الخط، ويسود الصمت.
يغمر ماركوس شعور مرعب بالوحدة. ينقر على الفور رقم كريس، فيرن هاتفها ويظل يرن لفترة طويلة. لعلها غاضبة منه لأذى سببه لها إلا أنه لا يذكره.
- مرحبًا. هذه كريسِل ماسوكو. رجاءً، اترك رسالتك بعد الصافرة.
- كريس. هذا ماركوس. أيًّا كان ما يجري معك، عليكِ أن تظلي على اتصال بعائلتك. جيني في غيبوبة. أنا في حاجة إلى الذهاب إلى المنزل. أحتاج إلى أن أكون معها.

كريسِل

عندما تقترب كريسِل من البناية التي تقع بها شقتها، تبحث في حقيبتها عن مفاتيحها، والتي –كالعادة– قد غاصت في قعر الحقيبة. تتجاهل رنين الهاتف. تأتي المكالمة الثالثة. يبدو أنه لا يفهم التلميح. آخر مرة اتصل بها بمثل هذا الإلحاح كان يريد أن يتحدث عن أشجار الجكراندة التي جزتها أمهما. تقول في نفسها: «أريد أن أُتْرَك لحالي»، وعلى الفور، يتوقف الهاتف عن الرن كما لو أنه سمع قولها.

في تلك اللحظة، تلمس قدمها شيئًا، توشك أن تطأه، فتسري قشعريرة في جسدها.

هناك شيء على الأرض، ميتًا. تشرع في السير مبتعدة، ولكنها تجد نفسها عائدة لتدقق في الأمر. تجد طائرًا صغيرًا خرج من البيضة لتوِّه، كسيرًا، ملقى على الأسمنت. يعلو صدر الطائر، ثم يهبط، ليعلو ثانية. إنه يتنفس. وقلبه لم يزل يدق. لم يزل حيًّا. تسمح أخيرًا لنفسها بإطلاق ما انحبس من أنفاسها.

تنظر إلى الطائر، وعلى الفور تقرر أنه ذكر، حتى وإن لم يكن لديها من سبيل لمعرفة هذا. إنه بالغ الضآلة. تنظر فوقها، لترى قمم أشجار، وأسطح، لكنها لا ترى عشًّا بالجوار. من أين سقط هذا الطائر؟ لا بد أنه سقط على بعد مسافة كبيرة. إنه لأمر مدهش أنه لم يزل حيًّا. تبادر لمساعدته، ثم تكف نفسها عن ذلك. إن ساعدته، فهل تسديه معروفًا حقًّا أم تؤذيه؟

تسمع صوتًا حادًا، معدنيًّا.

(تشن- تشن)!

تلتفت إلى الصوت الحاد المعدني. طائر آخر. يتقافز حسّونٌ كاليفورنيٌّ بالغ على مقربة منها، يراقب الوضع. الأم. فجأة تمتلئ كريسِل خوفًا وشكًّا. هل ستهاجمها الأم إن رفعته عن الممر ووضعته في مكان آمن؟ هل سترفض الأم صغيرها إن لمسته كريسِل؟ لقد سمعت من قبل أن هذا قد يحدث، أن ترفض أمهات الطيور صغارها متى لمستها أيادي البشر. لكنْ لا يمكن للمرء أن يصدق كل ما يسمع، خاصة عن الأمهات.

يشعر الصغير بوجودها، فيرتعب، ويحاول أن ينهض ويبتعد. يحاول للحظات أن يقف على ساقيه، ثم يستسلم. يغلق عينيه، ويشيح برأسه عنها بصعوبة بالغة، سامحًا لما قد يجري –أيًّا كان– بأن يجري. ربما يحسب أنها ستؤذيه، وتشعر هي بالحزن لأن تعرف أنه قد وطّن نفسه على تقبل هذا المصير. الحياة قاسية. يا له من درس قاس يتعلمه في صغره هذا!

إنه شيء سبق لها أن فعلته هي أيضًا –توطين نفسها على تقبل مصيرها، حياتها، بكل ما فيها من خيبات أمل، أحدثها أطروحة دراستها التي بقيت ثلاث

سنوات دون أن تكتب، وشهادة الدكتوراه التي لم تحصل عليها بعد ست سنوات. تسأل نفسها إن كان هذا هو كل ما في الحياة –تقبّل المصير، والذي قد يكون أو لا يكون أفضل من الانتظار. انتظار الوقوع في الحب، انتظارًا أبديًّا، غبيًّا. انتظارها أن تنسج شيئًا (ربما لشخص ما) من أكوام الصوف التي أرسلتها لها جدتها سنة بعد سنة. انتظارها أن تحقق واحدًا من تلك الأحلام الخيالية الرائعة التي طالما حلمت بها في طفولتها –أن تصبح راقصة باليه ذائعة الصيت، من إفريقيا، أو عارضة أزياء شهيرة طولها خمس أقدام وأربع بوصات، أو زوجةً مخلصة، لزوج بالقدر ذاته من الإخلاص، زوج يكون، بالطبع، مهندسًا.

لا يتعدى حجم الطائر الصغير حجم إبهامها. في الواقع هي ترى حركات قلبه الذي لم يزل ينبض. طائر لونه رمادي داكن، له خصلات متناثرة من الريش الناعم، ككتل فضفاضة من صوف القطن الرمادي الناعم. تقع إحدى الخصلات على قمة رأسه –كالعرف– لتمنح وجهه سمة من سمات الثوار. لسان الصغير يخرج من فمه. هل للطيور ألسنة؟ حسنًا، أيًّا يكن الأمر، فعليها أن تبعده عن طريق الأذى. تفتش في حقيبتها باحثة عن شيء ترفعه به.

تجد بطاقة بريد استلمتها مؤخرًا وعليها صورة لشلالات فيكتوريا على وجهها، بطاقة بريد استلمتها من تلك التي كانت أختها في يوم من الأيام، من جيني، والتي خطت على ظهر البطاقة، بخط يدها المتموج الأنيق، هذه الكلمات: «تذكري، سيكون هناك وقت للأفيال السابحة»، ليست لدى كريسِل أدنى فكرة عما تعنيه هذه الكلمات. لطالما كانت جيني.. مُلغزةً، ولكن كريسِل الآن ممتنة لأنها وجدت للبطاقة عملًا مفيدًا. ترفع الصغير عن الأرض، بكل رفق، وإن لم يكن كافيًا.

(تشن تشن)!

تضعه بكل حرص مستطاع وسط بعض الشجيرات، حيث يمكن للأم المراقبة أن تراه. لم تفعل كثيرًا، ولكنها ترجو أن يكون كافيًا. يعبث الهواء بخصلات شعره الرمادية الناعمة وحينها فقط تدرك أن الرياح شديدة. هل هذا ما عجَّل بسقوطه؟ بيئته القاسية؟

(تشن تشن)!

هل ستأتي الأم لتحميه؟ هل ستبقى معه أم تطير إلى العش؟ هل يمكن للأم أن تحمل صغيرها إلى العش؟ هي لديها من القوة ما يمكِّنها من ذلك؟ تدور كثير من الأسئلة برأس كريسِل. ما كل جهلها هذا بعالم الطيور؟

فعلت ما في وسعها، وسوف تضطر إلى ترك الأمر عند هذا الحد. تبتعد بسرعة، دون أن تنظر خلفها، وهي لا تريد أن يطغى عليها الشعور، رغم أنها تعرف أن الوقت لتجنب مثل هذا الشعور قد فات بالفعل.

لم تكد تنزل حقيبة يدها في شقتها، حتى قررت العودة وتفقد الصغير، لتجده قد ترك البطاقة البريدية إلى الأرض الباردة الرطبة -ربما بمحض إرادته، وربما

مدفوعًا بالريح. لا تبدو الأم في أي مكان قريب. لعلها عادت إلى العش. أهذا لأن كريسِل قد لمسته؟ حسنًا، لا يمكنها تركه بمفرده، أليس كذلك؟ ليس هناك أي شيء آخر يمكن القيام به. سيتعين عليها أن تأخذه من الأرض الباردة الرطبة، ومن الريح إلى شقتها.

تعود إلى شقتها وتهيئ له مكانًا. لقد عاشت في الشقة ذاتها لست سنوات، ولم يزرها أحد مطلقًا، فهي لم تدعُ أحدًا للزيارة قَطّ، ولم تتكبد قَطّ عناء جعل شخص يشعر بأنه محل ترحاب، بأنه في بيته. الأمر كله غريب عليها. ما الذي يجعل الطائر الصغير، الكسير، يشعر بالأمان؟ مكانٌ دافئ. ترفع درجة حرارة الغرفة. ماذا تفعل الآن؟ تهيئ له وعاءً لا يقيد حركته، وعاءً يتيح له بعض الحرية في الحركة والتنفس. وجدت على الفور سلة فواكه صغيرة. ممتاز. تفرشها بمناديل ناعمة. سيحتاج إلى مزيد من الحماية في بيئته الجديدة، بيئته غير الطبيعية. تجد صندوقًا كرتونيًا مناسبًا، لكنها تحتاج إلى تدفئته. تضع بعض كرات الصوف التي أرسلتها لها جدتها في الصندوق. أخيرًا تجد لها فائدة. تتذكر صوت الأم الحاد المعدني، وعلى الفور تفكر في (إلا فيتزجيرالد) كبديل. تبحث في قائمة الأغاني، حتى تجد أغنية (مستر باجَانيني) وتديرها.

تخرج مرة أخرى، وتحاول أن تنقله، في بطاقة البريد، بأمان إلى الوعاء المريح. ترتعش يداها، ويغمرها شعورٌ بأن عليها أن تسرع. تشعر بانزعاج شديد، فقد تشابكت البطاقة مع الشجيرات. تحاول أن ترفعه. هل كان بهذه الهشاشة والضعف من قبل؟

لا يمكن أن يكون هذا. إنه يسقط مرة أخرى. يستقر على الأرض ويحدث صوت ارتطام بالغ الضعف. يتوقف قلبها للحظات، ولكن قلبه يظل ينبض.

يفتح فمه، ويخرج صرخة واهنة، طويلة.

- أعرف، أعرف.

تناور بعناية حتى تستل بطاقة البريد من الشجيرات وتضعه برفق في الوعاء. يسند الطائر رأسه على حافة الوعاء، مغلق العينين، زامًا منقاره، بعزم وعناد. لأول مرة يخطر لها أنه مقاتل، بل وربما يكون ممن ينجون من الكوارث، ثائرًا، صاحب قضية. تستضيفه في بيتها.

تذهب كريسِل إلى الفراش مبكرًا وتبكي إلى أن تنام. يوقظها رنين هاتفها. ماركوس. لا تجيب. تذهب للاطمئنان على الصغير. لم يزل حيًّا. حمدًا لله. رجاءً، لا تمُت! أرجوك! لم تكن تلك صلاةً، وإنما كانت طلبًا. إنها لا تصلي، رغم أنها تؤمن بالله. كل ما في الأمر هو أنها تعلمت منذ زمن بعيد أنه لا يستجيب لصلواتها.

تشاهد الفجر وهو يبزغ وسط الضباب. كل ما تسمعه هو دقات قلبها وصوت نفسها. تتفقد الطائر. تراه بوضوح. صدره يعلو ويهبط. إنه حي، يتنفس. حمدًا

لله أنه لم يزل هنا. لقد كانت محقة بشأنه. أنه ممن ينجون من الكوارث، ثائر، ذو قضية.

- اتصلت منذ قليل بشأن طائر صغير؛ حسّون كاليفورني.

هكذا تقول كريسِل لرجل بالغ الطول يرتدي زي مستشفى، وهو يضبط نظارته، وهي تضع الصندوق على المكتب أمامه. يمد الرجل يديه إلى دفتر ملاحظات وقلم.

- الاسم؟

يقولها وهو ينظر إليها شزرًا دون حتى أن يحاول أن يبتسم.

- مستر باجانيني.

ينظر الرجل إليها شزرًا مرة أخرى، ويقول: - الاسم الأول؟

- لم أعطه اسمًا أول.

يعلو العبوس وجه الرجل، فتقول:

- آه! تعني اسمي؟ كريسِل ماسوكو.

يزداد الرجل عبوسًا، فتتهجى اسمها، واسم أبيها حرفًا حرفًا.

ينظر في الصندوق نظرة سريعة، ثم يرفعه بعناية، ويمضي به، ثم يقول وهو يمر عبر باب مزدوج: - طائر صغير، حسّون كاليفورني، إلى الحضانة.

ليرد صوت من الداخل:

- الرقم؟

- لقد أسمته (مستر باجانيني).

- أسمته؟

لا تعرف كريسِل ماذا تفعل. أهذا كل ما في الأمر؟ هل كان عليها أن تلتقط له صورة؟ كان عليها أن تأخذ له صورة، فدون صورة له قد تنساه، وهي لا تريد أن تنسى (مستر باجانيني).

يرن هاتفها. إنه ماركوس مرة أخرى. تتجاهله.

يعود الرجل عبر الباب المزدوج، ويعيد ضبط نظارته، ثم يتوقف فجأة في وسط الغرفة، ويعلو وجهه العبوس. لا شك أنه مندهش لأنها لم تزل واقفة هناك.

- أهناك شيء آخر؟

يقولها، وهو يتحسس جيوبه كما لو أن هذا (الشيء الآخر) قد يكون في جيوبه، ثم يتابع: - هل كنتِ تريدين استعادة الصندوق.. أو بطاقة البريد؟

- الصندوق؟ بطاقة البريد؟ لا. لا. أنا.. همم! آسفة، لم أعرف اسمك.

- زاندر دنجرفيلد.

لترد كريسِل على الفور:

- إن لك اسمًا يليق ببطل خارق.
ثم تمسك عن الحديث.
يبتسم ابتسامة سريعة مدهشة، ثم يسألها:
- هل أنتِ في حاجة إلى إنقاذ؟
يسألها، هذه المرة، دون أن يرمش. تلتقي أعينهما، ويطيل النظر في عينيها، ثم يقول: - فتاة في مأزق؟
حينئذ تكون كريسِل هي من ترمش بعينيها رمشًا سريعًا متكررًا. أهو يغازلها؟ أم يحسب أنها تغازله؟ أهي تغازله؟
ترد، وهي تشعر بالسعادة لأنها وجدت شيئًا، أي شيء، تقوله، وهي تبحث بحثًا أعمى عن الباب، وقد غمرها فجأة إحساس بأن شعورًا لم تعتده من قبل يحاصرها، ويدير الأرض بها: - سأتصل لأطمئن على (مستر باجانيني)، شكرًا زاندر.. دنجرفيلد.
تتحرق لفعل أي شيء، فتجد نفسها تضغط أزرار هاتفها. لديكِ تسع رسائل جديدة. الرسالة الأولى.. حمدًا لله إنها الآن بالخارج.
- أحتاج إلى أن أذهب إلى المنزل. أحتاج إلى أن أكون معها.
تستمع كريسِل إلى هذه الجمل مرة تلو المرة. «أحتاج إلى أن أذهب إلى المنزل. أحتاج إلى أن أكون معها»، لا يمكنها استيضاح ما في الرسائل الأخرى. كيف يمكن أن تكون جيني –التي كانت في يوم أختًا لها، والمليئة بالحب، والحياة، والضحك– في غيبوبة؟ «أحتاج إلى أن أذهب إلى المنزل. أحتاج إلى أن أكون معها»، تعيد تشغيل الرسائل. تفهم هاتين الجملتين الأخيرتين فهمًا تامًا. هذا هو أخوها –ماركوس– يلعب، ثانيةً، دور البطل.
لو أن ماركوس هو البطل مرة أخرى، فلا يمكن أن يعني هذا إلا شيئًا واحدًا. في هذه القصة –هذه القصة غير المختلقة، والتي ليست من خيال الأطفال، القصة الواقعية، والتي ينتهي الحال فيها بجيني في غيبوبة– لن تكون كريسِل إلا الشخص الشرير. ولا مهرب من تلك الحقيقة.

إيزميه

وبتلك البساطة، وفجأة، أصبحوا ذلك الشيء مرة أخرى، عائلة.
عائلة لا تتضمنها، إيزميه.
هناك جدّة–يونيس، وجد–دينجاني، وأم–ثاندي، وابن–ماركوس، وابنة–كريسِل، وابنة بالتبني، جيني. عائلة، كاملة. لم يتحدث أحد منهم مع الآخر منذ أكثر من ثلاث سنوات، منذ حادثة أشجار الجكراندة ورحيل ثاندي إلى بلجيكا. ولكن ها هي جيني تجمع بينهم مرة أخرى.
لقد قرروا، كعائلة واحدة، وبعد كثير من المكالمات الهاتفية، أن يعودوا إلى المنزل ليكونوا مع جيني.
لم يكترث أحد لها فيطلب منها، من إيزميه، أن تنضم إليهم. بل لقد نسوا أنها تحب جيني أيضًا.
قبل سنوات، فتحت إيزميه عينيها لتفاجأ بأن تجد نفسها جالسةً في المقعد الأمامي لسيارة بالغة الصغر. كان شخص غريب يتحدث إلى منسق الأغاني في إذاعة (أول هيت راديو شو)، وكان هناك صوت امرأة تضحك بشكل مُعْدٍ.
شعرت إيزميه بالارتباك. أين كانت تحديدًا؟ بدأ صوت كارين كاربينتر في غناء (كولنج أوكيوبانتس أف إنتربلانيتري كرافت).
كان الأمر كله يدعو للقلق.
آخر ما تتذكره إيزميه هو كريسِل في المطار وهي تقول، بطريقتها الساخرة المعهودة: - مرحبًا بكِ في إفريقيا.
وتذكر معه حرارة الجو الخانقة.
والآن، إلى جوارها شابة تقود السيارة، منكفأة على عجلة القيادة. كانت.. كانت ملونةً، ترتدي فستانًا حيك من قطع مختلفة من القماش، ووشاحًا متعدد الألوان، ولكن ألوانها ليست نابعة من هذا فحسب. فشعرها له لون اللهب، وهو يصنع فوق رأسها هالة بنية بدرجة من الكهرمان، هالة إفريقية، وبشرتها داكنة، ناعمة، لها وهج ولمعة، وعنقها البني المحمرّ كشجرة الماهوجني طويل، جميل. لديها خدان بارزان، وعينان تشبهان اللوز. كانت تبدو كشيء جدير بأن يرسمه فنان – لا تناسق، وملامح مبالغ فيها، ولكنها جميلة بطريقة أو بأخرى، ربما لأنها مختلفة جدًّا، أصلية جدًّا، وفريدة.
قالت إيزميه، وهي تنظر إلى المرأة: - يا لجمالك!
نظرت المرأة إلى إيزميه، وابتسمت لها، ابتسامة مشرقة. كان هناك فجوة بين ثنيتيها.
- اعذريني على سوء أدبي.
هكذا ردت المرأة فجأة، متابعة:

- أنا إيموجين زولا نيوني. الكل يناديني (جيني)، الأصدقاء والأعداء. يمكنك أن تناديني (جيني)، أيضًا. أنا...
ساد الصمت للحظات. ثم سألت جيني كريسِل وماركوس من خلال مرآة السيارة الخلفية: - من أنا؟
لترد كريسِل:
- أنت من كانت أختنا في الماضي.
ردت جيني بابتسامة راضية:
- يعجبني وقع تلك الكلمات. أنا من كانت أختهما في الماضي.
قال ماركوس، محاولًا توضيح الأمور: - أبي وأمي تبنياها.
فقالت جيني بابتسامة براقة:
- لكن الأمر لم يدم.
ليرد ماركوس، بشيء من الضيق:
- تركتنا وذهبت إلى الراهب.
قالت جيني:
- من الواضح أنكم لم تغفروا لي بعد.
وهي تنظر إلى ماركوس في المرآة، وعلى وجهها تعبير يصعب تفسيره.
رغم أنّ جيني باحت ببعض الأمور، فإنّ إيزميه لم تعرف الكثير عن تلك المرأة، الزاهية البراقة، التي –وإن كانت حاضرة– بدت كأنها قد تتلاشى في أي لحظة. بدت جيني كما لو كانت على وشك الاختفاء بنفس البساطة التي ظهرت بها.
- لا تتعبي نفسك بمحاولة فهم جيني. ليس بمقدور أحد أن يفهم جيني.
هكذا قال ماركوس، وهو يبدو غاضبًا على نحو غير معهود.
صرّت إطارات السيارة، إذ توقفت فجأة، ووثبت جيني منها.
ما إن خرجت جيني من السيارة، حتى سألت كريسِل ماركوس: - هل تعتقد أننا على ما يرام؟
- أظن ذلك.
كانت إيزميه على يقين أنهما يتحدثان عن جيني. ولكن عن أي شيء بخصوص جيني؟ لم تستطع أن تكف نفسها عن التفكير في أن هناك شيئًا مأسويًا يخصها، سرًّا جعل ماركوس لا يحدِّثها عنها أبدًا.
عادت جيني إلى السيارة، وهي تمسك باقة من الزهور البرية باللون الأحمر والأصفر.
أعطت جيني الزهور لإيزميه، وهي تقول: - الزنبقة اللهبية. زهرتنا القومية. مرحبًا بك.
- شكرًا.

قالتها، وأضافت –كأنها تريد أن تمنح جيني شيئًا في المقابل، فلا تجد إلا كلمات المواساة: - يحزنني أمر أبيك وأمك.

- ماذا عنهما؟

- كنت أحسب أنهما.. لأنك متبناة.

قالتها مترددة.

- لا.. لم يمت أبواي، إنما طارا.

قالتها جيني، وقد علت الابتسامة البراقة وجهها مرة أخرى.

وصدقتها إيزميه. صدقت أن أبوي جيني طارا. صدقت أن جيني نفسها قد تطير في أي لحظة، بل في تلك اللحظة ذاتها، أن تترك عجلة القيادة، وتطير. أن تطير بكل بساطة من نافذة السيارة، لتتجه صوب السماء، وتصبح شريطًا متعدد الألوان في السماء، قوسَ قزح، أو شيئًا يعجب له الناظرون.

نظرت إيزميه إلى الزهور. زنابق لهبية، تشبه اللهيب المتجمد، جميلة بدرجة صادمة. كيف يمكنها إلا أن تحب تلك المخلوقة صادمة الجمال التي أعطتها لها، أخت ماركوس وكريسِل في سابق الأيام، جيني؟

تزوجت إيزميه بماركوس منذ اثنتي عشرة سنة، وهي معه منذ أربع عشرة سنة. حضر والداه حفل زفافها. وكانا هناك عندما وضعت أطفالها الثلاثة. بل إنهما حضرا حفل تخرجها من الجامعة، وتخرجها من مدرسة الحقوق (القانون).

ولكن ها هم الآن، بعد سنوات من جعلها تشعر بأنها فرد من العائلة، يعاملونها كغريبة، يتركونها –إيزميه ماسوكو– في العراء، وحيدةً، لا يرون فيها إلا دخيلًا على العائلة.

لقد كان جمالهم هو ما أغرى إيزميه وجعلها –من البداية تقريبًا– تريد أن تصبح فردًا من أفراد عائلة ماسوكو. لم ترهم على حقيقتهم إلا بعد الزواج – بالغي الهشاشة، لا يمكن أن يتم التعامل معهم إلا بحساسية بالغة. كانت عائلة ماسوكو كتمثال زجاجي، جميل المنظر، صيغ بدقة وصبر، لكن ليس بينه وبين الانهيار إلا نفخة واحدة. كان يجب التعامل معهم بحرص شديد، وكانت دومًا حريصة.

حتى في هذه اللحظة –وهي تضع، بحرص، حُلّة سوداء في قعر حقيبة ماركوس، تحسّبًا، فهي أيضًا تتصرف بحذر. تعرف أن احتمال موت جيني حقيقة ليس آل ماسوكو على استعداد للاعتراف بها بعد، إن لم يكن أمام أنفسهم، فأمام بعضهم بعضًا.

تضع السروال الجينز الذي تحب له أن يرتديه أكثر من أي شيء، وتي شيرت من القطن المساميّ، يلائم السفر، وحذاءً بغير كعب، وثيابًا داخلية، وجوارب، وسترته الجلدية المفضلة.

فعلى هذه الهيئة إذن سيرحل عنها زوجها. هذه هي الثياب التي سيرتديها وهذه هي الحقيبة التي سيحملها وهو يخرج من حياتها.

فماركوس، باركه الله، لا يدري أن هذه هي نهاية قصتهما معًا. لكن إيزميه تعرف أنه إن ماتت جيني، فماركوس، زوجها، هذا الرجل الذي يجبر نفسه على الصفير بلا مبالاة وهو يأخذ حمامه، لن يعود إليها أبدًا.

تعرف هذا لأنها تعرف أشياء لا يعرفها ماركوس عن نفسه. فهو لا يعرف أنه يبتعد عنها في منتصف الليل وهما نائمان؛ وأنه –أكثر من مرة– سألها وهو غارق في ضباب النوم من هي، أنه عندما يستيقظ جفلًا دائمًا ما يكون بعد أن ينادي باسم (جيني)، أنه يذهب للبحث عن جيني كل ليلة، وهو لا يعرف هذا عن نفسه لأن كل شيء في الصباح يكون على ما يرام. ففي الصباح يكون زوجها المحب. في الصباح لا تخبره بشيء مما جرى في الليل. في الصباح تتحرك تحته، وفوقه، وإلى جواره، حتى لا يكون هناك إلا اسم واحد – إيزميه.

تدخل إيزميه إلى الحمام، تخلع ثيابها، وتدنو من ماركوس، وتقبِّله، فتقطع عليه صفيره.

على هذا النحو ستتركه.

ما الذي قالته لها جيني ذات يوم؟

- طريقتي في حبه هو أن أرحل عنه، طريقتك في حبه هو أن تحتفظي به. لم يكن من السهل علي أن أتركه. ويمكنني أن أقول إن الاحتفاظ به لن يكون سهلًا، كذلك، لكني أؤمن تمام الإيمان أنكِ ستفعلين، وعليكِ أن تتحلي بذلك الإيمان أيضًا.

لكن إيزميه تعرف طيلة الوقت أنها تحظى بماركوس في النهار فقط لأن جيني معه في الليل -في ذكرياته، في أحلامه، وخيالاته، أو حتى في كوابيسه. إن ذهبت جيني، فما الذي يجعل ماركوس يعود من المكان الوحيد الذي يعرف أين يجدها فيه – الليل؟

ماركوس وكريسِل

ماركوس، بالطبع، ينظر في الناحية الأخرى، وهاتفه المحمول على أذنه. هاتف كريسِل يهتز في يدها، ولكنها لا ترد.

«نحن لا نسافر لنبلغ مكانًا نقصده، ولكن لنصل بالحب، وفي الحب، لنكون مع من نحب»، هذه هي الجملة المطبوعة على ظهر تي شيرته. جملة عميقة، ليست من الجمل التي يسهل عليها أن تربط بينها وبين أخيها.

تربت على كتفه، فيستدير ناحيتها. لا ترى أمامها رجلًا جاوز الأربعين، وإنما غلام برجلين صغيرتين، يتوق إلى أن يكبر، يصعد درجتي السلم دفعة واحدة. إذن فهذا ما صنعت به غيبوبة جيني –أعادته إلى الحادية عشرة من عمره، ثانيةً.

أنا رجل الستة ملايين دولار، وأنتم الـ...

- أختي الصغيرة.

يقولها، وهو يقرأ وجهها، محاولًا أن يقيس شيئًا ما، ويواصل: - كنت أناديكِ.

- أعرف.

- لكنك لم تردي.

- أعرف.

وهي تُخرج شيئًا من حقيبتها، وتناوله إياه، حزمةً من زهور الجكراندة قدمتها له وهي تقول: - اعتبر هذا غصنَ زيتوني.

وتابعت:

- أوّلُ قطفة.

تبتسم، ويبتسم. ويتعانقان. ما أجمل البدايات!

- يا له من تي شيرت عميق هذا الذي ترتديه!

يتفحص ماركوس التي شيرت كأنه يلاحظه لأول مرة. تتقاطع عليه خطوط حمراء، وبرتقالية، وخضراء وزرقاء، تتقاطع، وتتباعد على نحو عشوائي. يعلو العبوس وجه ماركوس، ويقول: - أجل. أعتقد أنها تشكل متاهةً ما.. عميقة.

ثم يقول وكأنه تذكر شيئًا: - آه! إنه حرف الـ (تي). أنتِ تعرفين نظام النقل في ماساتشوستس.

- أعرف ما هذه الـ (تي)، شكرًا جزيلًا.

تقول كريسِل هذا، وتذهب لتقف خلفه، وتقرأ: - نحن لا نسافر لنبلغ مكانًا نقصده، ولكن لنصل بالحب، وفي الحب، لنكون مع من نحب.

- هل هذا هو المكتوب على الظهر؟

- نعم. ولهذا تخرج هذه الكلمات من فمي. إنه ما يدعونه (القراءة). عليك أن تجربها في يوم من الأيام.
يستدير ليواجهها، وهو يقول: - ملائمة للظرف تمامًا.
- تمامًا. مسكينة إيزميه!
- مسكينة إيزميه؟
- هي من اختارت لك ثيابك، أليس كذلك؟
- أجل.
- تعرف أن هناك كلمةً لوصف علاقتكما!
- حب. تكافل. اهتمام.
- بل (غير صحية).
- هذه كلمتان.
- فـ(عليلةٌ) إذن.
- ماذا تقصدين بقولك (مسكينة إيزميه)؟
- لا أعني إلا ما قلته.. (مسكينة إيزميه).
- كريس!
- تريدك أن تعود إليها.
- لكني لم أذهب إلى أي مكان.
- وهذا ما يقوله رجلٌ ينتظر رحلة في المطار.
- بربك! تعرفين ما أقصد.
تربت كريسِل على كتفه، وهي تقول: - أرجو أن تعرف أنت ما تعنيه إيزميه. وأن يكون هذا قريبًا.

ماركوس

عندما هبطت الطائرة فوق أرض من الحقول الخضراء، والبنية والصفراء، نظر ماركوس من النافذة وتذكر ذلك الوقت الذي كانت فيه حياته بأسرها تدور في واحد من هذه الحقول –مزرعة بوفورد. من مكانه هناك، بدت البلدة مسالمة تمامًا، وفي منتهى الهدوء والسكينة. لكنها لم تكن على أي من تلك الأحوال، منذ حرب التحرير، والتي منذ بدايتها أفسحت الطريق للإبادة العرقية، والاضطراب المدني، والمناوشات السياسية، والهجرة الجماعية –كل هذا في غضون ثلاثين سنة، مدة جيل كامل.

يخرج ماركوس وكريسِل من منطقة استرداد الأمتعة، وها هم أمامه: أمه، وأبوه، وجدته – عائلته. لكم تغيروا، ولكم بقوا على حالهم، لم يتغير منهم شيء!

تتجه أمه نحوهما، فاردة ذراعيها، تمامًا كأنها ممثلة على خشبة المسرح. على شفتيها أحمر شفاه، وابتسامة، لكن عينيها حزينتان -حزينتان لدرجة أن ماركوس لا يستطيع النظر إليهما، خشيةَ أن يرى شيئًا ينعكس فيهما، شيئًا لا يريد أن يعترف به. عيناها هما الدليل الأوحد على أن المسرحية التي تشارك فيها ليست إلا مأساة. تلقي حوله بذراعيها، ولا يجد هو شيئًا يفعله سوى تقبيل العيب الوحيد في وجه أمه الخالي من كل عيب، أثر العضة من اليوم الذي رحل فيه عن مزرعة بوفورد.

صافح ماركوس أباه، مصافحة قوية، حازمة، برجولة تخفي قلة الحيلة التي يشعر بها كلاهما. يشعر ماركوس بالارتياح لما اتفقا عليه ضمنيًّا من أن يشعرا بشيء ويتصرفا على نحو مغاير. إنه اتحاد عائلي صامت، كما يجب أن يكون. يميل ماركوس ليعانق جدته، التي ألجأها ضعف ساقيها إلى كرسي متحرك. ترمقه بنظرة متناقضة، تركز عليه، وإن ظلت نظرة فارغة. ما إن ينزل ذراعيه من حول عنقها، حتى تقبض على يده، وتهمس وقد أشرق وجهها فجأة: - إنهم يخططون للإطاحة بالحكومة.

ينزل ماركوس على ركبتيه أمام جدته، ويربت يدها بطريقة يرجو بها أن يريحها ويطمئنها، وهو يسأل نفسه: من «هم»؟ تبدو سبابة جدته المصابة بالتهاب المفاصل كما لو أنها تشير في اتجاه أبويه.

- من أنتَ؟

هكذا تقول له جدته، فجأةً، وقسمات وجهها تتلوى خوفًا، ومن عينيها تطفح الريبة، وتواصل، صارخة: - من أنت؟ أنت واحد منهم.

- مرحبًا بك.

هكذا تقول كريسِل لماركوس، وهم يخرجون جميعًا من صالة المطار، مسرعين.

كريسِل

(لا يمكنك أبدًا أن تعود إلى المنزل). (لا يمكنك أبدًا القيام بنفس الرحلة مرتين). (الماضي دائمًا بلد آخر). مهما بدت هذه الأمثال مبتذلة، فكلها صحيح، صحيح بشكل مأسويّ، هكذا تحدِّث كريسِل نفسها. إنها لا تعود إلى نفس البلد أبدًا، إلى نفس المنزل. دائمًا ما يتغير شيء أثناء غيابها. الأشياء تتغير فجأة. كهذا المنزل الذي نشأتْ فيه، مثلًا. فما كان ذات يوم مبنى ضخمًا، من طابقين، وساحة مليئة بالجكراندة وأشجار الزينة، وحشيش مشذب دائم الخضرة، ها هو قد أصبح الآن هيكلًا عظميًا ليس به إلا شجرة زينة واحدة (والفضل لأمها)، وحشيش أصفر غير مهذب (والفضل لأبيها). لم يتبدل الحال عبر عقود، وإنما تدهور في سنوات معدودات.

وأمها، تلك الزوجة التي كانت في يوم من الأيام تقف إلى جوار زوجها، توقفت –في مرحلة من المراحل– عن الوقوف إلى جوار زوجها. وأبوها، من كان ذات يوم بستانيًّا متحمسًا، لم يعد لديه حماسة لأي شيء. تغيير. تغيير مفاجئ. تغيير حزين. تغيير –في الحقيقة– مأسويّ.

- أتعلمين، إن سبب عدم حديث ماركوس معك هو الجكراندة.

هكذا تطوعت كريسِل بالحديث، بينما تتوقف السيارة عند أول الممر إلى المنزل. تجد نفسها، كما تفعل دائمًا، تثير الأمور. لا يمكنها إلا أن تفعل هذا، فهذه طبيعتها. تشعر أن عائلتها في حاجة، أو بالأحرى تستحق، أن تستثار.

تسأله ثاندي:

- أهذا حقيقي يا ماركوس؟

- الأمر أكثر تعقيدًا من هذا.

يجيبها، مترجلًا من السيارة، وهو غير قادر تمامًا على إخفاء الحزن البادي في صوته.

- لكني تأكدت من إبقاء شجرة البونسيانا، تلك الشجرة التي أحببت اللعب فيها، والتي كنت تتخذ منها منزلًا. ستفهم لم توجب قطع أشجار الجكراندة بمجرد أن تدخل المنزل.

تقول هذا وهي تجذب ماركوس صوب المنزل.

تشير إلى الشقوق الكبيرة في الجدران، وتقول: - أترى! لقد كانت الجور تدمر أساس المنزل.

ترد كريسِل على الفور: - لطالما كانت هناك شقوق.

يسأل ماركوس، مندهشًا حقًّا:

- هل كانت هناك شقوق؟

تدافع ثاندي عن نفسها، وتقول:

- لم تكن الشقوق بهذا الحجم. لو تركنا الأشجار تنمو، لـ...
تقاطعها كريسِل:
- المهم أنه كانت هناك شقوق طيلة الوقت.
- لا. المهم هو أن ماركوس كان عليه أن يفهم لم قطعنا أشجار الجكراندة. كان هذا لإنقاذ المنزل.
- لقد كانت شجرة جكراندة.
هكذا يقول ماركوس، بالكاد هامسًا.
تسأله ثاندي:
- ماذا؟
- لقد كان (المنزل الشجرة) في شجرة جكراندة، وليس في بونسيانا، فيمكنك أن تمضي وتقطعي الشجرة إن شئتِ.
هكذا يقول ماركوس، وهو يجري يمرر يسراه فوق أحد الشقوق، ثم يستدير ويحاول أن يبتسم في وجه أبويه، لكنه لا يستطيع.
تغيير. تغيير مفاجئ. تغيير حزين. تغيير –في الحقيقة– مأسويّ.
- سقط الجميع، سقطوا، سقطوا تمامًا. لم يبق منهم أحد.
هكذا تردد كريسِل، تاليةً قصيدة (أشجار حور بينسي) لجيرارد مانلي هوبكنز، وهي تشق طريقها أعلى الدرج، وبقية عائلتها في إثرها، وجَدّتها يعينها على الصعود أبو كريسِل، وماركوس، الذي نسيت جدته أنها قد نسيته منذ قليل.
- إذن فأنت من كنت تقرئين هذه القصيدة.
يقولها ماركوس، متابعًا:
- لم أكن قادرًا على تذكر إذا ما كنتِ أنتِ أم جيني.
- كلانا. كان علينا أن نقرأها في فصل المعلمة فينلاي في الصف الخامس. كانت هذه القصيدة فقرة طقوسية في مدرستنا، وقراءتها على نحو صحيح تعني انتقالك –تلقائيًّا– إلى فصل المعلمة فوربس في الصف السادس للمتفوقين. وكانت جيني تحب على وجه الخصوص تلك الأسطر التي بها: (آهٍ فقط لو نعلم ما نفعل. ونحن ننقب أو نحطب –نخترق ونؤلم الخضرة النامية!).
فيقول دينجاني:
- آهٍ فقط لو نعلم ما نفعل...
متكلمًا للمرة الأولى منذ دخول المنزل. تغير أبوها هو الآخر، ويبدو الآن كأنه ظل من نفسه السابقة.
تفتح كريسِل باب غرفة نومها. لقد تجمدت الغرفة في الزمن، عند التسعينيات. الملصقات على الحوائط؛ قصص خيالية مشهورة، ومجلات، وكتب قصص مصورة على رف الكتب، والملابس في الخزانة. هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يُسمح له بالتغير، وأُجبِر على أن يبقى على حاله، فأصبح غريبًا،

أصبح شيئًا مألوفًا وغير مألوف في الوقت ذاته. كريسِل تعرف السبب الذي من أجله تم الاحتفاظ بغرفتها على ما هي عليه؛ فهي تحفظ ذكرى الوقت الذي قضته جيني معهم، ولكنها ليست في حقيقة الأمر إلا ذكرى لغيابها.

عندما علمت عائلة ماسوكو أن جيني تركتهم لتعيش مع الراهب، حلَّت جدة كريسِل –يونيس– على الغرفة، عقابًا ولعنةً. (وجدتها مثال آخر للتغير. كانت ذات يوم قوية منيعة، والآن خرِفة واهنة). كانت جدتها قد نزلت على ركبتيها ونزعت عن الأرضية الشريط اللاصق التي كانت قد وضعته بنفسها عندما علمت أن جيني قادمة لتعيش معهم. كان الغرض من الشريط أن يقسم الغرفة إلى نصفين، لكنه في الحقيقة منح كريسِل نصيب الأسد من الغرفة. وتظاهر أفراد عائلة ماسوكو، جميعًا، بأنهم لم يلحظوا الأمر. وجيني لم تشتكِ قطُّ.

بعد أن نزعت الجدة الشريط اللاصق، شرعت في عملها، فأزالت عن السرير ما فُرش عليه، وأفرغت صندوق الثياب، وسلة الغسيل، ورف الكتب، من ناحية جيني من الغرفة. جعلت البستاني والخادمة يحملان السرير، والصندوق، وسلة الغسيل، ورف الكتب إلى خارج الغرفة، وتم تكديس كل أغراض جيني ووُضعت في وسط فناء المنزل، ثم قامت يونيس بسكب البارافين عليها، وأشعلت عودًا من الثقاب، لتحول وجود جيني إلى لهب، وترسله إلى السماء في شكل دخان. وبينما كانت تفعل هذا كله، كانت تتحدث عن خيانة جيني بعد كل ما فعلوه من أجلها، عن هروبها مع رجل أكبر منها مرتين، وهو أيضًا متشرد، جاعلة من عائلة ماسوكو مزحة على ألسنة الجميع. بعد كل ما فعلوه من أجلها. هذه خيانة لا يمكن أن تُحتمل.

- لم تبكين؟

كان هذا سؤالًا وجهته جدة كريسِل لها قبل أن تصفعها على وجهها. كانت أول مرة تضربها، وآخر مرة، سألتها ثم قالت: - لقد أثبتت هذه الفتاة أنها خيبة أمل. إياكِ، إياكِ أن تبكي يومًا من أجل شخص خيَّب أملك. أتسمعينني؟ إياكِ، إياكِ أن تبكي من أجل الجاحدين، منكري الجميل.

ثم تناولت وجه كريسِل براحتيها، قبل أن تحتضنها. لكم تمنت كريسِل، كما تمنى أبواها وماركوس، لو لم تكن بالمنزل عندما شُهد محو جيني من حياتهم، عندما شُهد ذلك الرماد بدخانه الخانق.

تدرك جيني أن بقية عائلتها قد تبعتها إلى غرفة النوم. يحيلون أنظارهم في الغرفة، وينتظرون. ينتظرون أن تهبط جيني من السقف، أن تتجسد من ورق الحائط، أن تنهض من ألواح الأرضية. كم سيكون عمر جيني التي ينتظرونها هذه؟ عشر سنوات، كما كانت عندما وصلت أول مرة؟ ثماني عشرة سنة، كما كانت عندما رحلت؟ ثلاثين سنة، كما هي الآن، مستلقيةً في غيبوبة في مستشفى ميتير دي؟

يغادر أبوها، وأمها، وأخوها، وجدتها الغرفة في هدوء. يا لهم من محظوظين، فبإمكانهم المغادرة! أما هي فلا! عليها أن تعيش مع الغياب. عليها أن تعيش مع جيني لم تعد هناك.

تنظر كريسِل إلى ما تبقى من أثر الشريط اللاصق. تنزل على ركبتيها وتمر بإبهامها على الحدود الفاصلة الكئيبة، على الدليل الذي يثبت أن حياة جيني معهم لم تكن بتلك السهولة التي يحب الجميع أن يتذكرها عليه. لقد أحبوها بطريقتهم الخاصة، الطريقة الوحيدة التي يعرفونها –بغيرة، وحب للتملك، بطريقة ناقصة (ليست هي المُثْلَى).

فيدا

هناك أنابيب في كل مكان. هناك أنبوب للتغذية في أنفها. وأنبوب للتنفس في فمها. وأنبوب ملحق بواسطة حقنة بوريد لم يزل صالحًا في يدها اليمنى. وهناك قسطرة في مجرى البول. والكيس الذي يُجمع فيه بولها تم تغطيته تعففًا بغطاء ذي لون أزرق فاتح مريح، في محاولة للاحترام وصون الكرامة، بدت للسخرية متأخرة جدًّا.

إن جسد جيني يعاني. يشعر فيدا به. وهو أيضًا يشعر بالغياب، فهو يعرف أن جيني ليست هنا. إن جيني التي يعرفها، وعاش معها، في مكان آخر. لعلها تعمل على العودة إلى هذا الجسد، هذا الجسد الذي كان فيما مضى وعاء لها. ولعلها، كذلك، لا تفعل. يبدو جسدها ناقصًا. تعتريه رغبة عارمة في لمسه، في أن يعطيه السلوى، والراحة، والحياة. لكنهم أمروه ألا يلمسها. بل إنهم وضعوا يديه في قفاز جراحي وغطوا فمه بقناع طبّي.

أخبرته الدكتورة مامبو، بمصطلحات طبية، بما حلّ بجيني. أشفقت عليه فلم تمنحه أملًا كاذبًا. وترفقت به كثيرًا حتى إنها قالت له إنها سترضى بقراره وتدعمه، على أي نحو كان.

مرت سبعة أيام.

سبعة أيام منذ عاد من ستوكهولم. سبعة أيام منذ وجد الكأسين وشريحتي الليمون على طاولة المطبخ. سبعة أيام منذ وجد حقيبة طفولة جيني محزومة وموضوعة أسفل الفراش. سبعة أيام منذ رأى النظارة الشمسية على حوض الاستحمام في الحمام. سبعة أيام منذ غادر (المنزل الذي بناه جاك). سبعة أيام منذ دخلت جيني في غيبوبة. ولسبعة أيام حاول أن يتمسك بغضبه.

ولسبعة أيام فشل. إنه لا يشعر بالغضب. لا يشعر بالحزن. لا يشعر بالأسف. إنه يشعر بما لا يعرف وحسب.

ينظر إلى جسدها الناقص، ويعرف. لقد مرت سبعة أيام منذ رحلت عنه. وحيثما كانت، فهي لن تعود إليه.. لن تعود إلى هذا الجسد.. لن تعود إلى تلك الحياة.. لن تعود إليه.

انهزم فيدا. يمكنه أن يرضى بأي تغيير إلا الموت. الموت، كمحب غيور، يستنفد المرء كله. لن يسمح الموت له بالتدخل.

ناظرًا إلى جسدها، يدرك فيدا بحس مذهل أن الجسد ليس إلا عتبة، مدخلًا إلى شيء يختلف تمامًا، شيء مخادع، سريع الزوال، شيء ثمين وجميل، شيء يمكنه أن يحلِّق مبتعدًا دون لحظة من تردد.

يعرف ما الذي عليه أن يفعله.

الدكتورة مامبو

لا تعتقد الدكتورة بريسكا مامبو أنها صادفت –في الثلاثين عامًا التي مارست فيها الطب– أحدًا بقوة إيموجين زولا نيوني.

- كم تبقى لي؟

كانت هذه هي أولى الكلمات التي نطقت بها جيني عند أول لقاء لهما. فتاة في زي المدرسة، روضت شعرها العنيد بشريط ثلاثي الألوان؛ أزرق، أحمر، وأبيض. بدت أصغر، وفي نفس الوقت أكبر، من سنواتها الستة عشر؛ ربما بدت أصغر لأنها كانت ذا جسد صغير إلى حد ما، وبدت أكبر لأن هناك حكمة غير خفية في عينيها، حكمة بدت أكبر من أن تكون مجرد ذكاء –معرفة تحصلت لها بالفعل.

- كم تبقى لي؟

كان على إيموجين أن تكرر سؤالها. منذ أن بدأت الدكتورة مامبو في ممارسة الطب في الثمانينيات، أخبرت ما لا يُحصى من الناس بأنهم مصابون بالإيدز. لم تكن قَطّ أخبارًا يسهل الإدلاء بها، ولكنها كانت تجد بعض العزاء في أن من تخبرهم بالأمر كانوا عادة في منتصف العمر وقد تمتعوا بقدر من الحياة. لم يسبق لها قَطّ أن تُضطر إلى قول هذا لفتاة في سن المراهقة لم تبدأ حياتها بعد. وقد اختارت الدكتورة مامبو بالفعل أن تسلك مسلك الجبناء. فما إن تسلمت نتائج تحليل الدم من الممارس العام، حتى قررت أن تفضي بالخبر إلى وليي أمر الفتاة، متعللة بأنهما أجدر بإخبارها بالأمر. ولهذا شعرت بدهشة كبيرة عندما حجزت الفتاة ميعادًا وحضرت بمفردها.

يكون الاسم في استمارة المستشفى شيئًا، وحاملُ ذلك الاسمِ الجالسُ أمامك شيئًا آخر. يكون رقم (16) بجوار كلمة (العمر) في استمارة المَستشفى شيئًا، وتكون الفتاةُ ذات الستة عشر عامًا الجالسةُ أمامك شيئًا آخر.

- كم تبقى لي؟

- كما تعرفين، ليس هناك علاج للإيدز حتى الآن.

تقولها بشيء من التردد، لتردف:

- هناك أدوية مضادة للفيروسات القهقرية. لكنها باهظة الثمن، علينا، على الأقل في هذا الوقت، ولكن نأمل في المستقبل.. في المستقبل القريب.. في المستقبل القريب جدًّا.. أن نكون قادرين على أن نجعلها أقل ثمنًا وأن تكون متاحة بشكل أكبر. نقوم بجهود كبيرة في هذه الناحية، لذا فكلي أمل. تعمل مضادات الفيروسات القهقرية على تحسين الأعراض بشكل كبير، لذا ، فكما قلت لك، آمل أن تستطيعي الحصول عليها قريبًا.

- كم تبقى لي؟

- في وجود مضادات الفيروسات تلك، وُجد أن المرضى.. الناس يعيشون حياة طويلة جدًّا، وبصحة جيدة.
- ودونها؟
- حسنًا.. هناك عوامل كثيرة تـ...
- كم تبقى لي؟
- في المتوسط، وبمجرد ألا يعود المرض في سباته، فإن المرضى، أقصد الناس عاشوا حتى خمس سنوات دون مضادات الفيروسات القهقرية. ولكن هذا هو المتوسط فقط، فبعض المرضـ... الناس عاشوا حتى عشر سنوات، وأحيانًا أكثر. كما أن تناول غذاء صحي وممارسة الرياضة بانتظام مفيد لدرجة كبيرة في تخفيف آثار المرض.
- إذن فلدي في الواقع ما يقرب من خمس سنين أُخَر. وإذن أفضل ما أطمح إليه هو أن أعيش حتى أبلغ الحادي والعشرين.
- أعتقد أن بإمكانك أن تأملي في أكثر من ذلك. فأنتِ صغيرة وبصحة جيدة. وكما قلت، الأمور تتغير بسرعة، وأنا واثقة أنك ستتمكنين من الحصول على مضادات الفيروسات القهقرية.
وفي تلك اللحظة، مر الراهب أمام النافذة، دافعًا عربته السكانيا.
فاجأت جيني الدكتورة مامبو بابتسامها.
- لا تقلقي أيتها الطبيبة، فخمس سنين تكفيني تمامًا لأجعل لحياتي معنى.
شهدت الدكتورة مامبو كثيرًا من الاستجابات المختلفة من الناس بعد سماعهم أن حياتهم ستقصُر بسبب الإيدز، فكانت النساء غالبًا ما تبكي؛ والرجال غالبًا ما يغضبون، وغالبًا ما تشعر الأمهات بالقلق على مستقبل أطفالهن، وغالبًا ما يشعر الآباء بالقلق من أنهم لن يستطيعوا تأمين أسرهم ماليًّا على نحو كاف، وبعض المرضى (وهؤلاء معظمهم من الرجال) تصرفوا بعنف، وقذفوها بما تطوله أيديهم وهم يستفسرون عنها، بغضب، عمن أصابهم بالمرض. لم يبتسم أحد من قبل. أما هذه الفتاة، إيموجين، التي قد تكون إصابتها بالفيروس ليست إلا من جراء نقل دم ملوث، لا عن خطأ منها، أمّا هذه الفتاة قد كان اختيارها، بدلًا من أن تغضب.. أن تبتسم!
في تلك اللحظة، رأت الدكتورة مامبو قدر التحدي الذي تملكه إيموجين. تجلّى التحدي في الطريقة التي ترفع بها رأسها (بزاوية معينة)، في كتفيها المستقيمتين، كما تجلّى أيضًا في نظرتها إليك –تنظر في العينين مباشرة. عزمت على مواجهة كل ما يرميه القدر في طريقها، بل وربما على التغلب عليه. لقد رأت جيني أشياء، وعايشت أشياء، كما فهمت ما كان من شأنه أن يحطمها، لكنها استخدمت كل هذا لتكبر، بل ولتصير أكثر قوة.

وقد أوفت إيموجين بكلمتها: جعلت لحياتها معنى. بعد بضع سنوات من لقائهما الأول، وأثناء التسوق في متجر (سولومون)، صادفت الدكتورة مامبو إيموجين، وفيدا دي فيلييه، يقفان في ممر التوابل. كان فيدا يحاول الحصول على زجاجة من زيت الزيتون من فوق الرف العلوي (ففي متجر سولومون يضعون زيت الزيتون في ممر التوابل)، وكانت إيموجين تنظر إليه، وتشاهده من كثب، وكانت تبدو سعيدةً راضيةً.. إلى الغاية، كما لو أن فيدا في تلك اللحظة يفعل ما هو فوق الحصول على زجاجة من زيت الزيتون؛ كما لو أنه يمنحها ما يريده قلبها، بعد أن خاض بحورًا، ونقل جبالًا، بعد أن أوغل في الغابات، وذبح التنانين، لكي يأتيها بزيت الزيتون. وضع فيدا زجاجة الزيتون في السلة التي مع إيموجين، ونظر إليها بما نظرت إليه من سعادة ورضى، كما لو أنها تحمل كلَّ ثمينٍ أنعمت عليه السماء به، في ذراعيها.

كانت تلك النظرة هي التي عرفت منها الدكتورة مامبو أن إيموجين قد جعلت لحياتها معنى: وجدت شخصًا تحبه، ووجدت شخصًا يحبها. شعرت الدكتورة مامبو بارتياح كبير في حب إيموجين وفيدا. الحب سلعة نادرة، وقد تطلَّب الأمر منها شجاعة حقيقية للبحث عنه، وللتمسك به، وتقديره. معظم الناس – حين يواجهون ما تواجه- يتخلون عن شجاعتهم. ففي وقت أسهل ما فيه الاستسلام لليأس، يكون الحب هو التحدّي الحقيقي.

كثيرًا ما رأت الدكتورة مامبو إيموجين وفيدا معًا: إما في سيارتهما الأوستن ميني كوبر بالغة الصغر، أو متجولين في الشوارع بعربتهما السكانيا، المحملة دائمًا بالخردة المعدنية، أو وهما يتسوقان لشراء البقالة –لدرجة أنها بدأت تراهما كُلًّا لا يتجزأ: إيموجين وفيدا. بل ووصل بها الأمر أن حسبت أن فيروس الإيدز لدى الاثنين، لا إيموجين فقط. لذا كان من الصعب نقل الأخبار إلى فيدا. عندما أحضر إيموجين إلى المستشفى منذ سبعة أيام، بدا مصدومًا، شاحبًا: لم يستطع الكلام، ولم يكن بإمكانه سوى التمسك بإيموجين. تطلب الأمر اثنتين من الممرضات لاستلالها من بين ذراعيه. وبعدها وقف ينتظر ودماء إيموجين تغطيه. ما كان أصعبَه أن تخبره أنه لا داعيَ لانتظاره! ما كان أصعبه أن تراه يرحل.. وحده!

إيموجين مريضة الدكتورة مامبو لأكثر من عشرين عامًا الآن، وقد رأت الدكتورة منها ما يدل على عزمها وتحديها، مرة بعد مرة: وهي تصارع الالتهاب الرئوي، أو السل، أو التهاب السحايا. أما الآن، فسرطان عنق الرحم يعطي لتحدي إيموجين شكلًا مختلفًا: فهو الآن يقدم نفسه على أنه نوع من الاستسلام الهادئ.

تفتح الدكتور مامبو الستائر البرتقالية والبنية في الغرفة، وهي تتساءل –ليس للمرة الأولى– عمّا يجعل أي أحد يحسب البرتقاليَّ والبنيَّ لونين مناسبين لغرفة في مستشفى. فهي ترى كلا اللونين كئيبين، منطفئين، لا يوفران راحة،

ولا يوحيان بأمل. على أي غرفة في أي مستشفى أن تبذل قصارى جهدها لتكون زاهية الألوان، لا سيّما إن كانت غرفةً بها إيموجين زولا نيوني.

تتسلل أشعةُ شمسٍ شتويةٍ ضعيفةٍ إلى الغرفة، فتمدها بالنور، وإن لم يكن بقدر معتبر. سياسة المستشفى تشترط عدم تشغيل أي أضواء أثناء النهار، إلا في غرف العمليات. تشعل الدكتورة مامبو مصباح الفلورسنت فوق السرير، غيرَ آبهةٍ. هذا أقل ما يمكنها أن تقدمه لهذه التي ترقد في الفراش.

لكن.. ليس هناك من أحد في الفراش!

تخطف الدكتورة مامبو دفتر ملاحظات المريضة على الفور، وتقلِّب صفحاته: لقد أصدرت أوامر صارمة بعدم نقل المريضة، ولم تأمر بإجراء أي فحوصات لها، كما أنه ليس هناك من تاريخ وفاة. فكيف لا تكون إيموجين زولا نيوني راقدةً في فراشها؟! تقلِّب الدكتورة مامبو صفحات الدفتر مرة ثانية.. وثالثة، ولا فائدة. ما زالت لا ترى سببًا لخلو الفراش منها.

آملةً أن يكون عندهن خبر، تشعر الدكتورة مامبو بالراحة إذ تدخل الغرفة ثلاث ممرضات يدفعن عربة مكدّسةً ببياضات الأسرة، وثياب المشافي، وقطع الإسفنج، والصابون المطهر، والشاش، وحقن من أحجام مختلفة، ومضخة للدم، ومقياس حرارة، وعدد من الإبر التي تُستَعملُ ثم تُرمى، ومقصات، وصوف قطنٍ، وخلاط به طعام مُسال، لونه بين الأصفر والبني. لكنّ الممرضات يبدو عليهن الانزعاج لرؤية الفراش بلا مريضة.

- أين المريضة؟

هكذا تسأل إحداهن، وفي عينيها نظرة من اتهام.

فالينتاين

بالطبع يعرف فالينتاين تاناكا من هم، فهو يعرف كل من يزور (ذا تاور). لقد جعل شغله الشاغل أن يعرف. وهو على كل حال كبير أمناء السجل في (المنظمة). وهو –بهذه الصفة- يتعامل مع كل اللحظات المهمة في حياة الإنسان: الولادة، بلوغ سن الرشد، الزواج، الأبوة، الطلاق، والوفاة.

إنهم عائلة ماسوكو. وقد بحثت إيموجين ذات مرة عن كلمة أو عبارة تصفهم بها، وبعد سكتة طويلة قالت: - إنهم يلمعون.

وحينها كان جوابه:

- ليس كل ما يلمع ذهبًا.

وكان أن عقبت بقولها:

- بالضبط.

إنه لا يحب آل ماسوكو.

فهو يراهم –جميعًا– سطحيين، يراهم كشيء في مجلة، مجلة راقية، تبيع الأحلام المستحيلة –الجمال، النجاح، السعادة، تحقيق الذات، والثروة.. كل هذا يتحقق بسهولة، والوجوه باسمة.

ولذا، فعندما تقول الابنة، وهي تمسح بعينيها مكتبه مارةً به، ولا تحاول حتى أن تخافت بصوتها: - يا له من مكان بائس!

فتمتلئ عيون الأب، والأم، والابن بالسخرية، وكلٌّ آمنٌ لأنه يعرف أن الواسطة أكبر منه، من فالينتاين تاناكا، الذي ليس سوى موظف لا حول له ولا قوة.. عندها يقرر فالينتاين تاناكا ألا يحب أحدًا منهم.

الأب طبيب، جراح، تم التحقيق معه من قِبَل المنظمة في عام 1987، وهو -بطريقة أو بأخرى– يفلح في أن يبدو ضعيفًا ووسيمًا في الوقت ذاته، ويا له من عمل! لا تستقر عيناه على شيء طويلًا. غير مستقر. يخفي شيئًا ما. ولعله فقط معتاد إخفاء شيء، عادة قديمة. غير قابل للكسر، حتى في هذه اللحظة التي ليس فيها ما يُخْفَى. لكن، طبعًا، هناك ما يخفيه. هناك دومًا ما يخفيه. لم يتحلّ قطّ بالشجاعة التي تجعله يفضي إلى عائلته بسرِّه. حتى وهم يجلسون هنا، بمظهرهم المثالي هذا، هناك شيء يخص الأب لا تعرف عائلته به –شيء يعرفه فالينتاين تاناكا.

الأم كانت ربة منزل، ثم أصبحت تمتلك محلًا لبيع الزهور. تعيش في الخارج، في بلجيكا. تفوح منها رائحة العطور باهظة الثمن. ورأسها مرفوع بشموخ. صورة للجمال، والأناقة، والاحترام. ولكن، رغم كل شيء، ليس لمعانها إلا لمعان القشرة. وهناك فصل كامل من حياتها يملؤه الخزي، فصل يعرفه فالينتاين. كانت مصائبها علنية إلى حد كبير، ولهذا فإن المظاهر تهمها كثيرًا.

الابن، أحد الملاك في شركة من شركات الإنترنت التي لم يصبها الانهيار، ثريٌّ. بعض الناس يسير الحظ في ركابهم. يعيش في الخارج. متزوج، وزوجته محامية. لديه من الأطفال ثلاثة. يعقد ساقيه بالطريقة التي يعقد بها السيدات سيقانهن. يشذب أظفار يديه، وربما قدميه، أيضًا. (يقوم بعمل المكياج المناسب). قصة شعره بالغة الأناقة. فتى جميل، لا رجل بحال من الأحوال. فالرجل.. الرجل الحقيقي لا يُولي نفسه كل هذا الاهتمام. الرجل الحقيقي لا يسمح لنفسه أن يبدو بهذا الـ... هذا اللمعان. لكن عينيه –على الأقل– فيهما كثير من العزم. العزم من صفات الرجال.

الابنة طالبة. وُلدت في الخارج، وترعرعت هنا، وهي الآن تعيش في الخارج، مواطنة هناك. لا يُعرف عنها الكثير. لا توجد سجلات عنها. ولأنها وُلدت بالخارج، فلم تسجل (المنظمة) ولادتها. ولأنها رحلت عن البلاد وهي في السابعة عشرة من عمرها، قبل سنة من أن تُضطر إلى أن تسجل (بياناتها) لتحصل على بطاقة الهوية الوطنية فليس لديها هذه البطاقة، كذلك. هي أصعبهم في معرفة أحوالها. بها شيء كسير، ولا يحفظ عليها قوتها إلا محض الإرادة. ليست طويلة القامة كالآخرين، منكفئة بعض الشيء، ولكنها مليئة بالتحدي. الشاة السوداء. الثائرة -بل ولربما تكون ثائرة ذات قضية. هي الوحيدة حتى الآن التي نظرت إليه في عينيه مباشرة.

- أجل.. أعتقد أنه مكان بائس إلى درجة كبيرة.

هكذا قال فالينتاين، أخيرًا، تاركًا عينيه تجولان فوق مكتبه كما تشاءان، ومستمتعًا بأن يكون في بؤرة الاهتمام، وسط تلالٍ من الملفات تراصت فوق بعضها بعضًا على زوايا معجزة، وخزائن ملفات عتيقة، وأرفف كتبٍ تنسكب منها الأوراق. هذا، وكل شيء غطته طبقات من الغبار، حتى الكمبيوتر، عفا عليه الدهر، وهو وإن لم يزل يعمل بكامل قوته، إلا أنه انسجم مع المشهد وعليه من التراب نصيبه.

رفع فالينتاين تاناكا عينيه عن الملفات، ونظر إليهم مرة ثانية، وهو يقول: - أكداس من الورق والتراب. هذه سمات البيروقراطية، بكل ما فيها من انعدام للفعالية والكفاءة.

يحدقون إليه بعيون تخلو من كل تعبير، ويتظاهرون فجأة بالجهل، وبأنهم لا يرون، كلُّهم. سمة من سمات العائلة، ربما تكون هي السمة التي دومًا ما يتعاملون بها مع المواقف المحرجة والصعبة.

لقد عقد عزمه على أن يُشْعِرهم بشيء من الذل، حتى ولو قدر خردلة.

- أو ربما قصدتِ أني أنا البائس؟

هكذا يقول، مستمتعًا أيما استمتاع بتلك اللحظة التي ينظرون فيها جميعًا إلى الأرض، في نفس الوقت. تمت المهمة، بنجاح. أحسنت!

ذات مرة، قال له لورانس تافارا، زميلٌ لا صديق، فليس لديه من هؤلاء الكثير، قال له: - آه، لكنك يا فالينتاين، قبيح.. للغاية!

في تلك اللحظة، كان لورانس تافارا مخمورًا. كلاهما كان كذلك. فالإفراط في الشراب جزء من الوظيفة. في ذلك اليوم ضربَ لورانس تافارا ضربًا شديدًا، رغم أنه يتفق معه فيما قال. فهو قبيح، لا مراء في هذا. هذه حقيقته. فهو أحدب، أعرج، وفوق هذا ليس لديه جرس إنقاذ، ولا قلب من ذهب يجعلان منه بطلًا في إحدى المآسي.

كان هذا هو أكثر ما صدم الناس فيه –ألّا يكون لديه قلب من ذهب. عندما يجيئون إلى مكتبه لتخليص معاملاتهم الورقية، لا يمكنهم أبدًا أن يجمعوا بين هيئته وبين ما يفعل، أو بالأحرى بين هيئته والصرامة التي يؤدّي بها وظيفته، فهو يطلب الوثائق، والأدلة، والبراهين، ولا يلقى الفشل في تقديم المستندات أيَّ تعاطفٍ متى كان المرء وجهًا لوجه مع فالينتاين تاناكا، كبير أمناء السجل.

- شهادة ميلاد الأب؟

- لكن والدي وُلد عام 1908، وحينها لم يكن يُصدر للسود.

- بطاقة الهوية الوطنية للأب؟

- همم! في الواقع.. ذهب أبي إلى عمل في المناجم بجنوب إفريقيا سنةَ 1938.

- دليل على أنه من قرية بعينها؟

- عاشت عائلته في سيلوبيلا، لكن قريته، بأسرها، أُعيد استيطانها في الخمسينيات.

وعند أي نقطة قد يرسم على استمارة الطلب خطًّا مستقيمًا من أعلى يمين الورقة إلى أسفل يسارها، بقلمه الأحمر القاني.

- كيف يمكنني أن أكتب شهادة وفاة دون أي دليل على وجود الرجل؟ عُد ومعك الدليل؛ وثيقة، أو أي مستند يثبت أن هذا الرجل الذي يرقد في ثلاجة الموتى بمستشفى إمبيلو هو أبوك حقًّا. عد، ومعك الدليل، وستغمرني السعادة وأنا أصدر لك شهادة بوفاته.

- معنا استمارة من المستشفى بها سبب الوفاة، وعليها توقيع طبيبه.

- الدليل على الوفاة ليس دليلًا على الحياة. عد ومعك الدليل على حياة أبيك، واملأ استمارة أخرى، وحينئذ تحصل على شهادة الوفاة.

- ولكن لا يمكننا أن ندفنه دون شهادة الوفاة.

- فلا تهدروا وقتكم إذن في الحديث معي. اذهبوا وابحثوا عن دليل الحياة.

- هل سيكون علينا أن ندفع رسوم الطلب مرة أخرى؟

- نعم، بالطبع. فالرسوم هي ما يدفع لي أجر وقتي، الذي أضعتموه اليومَ.

نعم، كان افتقاره إلى طيبة القلب هو ما صدم الناس فيه، فهم يحبون أن يعتقدوا أنهم متى أشفقوا على من هم في مثل حاله، وعاملوه بطريقة لطيفة، فسيعاملهم بالمثل. وحقيقة الأمر هي أن معظم المعاقين كان الناس يعاملونهم بقسوة، وغلظة. ولا شك في أنه عومل بهذه الطريقة. رغم ذلك، اعتقد الناس حقًّا أنهم عاملوا من هم مثله بلطف، ولهذا صدمهم أن يجدوه يؤدي وظيفة لا تتطلب شفقة على الإطلاق، وظيفة تتطلب منه أن يكون قاسيًا، غليظًا. ربما استنتج هؤلاء الذين يتعمقون في الأمور أنه اختار أن يقوم بهذه الوظيفة بسبب هيئته؛ أنّ كونه ذا مظهر بالغ القبح قد خلق به قلبًا بالغ القبح، وحاجةً إلى صب انتقامه –من بلواه– على غيره. ولكن الحقيقة غير ذلك.. تمامًا. فهو لا يؤدي الوظيفة التي يؤديها إلا لأنها وظيفة في حاجة إلى من يؤديها. قام بوظيفته تلك خصوصًا، لأنه كان بارعًا فيها.

كان، وهو طالب، يسعى دائمًا إلى أن يكتب له معلمه، في هامش كتاب التمارين، بالحبر الأحمر: «أحسنت!»، كانت هذه الكلمة تعني عنده أكثر مما تعنيه الدرجة الكاملة، أو نجمة من ذهب. «أحسنت!» عبارة قوية تُفهمُك شخصية المرء.

ليس لوظيفته أي علاقة بالقلب، بالعواطف. وقد فهمت إيموجين هذا.

إنها تلك النظرة الحائرة على وجه الابن ما يزعجه، وينبهه أن هناك شيئًا على غير ما يرام. إنه صامت منذ فترة طويلة جدًّا.

ما جلس في المنتصف إلا ليجعل من نفسه أضحوكة، وتلك السخرية البادية على وجه الابنة تؤكد ذلك.

- كيف يمكنني مساعدتكم؟

هكذا سأل، مدركًا أن صوته عالٍ جدًّا، ووقح –وهو ديدن كل شخص غير واثق من نفسه، لا يتصرف بأريحية.

- جئنا لنحصل على شهادة (دي إس 8044 زد).

- لماذا؟

- لأننا في حاجة إليها.

- ما كنتم لتجيئوا إلى هنا لو لم تكونوا في حاجة إليها. لم تحتاجونها؟ لأي غرض؟

- نحتاج إلى أن نعلن عن فقدان ابنتنا.

- وأنتم واثقون أن ابنتكم مفقودة؟

- نعم، واثقون.

- إلى أي درجة؟

- واثقون جدًّا.

- حسنًا، لا يمكنكم أن تجزموا بأن ابنتكم مفقودة إلا بعد مرور اثنتين وسبعين ساعة. هل ابنتكم متغيبة منذ أكثر من اثنتين وسبعين ساعة؟
- همم! لا.
- إذن فكيف تعرفون أنها مفقودة؟
- نعرف هذا لأنها لم تعد موجودة في فراشها بالمستشفى الذي كانت ترقد فيه.
- ربما تعافت وغادرت المستشفى.
- كانت في غيبوبة.
- هل أنتم على يقين من أن المستشفى لم تصرفها؟ فالمستشفيات كثيرًا ما تفعل هذا، وإن كانت لا تعترف بأنها تفعل.
- نعم، نحن متأكدون. فنحن نعرف أين هي تحديدًا.
- تعرفون؟ من أخذها؟
- الرجل الذي.. الذي تسكن معه.
- الرجل الذي تسكن معه؟ إن كانت تعيش معه، وهي الآن معه، فمعنى هذا...
- ليست معه. لقد أخذها إلى مرفق آخر، لعله أحد دور الرعاية، لكي لا نتمكن من العثور عليها.
- ألديكم أي دليل على أن هذا الرجل قد أخذها؟
- لقد كان آخر من زارها في المستشفى.
- ليس هذا بدليل.
- لسنا في حاجة إلى دليل. نحن نعرف الرجل، وهذا من صنف ما يعمل من الأمور.
- بما أنكم لا تملكون دليلًا على أن هذا الرجل قد اختطف ابنتكم، فلن يمضي طلبكم دون مشكلات.
يتبادل آل ماسوكو نظرة من يعرف الأمور، وتسأل الأم الرجل بشيء من اللامبالاة: - كم؟
ويسألها فالينتاين:
- كمْ ماذا؟
ليرد الابن:
- هيّا، بربك يا رجل! تعرف ما نقصد.
لا يروق فالينتاين ذلك التبسُّط الذي توحي به نبرة الصوت، فالتبسط يفضي إلى الصداقة. والصداقة خطر. الصداقة تفضي إلى التنازلات.
تسير البيروقراطية والرشوة جنبًا إلى جنب في هذه الأيام، إنه يعرف هذا. لم يكن الوضع على هذا النحو دومًا، فقد كان هناك وقت كانت فيه البيروقراطية

تسير وإلى جانبها إتقان العمل، فقط لأن وظيفتك هي أن تؤديه بإتقان. كل ما يريده فالينتاين هو أن يحسن أداء وظيفته.
- شهادة (دي إس 8044 زد) مجانية. المال ليس مهمًا هنا.
- أنا مستعد لدفع أي مبلغ.. مهما كان.
هكذا يقول الابن، وهو يفك ساقيه، ويميل فوق كرسيه ناحية فالينتاين تاناكا، لينظر في عينيه مباشرة.
- لا شك عندي في أنك مستعد. لكني لا أريد مالك.
يتنحنحون، جميعًا.
فتقول الابنة:
- بالطبع لا تريده.
وتنظر إليه بجرأة نظرةً ساخرة.
- إنكم لتثيرون دهشتي أيها الناس، تدهشونني حقًّا.
يقول هذا وهو يشعر بالفخر من هدوء نبرة صوته، ثم يتابع:
- ما هذا؟ شعور بأهمية الذات؟ شعور بالاستحقاق؟ أهذا ما يجعلكم تعتقدون أن كل شيء، وكل شخص، له ثمنه؟ متى أردتم شيئًا، أخذتموه؟ يمكن شراء الجميع؟ أيًّا كان دافعكم، فأنتم مخطئون إذا حسبتم أن (المنظمة) ستنصاع لإرادتكم.
- هيا، تعال بربك. كل ما نريده هو شهادة (دي إس 8044 زد).
يقولها الابن، بنبرة متصالحة، ساحرة.
يضرب فالينتاين المكتب أمامه براحة يده، مبسوطةً، ويستمع بأن يجفلوا – جميعًا، ويقول: - لا. أنا لن «تعال». لا تقل لي أن «تعال». لسنا صديقين حتى تحدثني هكذا. هذا عمل جاد للغاية هنا. إنك تحاول أن ترشوَ عضوًا في (المنظمة). هل لديك فكرة، أي فكرة على الإطلاق، عمّا يمكن أن يحدث لك؟
ينظر كل آل ماسوكو في الأرض. أحسنت عملًا!
يذهب فالينتاين، ويقف بجانب النافذة الوحيدة في المكتب. النافذة قاتمة، لكنه ينظر إلى الخارج على أي حال. ليس الراهب فيما أصبح ركنه المعتاد منذ عودته. لعله يتجول في الشوارع. يحب فالينتاين أن يكون الراهب في مكانٍ يراه فيه.
واضعًا يديه في جيبيه، يعبث فالينتاين بمفاتيحه لتخشخش، وهو يكرر سؤاله:
- هل لديك فكرة، أي فكرة على الإطلاق، عمّا يمكن أن يحدث لك؟ يُعاقب من يرشو عضوًا في (المنظمة) بالسجن مع الأشغال الشاقة. هل تعرف هذا؟
لا ينتظر جوابًا، ويعد في نفسه –واحد.. اثنان.. ثلاثة. يرن الهاتف فوق مكتبه بصوت حاد، فتجفل العائلة. يُقبل، ويلتقط السماعة، بهدوء، ثم يُسمع وهو يقول: - تكلّم؟! بهذه السرعة؟! ماذا فعلت له؟ حقًّا؟

ثم يضحك، ويردف:
- يفلح الأمر كل مرة. سآتي حالًا.
ويغادر المكتب دون استئذان.
سيغيب سبعًا وعشرين دقيقة بالضبط، وهو وقت يكفي ليشكوا في أنه لن يعود. أحيانًا يعود إلى مكتبه فيجده خاليًا، وأحيانًا لا. يعرف المرء عن الناس أمورًا كثيرة بقياس قدرتهم على الصبر.
- أنا ذاهب للخارج.
هكذا يقول موجهًا حديثه لموظف الاستقبال، الذي يرد بابتسامة خبير: - تنوي أن تجعلهم يتصببون عرقًا؟
- صدقني.. يستحقون ذلك.
- ألا يستحق الجميع ذلك؟
- وهؤلاء أكثر من معظمهم.
ينفتح الباب الأمامي بصرير، ثم يغلق بصوت مدوّ. ضوء الشمس يُعمي. يبحث عن نظارته الشمسية في جيب صدره رغم أنه يعرف أنه لن يجدها به.
- مرحبًا، صديقتي العزيزة.
يقولها، وهو يزم عينيه ليستبين المدينة، المدينة الغارقة في الفوضى، النابضة بالحياة. الشوارعُ الاستعمارية الواسعة، والتي كانت هادئة ذات يوم، تختنق الآن بصخب وضجيج ما بعد الاستعمار. يحاول سماع خشخشة مفاتيحه رغم أنف صخب المدينة، وبكثير من التركيز، يفلح في نهاية الأمر. يخطو على الرصيف ويترك نفسه تنجرف مع الجموع، إلى أن يجد نفسه في (معرض الفنون الوطني)، وهناك يتحرر مما يثقل عليه.
يومئُ لحارس الأمن وموظفة الاستقبال بتحيته على مضض، ويحاول تجاوزهما بسرعة، إلا أن موظفة الاستقبال تقول له ما أصبح الآن جملتها المألوفة للغاية: - إنها لم تذهب إلى أي مكان يا سيدي. وهي بالأعلى في انتظارك.
يومئ برأسه مرة أخرى، ويحاول أن يبتسم قبل صعود السلم، درجتين درجتين، مدركًا أنه يرسم لوحة بالغة الهزلية.
وها هي، كما هو الحال دائمًا. ومضة من ضوء، رقصة من الألوان، معلقة في الهواء.
طائر النار.
المكان به بعض مدعي الفن –لعل أغلبهم طلبة– يتفحصون آخر المعروضات. لحسن الحظ لا ينتبهون إلى وجوده.
يستمع إلى صوت خشخشة مفاتيحه، ويهدأ.

يدور حول (طائر النار). لا يكف هذا العمل عن إبهاره. فـ (طائر النار)، من كل زاوية، شيء يسر الناظرين.

يتنحنح شخص خلفه.

يستدير فالينتاين ليجد سيدة عجوزًا بيضاء عزيزة تنظر إليه، وعلى شفتيها ابتسامة من تعاطف، وفي عينيها إشارة من استهجان. حينئذ فقط يدرك أن يده تركت مفاتيحه وخشخشتها، وتطاولت لتلمس (طائر النار).

- إنها ومضة من الجمال، أليس كذلك؟

قالتها العجوز البيضاء العزيزة وهي تقترب منه، تريد أن تتحدث معه، مما يُشعره بأنه محاصر.

فيغمغم:

- بلى.

ثم ينسحب على عجل ويهرع خارج المعرض، هابطًا الدرج، حتى إنه كاد ينسى أن يلقي تحية الوداع على موظفة الاستقبال وحارس الأمن.

يندفع من المعرض إلى ضوء الشمس الساطع. لقد وضع نظارته الشمسية في غير مكانها مؤخرًا، وهو لا يذكر أين وضعها، رغم اجتهاده في تفتيش ذهنه، واقتفاء أثر تحركاته. إنه حقًّا في حاجة إلى شراء نظارة جديدة. عليه أن يضعها عندما يعود ليتحدث مع آل ماسوكو. عليه أن يجعل من عينيه شيئًا لا يسر الناظرين رؤيتُه. لا بد أن هذا سيكسوهما بخشية الرب.

يحدد –في رأسه– موقع أقرب متجر يبيع النظارات الشمسية، ويبدأ في شق طريقه إليه. يتوقف إذ يرى الابن، ماركوس ماسوكو، وهو يدلف إلى المعرض، ويداه في جيبيه، يمشي مشية من لا يبالي. هل كف آل ماسوكو عن انتظاره بعد عشر دقائق؟ كان يتوقع منهم أن يستمروا خمس عشرة دقيقة على الأقل.. وربما عشرين. لا يصدق أنه بالغ في تقديرهم بالفعل.

يتبع الابن إلى المعرض، من بُعد، بالطبع.

يصافح الابنُ حارس الأمن، ليقول الأخير:

- اعتقدنا أنك نسيتنا.

- أبدًا. هذا هو المنزل.

ويتجه صوب موظفة الاستقبال، التي تضحك عندما يهمس ببعض الكلمات في أذنها.

يا له من ساحر هذا الرجل! رجل من الناس. لا، ليس رجلًا من الناس، بل هو بالأحرى شخص يحتاج إلى أن يحبه الجميع. قال له: (هيا، بربك يا رجل)، بألفة مبالغ فيها، يحاول أن يسحره.

ينتظر أن يصعد الابن الدرج، ثم يتبعه.

يجده يتحدث إلى السيدة البيضاء العجوز العزيزة.

- إنها ومضة من الجمال، أليس كذلك؟
- بالتأكيد هي كذلك.
- إذن، فماذا تحسبها؟ طائرًا؟
- نعم. طائر رائع، نادر.
- وهذا ما أحسبه أيضًا. لكنّ مايك، زوجي، يراها امرأة معلقة في الهواء. أي مغزى من هذا؟ أقول له: (إن اسمها «طائر النار»، بحق السماء).
يمد الابن يده ليلمس واحدًا من الألوان الراقصة.
- حسبك. لا أعتقد أن بإمكانك لمسها.
- أوه، لا ضرر في ذلك.
هكذا يقول الابن، وهو يضع إحدى يديه على كتف السيدة العجوز البيضاء العزيزة، كما لو كانا صديقين مقربين، متابعًا: - هذه القطعة، تحديدًا، ملكي. أنا ماركوس ماسوكو.
ثم يشير إلى اللوحة الإيضاحية، ويقرأ:
- طائر النار، عملٌ لفيدا فيلييه. اشتراه ماركوس ماسوكو في السابع من نوفمبر، 2007.
وبالطبع، لا تتردد السيدة العجوز البيضاء العزيزة في تصديقه، فما كان لرجل كماركوس ماسوكو، بكل جماله، وعفويته، وسحره، أن يقول كذبًا.
لكن كل هذا لا أهمية له. كيف له، لفالينتاين تاناكا، أن تفوته تفصيلة كهذه؟ إن عمله قائم على التفاصيل، وهو يحسن القيام بعمله.
يقول الابن:
- كنت سآخذها معي، لكن الناس يحبونها حبًّا جمًا، حتى إن المعرض طلب مني أن أبقيها هنا.
فتقول السيدة العجوز البيضاء العزيزة:
- أرى أنها أفضل أعمال فيدا دي فيلييه. هل تعرف أنه عاد إلى الشارع؟
- حقًّا؟
- يا له من أمر مثير للشفقة! ما أحسن موهبته! إنه فناني المفضل. فسلسلته، «ساكنو الشارع»، قد جعلتني أبكي. أشعرتني بفخر كبير.. حتى وإن كانت تملأ النفس بالحزن، كما تعرف. أما هذه السلسلة فهي أكثر سعادةً، وأكثر تفاؤلًا. (نظرية الطيران: في ثلاث حركات)، هناك شيء رومانسي حالم في هذه السلسلة...
تطوق السيدة العجوز البيضاء ماركوس بذراعها، ويواصلان حديثهما كصديقين مقربين. تمد يدها، وتلمس ومضة الضوء، وتقول، بضحكة مرحة: - لطالما أردت أن أفعل هذا.
تلمس اللون الراقص، وتقول:

- أوه.. ليتك كنت هنا من بضع دقائق. كان هناك رجل، وأراد أن يلمسها، وكففته. كم كان هذا مثيرًا للشفقة! كان أعرج، يبعث مظهره على الحزن. كل ما أراده هو أن يلمسها، أن يلمس شيئًا جميلًا، أحسب هذا. ما كان علي أن أمنعه.

لم يعد فالينتاين تاناكا قادرًا على سماع المزيد، فيعجل بالرحيل.

هل سيكتشف الابن أنه هو هذا (الأعرج) الذي تتحدث عنه السيدة العجوز البيضاء العزيزة؟ طبعًا لا. فالابن لا يربط بين فالينتاين تاناكا، وبين المعارض والفن الجميل. الابن يعتقد أنه في المنظمة يقوم بعمل قاسٍ، غليظ، ولعله حتى عمل مروِّع، ضد شخص ما، في مكان ما من (ذا تاور). دائمًا ما يتخيله الناس على أسوأ صورة. لكنه ليس الرجل الذي يحسبه آل ماسوكو.

كانت أولَ قضية لفالينتاين تاناكا كعضو في (المنظمة) فتاةٌ –في الخامسة عشرة تقريبًا، ترتدي زيًّا مدرسيًّا، يرتاب في أنها سرقت أغراضًا من متجر ميكيليز، من قسم الإكسسوارات.

في ذلك الوقت استشرى الأمر كوباء؛ فتيات من مدارسَ خاصةٍ يسرقن أشياء تافهة مختلفة من متاجر (هادون وسلاي) و(ميكيليز)، بين قرص مدمج، أو قطعة من الحلوى يدسسنها في جيوبهن، أو قرطًا ذهبيًّا يخفينه في ثيابهن. كُنّ أساتذة في خفة اليد، وعملن في مجموعات، وازداد الأمر سوءًا بأن اشتُبه في أنهن شكلن اتحادات. كان لا بد من إيقافهن. حماهن زيِّهن المدرسي طويلًا، إذ لم يشك أحد قط في أن هؤلاء الأطفال بكل ما يحظين به من امتيازات لديهن دافع للسرقة. لكن المتاجر أعملت عقلها أخيرًا، وطلبت من (المنظمة) أن تساعدهم في التعامل مع ما قد أصبح أكثر من مجرد سرقة تافهة. لم ترد (المنظمة) أن تعاقب البنات المميزات، ولا أن تحطم مستقبلهن المشرق، وهو الذي كان سيحدث لو أن المتاجر أدخلت الشرطة في الأمر، كل ما أرادوه هو أن يعرفوا لم تقدم هذه الفتيات على هذا الفعل.

ولأن متجر ميكيليز كان قريبًا جدًّا من (ذا تاور)، ولأن القضية كانت مجرد سرقة من محلات، فقد شعر فالينتاين تاناكا بالإحباط لأن تكون هذه أولى قضاياه. فهي قضية في غاية السهولة، وهو يريد أن تكون قضيته الأولى ممّا يبرز قدراته؛ يريد أن يبهر رؤساءه، أن يريهم أنه –رغم مظهره– لديه القدرة على القيام بأي عمل.. وليس فقط القيام به، بل إتقانه. باختصار، يريد أن يظهر قدرته على إتقان عمله.

كان تحديد الفتاة سهلًا. فهي تقف في قسم الإكسسوارات لأكثر من ساعة. ظلت تنظر إلى الناس من حولها. في الواقع لم يرها فالينتاين تاناكا ولا شريكه تسرق أي شيء، لكن من الواضح أنها توشك على هذا. وكان لديها من الجرأة ما جعلها تشرع في الحديث مع حارس الأمن قبل مغادرة المتجر. ما إن

خرجت من المتجر، حتى أمسكوا بها، واقتادوها إلى (ذا تاور). لو كان لديه خبرة أكبر، لرأى إشارةً ذات مغزى في عدم مقاومة الفتاة.

جلس خلف مرآة مزدوجة، وطلب -عبر نظام الاتصال الداخلي، الإنتركوم– من الفتاة أن تخلع ثيابها، كلها. امتثلت الفتاة للأمر. التقطت الموظفة المصاحبة للفتاة الثياب، وغادرت الحجرة. وفي تلك اللحظة فقط، عندما تعرت تمامًا، وأصبحت –في رأيه– لقمة سائغة، سألها عن اسمها.

- إيموجين زولا نيوني.

بصوت قوي، لا رائحة فيه للخوف. لم ترتعش رغم أنه يعرف جيدًّا أن الغرفة باردة. لم تعقد ذراعيها، ولا حاولت أن تغطي ثدييها، أو شيئًا من عورتها، كما ظن. بل تركت ذراعيها تتدليان إلى جانبيها، ولم تشعر بأي انزعاج من صوت بلا جسد، بدا كأنه يأتيها من العدم.

دخلت الموظفة الغرفة، وهزت رأسها.

- أين وضعتِها يا إيموجين؟

- أين وضعت ماذا؟

- الإكسسوارات.

- أي إكسسوارات؟

- تتوقعين منا أن نصدق أنكِ قضيت ساعة في النظر إلى هذه الـ...

تهمس الموظفة في أذنه:

- شرائط أليس وعصابات الرأس.

- أقضيتِ كل هذا الوقت في النظر إلى شرائط أليس وعصابات الرأس؟

- همم. لم أجد ما أحب.

تفاجئه العفوية التي تتكلم بها.

- استغرق الأمر منك ساعة كاملة لتدركي أنك لا تحبين شيئًا منها؟

- لم تكن بالألوان التي أبحث عنها. كنت أبحث عن لون أزرق مثير، ولم يكن لديهم هذا اللون.

ردد قولها:

- أزرق مثير؟

مفتونًا، رغم أنفه.

نظر إلى الفتاة، إيموجين زولا نيوني، نظر إليها حقًّا للمرة الأولى. لا يشعر بارتياح وهو ينظر إلى شخص عارٍ، لا سيما وهي فتاة. ولكنه الآن ينظر إليها – ينظر إليها حقًّا– لم تبدُ عارية بأي حال من الأحوال.

تنحنح رئيسه، ليذكره بأنه أيضًا مراقَب. وحينئذ أومأ فالينتاين تاناكا إلى الموظفة، التي قالت: - لا أعتقد أن الأمر ضروري. فهي لم تأخذ شيئًا.

نظر إليها نظرة آمِرة، فارتدت قفازيها المطاطيين بامتعاض، وغادرت حجرة الملاحظة.

شاهد من كثب إيموجين زولا نيوني والموظفة تدلف إلى الحجرة. لم تُظهر إيموجين أي علامة من الحذر أو الخوف، حتى عندما أوشكت الموظفة على استعمال القفازين. لا حذر، ولا خوف.

- لو سمحتِ، انحني وضعي يديك على الأرض.

فعلت إيموجين ما أُمرت به.

- باعدي بين ساقيك.

ومرة أخرى، فعلت ما أُمرت به.

ترددت الموظفة.

- حسنًا. هذا كل شيء. يمكنك أن تقفي الآن.

هكذا قال فالينتاين، قبل أن تُدخِل الموظفة أصابع القفاز المطاطي في كل فتحة متاحة.

غادرت الموظفة الحجرة على عجل، وبامتنان على ما يحسب.

اعتدلت إيموجين، بل، ولدهشته، أراحت يدها أعلى زندها. تعجب فالينتاين تاناكا، فمن يقف هذه الوقفة أثناء تحقيق! من الواضح أن إيموجين زولا نيوني فعلت هذا.

أعادت الموظفة ثياب إيموجين وحقيبتها المدرسية، وارتدتها الفتاة بعناية. وفي تلك اللحظة لاحظ أن سروالها، وصديريتها، كانا زاهيين، ومن ألوان مختلفة، أرجواني، ووردي غامق، على الترتيب، ليس أسود عاديًّا، ولا أبيض، أو حتى بيج. (كنت أبحث عن أزرق مثير)، هكذا قالت، وهو الآن يصدقها.

ارتدت ثيابها، وتناولت حقيبتها، ووقفت تنتظر.

قال:

- يمكنكِ الرحيل.

لم يكن هذا ما تنتظره، وربما كانت تنتظر اعتذارًا. لكن المنظمة لا تقدم اعتذارات.

نظرت إيموجين مباشرة إلى المرآة المزدوجة، للمرة الأولى، وسارت نحوها. توقع منها أن تبصق عليها، فقلة من الشجعان عُرِف عنهم هذا.

لكنها قالت:

- لا يمكنكم تحطيمي. وكما ترى، أعرف على وجه اليقين أن والديّ كانا قادرين على الطيران.

قالتها، وغادرت الحجرة، لم يمسسها سوء.

والداها، قادران على الطيران؟ أدخل اسمها في الحاسوب، فخرجت معلوماتها. الأم: إليزابيث نيوني. الأب: جولايد جوميدي. جولايد جوميدي؟ طبعًا!

وفجأة، أصبحت إيموجين زولا نيوني منطقية تمامًا في عيني فالينتاين تاناكا.
الآن، الأب والأم والابنة يجلسون حيث تركهم، بالضبط، لا يتحدث أي منهم مع الآخر. ينظرون، جميعًا، إلى أجهزتهم الإلكترونية المحمولة. فدون وجوده في القاعة، ليس بهم من حاجة إلى أن يبدوا كجبهة موحدة. هناك توتر بينهم، والتوتر جيد. يمكنه استخدام هذا التوتر لصالحه.
لم يزل مصرًّا على ألا يحبهم، رغم أنهم يبدون مثاليين.
يرن هاتفه المحمول. هاتف ذكي، وإن لم يكن آخر طراز ولا أغلاه. لكنه هاتف هو فخور به إلى حد كبير.
قال:
- آلو؟
إنها زوجته تريد أن تعرف ما الذي يود تناوله على العشاء، لحمًا بقريًّا أم دجاجًا. لا يهم ما الذي يختاره، فهو يعلم أنها قامت بالفعل بإخراج السمك المجمد من الثلاجة، فالعشاء إذن سمك. يبدو أنها تجد شيئًا من السعادة في إحباطه بتلك الأمور الصغيرة، أو لعلها طريقتها في مفاجأته كل يوم. زوجته هي الشخص الوحيد الذي لا يستطيع فهمه بسهولة، ولهذا تزوجها.
تضحك الابنة ضحكة مكتومة عندما ترى هاتفه.
يعرف كيف ينظرون إليه، كيف يرونه. يعتقدون أنه يتباهى. يعتقدون أنه قام بالرد على الهاتف، عن قصد، ليريهم أنه يمتلك هاتفًا كهذا. يعتقدون أنه كان في الخارج طوال هذا الوقت يرتب الأمور كي يرن هاتفه المحمول أمامهم.
لن يخطر ببالهم، أبدًا، أنه ما اشترى هذا الهاتف إلا لأنه أعجبه. أعجبه شكله. أعجبه ملمسه في يديه. أعجبه كل مميزات الهاتف. كان قد كافأ نفسه، واشترى لها شيئًا لطيفًا، جميلًا، على سبيل التغيير. لكن هؤلاء الأشخاص يعتقدون، على نحو أو آخر، أن شراءه للهاتف عملية لا علاقة له بها، ولا بما يشعر أو يحتاج، ويرون الأمر برمته متعلقًا بهم، هم. يرون الأمر وكأنه طريقته في الاجتهاد للحصول على شيء يملكونه بشكل طبيعي – المنزلة العالية.
إن رجلًا باديَ القبح، في يده هاتف ذكي جميل، لمشهد مثير للشفقة في أعينهم.
- يبدو أن أحدكم ناقص.
ويضحك على مزحته، وهو يعود إلى مكتبه. فترد الأم، بشيء من الضيق: - خرج ابني، فهو في حاجة إلى أن يفرد قدميه.
- فهمت.
يقولها، ثم يضغط زر البدء في الحاسوب القديم، فتنبعث فيه الحياة.
- لقد تحدثت إلى رئيسي المباشر. قضيتكم صعبة، وإن لم تكن مستحيلة. لأشرع في العمل، أحتاج إلى تفاصيل ابنتكم. ما اسمها؟

- إيموجين زولا نيوني.
ثم تشرع الابنة في تهجي الحروف، ليوقفها:
- أعرف كيف أتهجى، شكرًا لك.
يكتب، بإصبعين، وببطء.
توضح الفتاة لم تهجت له، بقولها:
- إنه اسم فريد، والكثير من الناس يخطئون في كتابته.
- إ. يـ. مـ. و. جـ. يـ. ن، أليس كذلك؟
- بلى.
- وأنتما: السيد والسيدة مَنْ نيوني؟
- نحن الدكتور والسيدة ماسوكو. دينجاني وثاندي.
- فهل نيوني إذن اسم زوجها؟
- لا.
- أنا متأكد من أنك تدرك أن هناك مشكلة في هذه الناحية. ماسوكو، ونيوني. فالأبوان، والابنة لهما اسمان أخيران مختلفان. كيف يمكنني أن أتأكد أن...
فتقاطعه الابنة:
- لقد تبنياها.
- في أي عام تبنياها؟
لتقاطعه الأم، غاضبةً:
- حقًّا؟ أهناك داع لكل هذا؟
- سيدتي. أنا على يقين من أنكِ تقدرين الحاجة إلى أدق التفاصيل في حالة كهذه. سنة التبني؟ انتظري، قليلًا. سجلاتنا تظهر أن إيموجين زولا نيوني وُلدت في الثالث من سبتمبر، 1978، وماتت في الثاني والعشرين من ديسمبر، 1987. في التاسعة من عمرها.
تنهض الأم عن كرسيها، وتهرع ناحية الحاسوب، وهي تقول:
- ما هذا السخف! لقد تبنينا جيني في سنة 1988.
يوقفها، بإيماءة من يده:
- آسفٌ سيدتي. لا يمكنني السماح لك بالنظر إلى شاشة الحاسوب. هذه سياسة (المنظمة). لكن يمكنني أن أطبع لك نسخة.
يضغط زِرًّا، فتدب الحياة في طابعة قديمة.
تقول الابنة، وهي تكاد تضحك:
- لا بد أنك تمزح.
يستغرق الأمر دهرًا إلى أن تتم الطابعة عملها. يُخرج النسخة من الطابعة، وبها: «إيموجين زولا نيوني، قُتِلت (ماتت) في الثاني والعشرين من ديسمبر،

عام 1987. تم الإبلاغ عن الوفاة بواسطة ميننشي تيكيتي. القرابة: عمتها».
يناولهم النسخة المطبوعة، فيتناوبون على قراءتها.
- أنا واثق أنكم تتفهمون أنه ليس من الممكن بالنسبة لي، ولا لأي شخص آخر في (المنظمة) أن يصدر لكم شهادة (دي إس 8044 زد).
فيقول الأب:
- أوراق التبني في حوزتنا.
- الشخص الذي تقول إنه مفقود، إيموجين زولا نيوني، يبدو أنه ميت بالفعل منذ أكثر من ثلاثين عامًا. يؤسفني أن المشكلة أصبحت أكثر تعقيدًا الآن، وأصبح التحقيقُ ضروريًّا، وقد تضطر الدولة إلى التدخل.
صُدم آل ماسوكو، ولاذوا بالصمت.
- إن كان بإمكان هذه السيدة، ميننشي تيكيتي، التي أبلغت عن وفاة إيموجين زولا نيوني، أن تحضر شهادة الوفاة، فقد نتمكن من الوصول إلى حقيقة الأمر.
في تلك اللحظة يُفتح الباب، ليدخل الابن.
تصرخ الأم، بطريقة مسرحية لا تروق فالينتاين، وتفاجئهم جميعًا.
- ماركوس! ماركوس! يقول هذا الرجل إن جيني ماتت منذ عقود من الزمن. ماتت، يا ماركوس!
تتخلى عنهم رباطة الجأش.
ويولّي اليقين.
وتدبر عنهم الثقة بالنفس.
أحسنت عملًا!
يغوص الابن في كرسيه، مهزومًا، ويغمغم:
- ما كان عليّ أن أترك يدها، أن أتخلى عنها...
يتابع فالينتاين تاناكا:
- يُقال هنا أيضًا إنكم أبلغتم عن اختطاف إيموجين زولا نيوني من قِبل جيستينا إنزومالو سنةَ 1988. وهذا أيضًا ممّا يجب التحقيق فيه.
تقول الأم، ساخرة:
- لا يمكنك أن تكون جادًا.
- يؤسفني أن أقول أن أمرًا كالاختطاف لا يمكن أن يؤخذ إلا بجدية.
لترد الأم، وكأنها تقرر واقعًا معروفًا:
- جيستينا لم تخطف جيني، وإنما كانت الفترةُ فترةَ الثمانينيات.
- آسف، ما علاقة أن الفترة كانت الثمانينيات بأمر كهذا؟
لتقول الأم بشجاعة، وتردد في الوقت ذاته:

- تعرفُ ما الذي كان يحدث في الثمانينيات. كان الناس.. يختفون.
- الناس لا يختفون، ولا يمكن أن يختفوا.
- حسنًا، لكنهم كانوا يختفون في الثمانينيات.
- للناس أجساد، والأجساد لا تختفي.
- حسنًا، كانت جيني تعيش في مكان اختفى منه كثيرون من الناس، فاعتقدنا أن جيني اختفت كما اختفوا. إلا أنها نجحت في الفرار مع جيستينا.
- أولًا قلتم إن إيموجين اختفت لأنها كانت فترة الثمانينيات، والآن تقولون اختفت لأنها عاشت في مكان بعينه.
- الزمان، والمكان، على حد سواء، هما ما جعل حالات الاختفاء تلك ممكنة.
تقول الابنة:
- إن هذا.. إن هذا...
ليقترح عليها فالينتاين تتمة كلامها:
- أعتقد أن الكلمة التي تبحثين عنها هي أمر (بائس).
فتسأله الابنة:
- كيف، ولماذا ستحقق في اختطاف شخص في عام 1988 وأنت تقول أنه مات عام 1987؟
لتضيف الأم:
- لو أنها ماتت عام 1987، فكيف تسنّى لنا أن نتبناها عام 1988؟
- وهذا تعقيد آخر. سأحتاج إلى رؤية شهادة الـ (دي إس 1 دي 3) الأصلية التي تثبت أنك بالفعل تبنيت من حسبت أنها إيموجين زولا نيوني. وسأحتاج أيضًا إلى نسخة مصدقة من تلك الشهادة لأضعها في سجلاتنا.
يقول الابن:
- لا أصدق هذا. يا سيد...
- تاناكا. فالينتاين تاناكا.
- سيد تاناكا، هل لديك أدنى فكرة عما نمر به الآن؟
- تم الإبلاغ عن وفاة إيموجين زولا نيوني رسميًّا في 1987. وأُبلغ رسميًّا عن اختطافها في 1988. والآن تريدون أن تبلغوا أن الشخص ذاته مفقود. لا شك أنكم ترون كم يمثل هذا الأمر مشكلة للـ (منظمة).

ماركوس

تقول مينينشي، وهي تفتح الباب وعلى وجهها ابتسامة من أمل: - أرجوك أن تقول لي إنهم عثروا عليها.

وعندما ترى ماركوس وثاندي، يرحل الأمل عن وجهها، وتبقى الابتسامة، ولكنها تأخذ شكلًا جامدًا، في سخرية بشعة مما كانت لتبدو عليه حقًّا.

- ثاندي! ماركوس! تفضلا.

هكذا قالت أخيرًا، وهي تفتح الباب على نحو أوسع، وتُدخِلهم، على مضض.

لم يرَ ماركوس والدته قَطّ بادية الاضطراب كالآن. لا شك أنها الآن تشعر بالضيق. تتقلب على كرسيها، وتتململ، تسند ظهرها، ثم لا تسنده.

- سببُ وجودِنا هنا هو أنكِ أبلغتِ في عام 1987 عن وفاة جيني.

خرجت كلمات والدته من فمها كما لو كانت اتهامًا.

تكتسح وجه مينينشي مشاعر عديدة، تكبتها، ثم تقول: - لا أرى العلاقة بين 1987 ووقتنا الحاضر.

- حسنًا، نريد تقديم استمارة (دي إس 8044 زد). نحتاج إلى الإبلاغ عن فقدانها. نحتاج إلى أن نعرف إلى أين نقلها فيدا.

- فيدا؟ تعتقدون أنه نقلها إلى مكان ما؟

فيوضح ماركوس:

- نعتقد أنه وضع جيني سرًّا في إحدى دور الرعاية حتى تموت بشكل طبيعي. وطبعًا، لا يمكننا السماح بذلك. نريدك أن تذهبي إلى (المنظمة) بشهادة وفاة جيني، كدليل على أنها لم تمت في عام 1987.

حينها يسمعون صوت الباب الأمامي وهو يُفتح، ثم يسمعون صوت موردخاي العذب من الرواق، وهو يقول: - عادت الغربان إلى قاعة المدينة.

قالت مينينشي لموردخاي الذي لم يدخل بعد: - حسنًا. إنه المكان الذي تنتمي إليه، السؤال هو أين كانت؟ فالغربان لا تهاجر، أليس كذلك؟ وما كانت لتعود في الشتاء، أليس كذلك؟

- لا. على الأقل لا أعتقد هذا. نحتاج حقًّا إلى معرفة المزيد عن الطيور.

تُعلِمه مينينشي أن هناك أناسًا برفقتها.

- لدينا ضيوف: ثاندي وماركوس ماسوكو.

يدلف موردخاي إلى الغرفة، ويقول -على سبيل الشرح لماركوس وثاندي: - كنا بالخارج في نزهتنا المسائية.

وفي يده اليمنى طائر زاهي الألوان، يأكل من كفه.

يُعجب ماركوس بالطريقة العفوية التي تميل بها مينينشي رأسها وهي تنظر إلى موردخاي بينما يشق طريقه نحوها.

- أعتقد أنه يريد أن يصادق الغربان.

هكذا يقول موردخاي بينما يقفز الطائر بحذر شديد من راحة يده إلى راحة يد مينينشي، وتوجه له مينينشي الحديث: - عن نفسي، فأنا أحب الغربان، لكنني أعتقد أن الصداقة معهم أمر مبالغ فيه إلى حد ما. لا يمكنك أن تثق بالغربان تمام الثقة. فهم يأكلون الجيف. هل تعرف ماذا يسمى السرب من الغربان؟ يسمونها (مقتلة غربان). أرى حقًّا أن عليك أن تفكر مليًّا قبل مصادقتهم، فلا أحسب إلا أنها صداقة لن يكون آخرها طيبًا لك.

- لم أكن أعرف أن لديك طائرًا.

يقول ماركوس.

- منذ بضعة أيام اصطدمت بالنافذة، وكسرت جناحها. اعتنيت بها ولم نكن نحسب أنها ستنجو، ولكن ها هي ذي، كما ترى.

يضع موردخاي بعض بذور الطيور في كف ماركوس، فيقفز الطائر من كف مينينشي إلى كف ماركوس، ويميل رأسه وينظر إليه بفضول.

تبتسم مينينشي، وتقول:

- عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة.

- مؤخرًا صادفت كريسِل طائرًا، وإن كنت لا أعتقد أنها وصلت إلى مثل هذه النهاية السعيدة.

تقول مينينشي وهي تربت بحنان على الريش الملون: - النهايات السعيدة نادرة للغاية.

ليقول موردخاي، بصوته الذي يبدو وكأنه بداية أغنية.

- مما يجعل هذا طائرًا نادرًا جدًّا حقًّا.

يرفرف الطائر في كف ماركوس، ويبدأ في الزقزقة.

فجأةً يخطر خاطر لماركوس، فيقول:

- أعتقد.. أعتقد أنه كان هناك طائر مثل هذا في مزرعة بوفورد.

لتقول والدته، باستخفاف:

- حقًّا؟ لا أذكر مثل هذا الشيء.

- بلى، أعتقد أنه كان هناك طائر.

يجلس موردخاي على مسند ذراع كرسي مينينشي، بينها وبين آل ماسوكو، كما لو كان يحميها، ويقول لمينينشي: - أليس لدى الشرطة أخبار بعد؟

- قطعًا هي ليست بأي من ثلاجات الموتى، وهذا مبعث على الراحة.

فتقول أم ماركوس:

- بالطبع هي ليست في ثلاجة للموتى، فهي في إحدى دور الرعاية. كل ما نحتاج إليه هو أن نعثر على الدار التي وضعها بها فيدا.
- يريد عائلة ماسوكو مني أن أذهب إلى (ذا تاور) وأخبرهم أن جيني لم تمت في 1987.
- وما علاقة 1987 بالحاضر؟
- علاقة قوية، على ما يبدو.
يتبادل موردخاي ومينينشي نظرة، ثم يقول: - حسنًا، سوف نساعدكم.
- (حسنًا، سوف نساعدكم)؟!
يتحول الضيق الذي تشعر به أمه إلى غضب.
- (حسنًا، سوف نساعدكم)؟!
تكررها، وهي تهرع إلى السلم تهبطه بسرعة مميتة.
- كان عليك أن تتركني أتولى الأمر يا ماركوس. (حسنًا، سوف نساعدكم)! تساعدوننا؟ إنهما يساعدان جيني. إنها في حاجة إلى أن يعرفا مكانها. عليهما أن يفعلا هذا من أجل جيني. أعرف أنك تحسبهما أناسًا لطفاء لأنها عمة جيني، وكان هناك ارتباط بين جيني وبينهما. ارتباط مع هؤلاء. ولكن هذين الشخصين قطعًا ليسا بأناس لطفاء. فمينينشي أعلنت وفاة ابنة أخيها، دون حتى أن تبحث عنها. لم تنتظر، وأعلنته. والآن، يستسهلان الحديث عن ثلاجات الموتى!
قالت هذا وهي تهبط السلم، وصوت صراخها يغطي على صوت طرق كعبيها العاليين.
- همم، على الأقل وافقا على مساعدتنا.
- مساعدتنا؟ مساعدتنا كانت بأن يردا على مكالمات أبيك المسكين طوال هذا الوقت، لا أن يجبرانا على المجيء إليهما. ولكن كيف هذا، فهما لا يتحدثان معنا. وكل هذا بسبب الزهور.
- زهور؟
- محل بيع الزهور، الذي اشتريته. تذكر أن مينينشي اعتادت أن تبيع الزهور فيه، وأنها عملت فيه لسنوات؟ إنها تزعم أنها كانت تريد شراءه، وتزعم أني كنت أعرف نيتها تلك، وأني ما اشتريته إلا لهذا، لأغيظها.
- وهل كنتِ تعرفين؟
- أعرف ماذا؟
- أنها أرادت شراءه؟
- لم يكن بإمكانها أن تشتريه، فهما يعيشان في هذا المجمع السكني المتهالك، في تلك الشقة ذات الأربع غرف، منذ أكثر من ثلاثين عامًا، فكيف تشتريه بحق السماء! ما من شيء في تلك الغرف الأربع إلا قد عفا عليه الدهر، حتى المجلات. لكم أكره أن أقول هذا، لكنهما فقراء!

يتوقف ماركوس، ويسألها:
- هل عرفتِ حينها أنها أرادت شراءه؟
- إياك، إياك أن تتعاطف مع هذين الشخصين، أبدًا. يزعمان أني ووالدك قد سرقنا جيني، ورشونا القاضي. لكن هل يمكنك أن تتخيل جيني تكبر في هذه الغرف الأربعة؟
تقول هذا وتقبض على يديه، وتقتاده إلى الأسفل.
يفكر ماركوس فيما لو نشأت جيني في تلك الغرف الأربعة، مع مينينشي وموردخاي ببساطتهما، بعفويتهما وألفتهما. وتُشعره الفكرة بالوحدة حتى يكاد يبكي.

فالينتاين

قطعًا ليست هذه بطريقة للتعامل مع امرأة، هكذا يفكر فالينتاين وهو ينظر إلى مينينشي تيكيتي وهي تجلس أمامه.

أما الرجل المحترم الموجود بالخارج، في انتظارها، فيعرف بالتأكيد كيف يتعامل مع امرأة. كان فالينتاين قد راقبهما وهما ينتظران في الفناء المزدحم. كانا يتقاسمان كل شيء –موزتهما، وبرتقالتهما، وقطعتهما من الكعك، وصحيفتهما وزجاجة مائهما. معًا كانا صابرين، راضيين بمجرد الانتظار.

كانت تتكئ بشدة على ذراع الرجل عندما دخلا إلى الفناء، وخلع سترته ليُلين لها تلك البقعة من الأرض التي اختارت الجلوس عليها. ثم جلسا ببساطة، وراحة، وتشاركا كل شيء. في كل شيء، كان الرجل لطيفًا، حتى في السماح لها بالمرور من الباب بمفردها. لقد فتح لها الباب الثقيل إلى حد ما، وأمسكه أثناء مرورها، وتقبل بهدوء قرارها بالمرور بكل ما سيأتي بعد ذلك، بمفردها.

هكذا يعامل الرجل المحترم النساء، كما لو كان كل الوقت في الدنيا ملك يديه، بهدوء، ولطف، هكذا حدث فالينتاين نفسه.

اعتقد الناس أنه بسبب وظيفته لم يفهم جمالَ أن يكون المرء لطيفًا، صبورًا، هادئًا. لكن لطالما علم فالينتاين أنه لتُحْسِنَ القيام بعمل من الأعمال، فإن عليك أن تأخذ ما يكفي من الوقت، وأن تتحلى بالصبر، وبالهدوء، وأن تكون لديك أهداف واضحة، أن تعرف ما الذي تريد تحقيقه معرفة تامة، وأن تكون لديك خطة عمل واضحة. ومهما كان العمل الذي أنت بصدده، فعليك أن تعمله بدقة وإتقان.

معظم الناس لم يفهموا هذا ولا عرفوه. كهذا الذي فعل هذا بمينينشي تيكيتي –أخت جولايد جوميدي، عمة إيموجين زولا نيوني، وبائعة الزهور، التي تعيش مع موردخاي جاتيرو، وإن لم يكونا متزوجين، والتي استجوبتها المنظمة عام 1978. شرّح المحقق وجهها، وحرق جسدها، وسحق عمودها الفقري –دون دقة أو إتقان. كان محققها هو (ج 10) سيئ السمعة، وهو لم يفهم ماذا كان يفعل، ولا سبب فعله له. كل ما في الأمر هو أنه تلقى تعليمات، ونفّذها. لو أنه فهم سبب قيامه بما كان يفعله، لما مزّقها هكذا، لو فهم لعلم أنه يحاول أن يصل إلى شيء ثمين بداخلها، وأن عليه –لهذا– أن يكون حريصًا، وإلا ضاع منه هذا الشيء الثمين إلى الأبد.

- وكيف لي أن أساعدك هذا الصباح؟

هكذا يسأل فالينتاين.

- أنا هنا لألغي بلاغًا بوفاة.

- تلغين بلاغًا بالوفاة؟

- أجل.
قالتها وهي تناوله أصلًا من شهادة الوفاة.
- فمن هذا الذي لم يمت؟
- ابنة أخي. ايموجين زولا نيوني. أبلغت عن وفاتها في عام 1987، لكنها لم تكن قد ماتت.
- إذن فقد كذبتِ.
- لا. فحينها كنت أحسب أنها ماتت، ولكن اتضح أنها كانت في عداد المفقودين فحسب.
- فمتى وجدتِها؟
- لم أجدها، وإنما وجدها شخص آخر. في عام 1988.
- وتبلغين عن هذا الآن فقط! فلماذا؟
- لأنها فُقدت من مستشفى ميتير دي، وهناك حاجة إلى شهادة (دي إس 8044 زد)، ومن الواضح أنه ما من سبيل سوى إبلاغي عن عدم وفاتها لتصدر لها تلك الاستمارة.
يا لآل ماسوكو! ليس هذا كلَّ ما قاله لهم. ليس هو على الإطلاق. لقد أمروا هذه المرأة أن تأتي إلى هنا، ولم يفكروا حتى في أن يعرضوا عليها توصيلها.
- ها أنا قد أبلغت عن عدم وفاة إيموجين زولا نيوني، وأتممت دوري. أرجوك الآن أن تشرع في عملك وتقوم بما تراه مناسبًا.
قالت مينينشي هذا، وهي تنهض، بصعوبة كبيرة، وأردفت: - لكنّ هناك شيئًا أود أن أقوله: فيدا دي فيلييه لا علاقة له باختفاء إيموجين. أعلم أن آل ماسوكو يريدون أن يجعلوا له علاقة بالأمر، بل يحتاجون إلى هذا. وأعرف أن هذا ما سيقودك إليه تحقيقك، بالطبع، فالمال تداولته الأيدي، وسيحصل آل ماسوكو على ما يريدون بطريقتهم، كما يفعلون دائمًا. لكني أريدك أن تعرف أن هناك بالخارج شخصًا يعرف الحقيقة. فيدا ليس مسؤولًا عن اختفاء إيموجين.
- يمكنني أن أؤكد لكِ أنه ما من مال تداولته الأيدي.
تنظر مينينشي في عينيه، وتقول:
- إنه لبالغ الحميمية هذا التدخل، هذا الدور الذي تختار الدولة أن تلعبه في حياتنا. بالغ الحميمية.
- يمكنني أن أؤكد لك أنه ما من مال تداولته الأيدي.
هكذا يكرر فالينتاين قوله، رغم أنه يعرف أنها سمعته في المرة الأولى، فهو يشعر أن عليه أن يقول شيئًا، أي شيء، وإلا سيقول ما يريد أن يقوله حقًّا: «نعم، أوافقك الرأي. إنه بالغ الحميمية، هذا التدخل، هذا الدور الذي تختار الدولة أن تلعبه في حياتنا».

في البداية لم يرَ فالينتاين أي تشابه، طبعًا باستثناء تلك الفجوة بين الثنيتين، ولكنه وهو ينظر إلى مينينشي الآن يرى شيئًا مألوفًا –شيئًا غير مادي، شيئًا مختلفًا كل الاختلاف. يرى شيئًا لم ينكسر. يدرك أن مينينشي لديها شيء ثمين للغاية. إذن فقد كان محقًّا: لم يستطع محققها أن يصل إلى شيئها الغالي الثمين. لقد حطمها، جسدًا، لكن روحها لم يمسسها من ضُرّ.

لا يمكنكم أن تكسروني. أترى، أعرف على سبيل اليقين أن أبوي كان بإمكانهما الطيران.

إنه صوت إيموجين ما يسمعه وهو يشاهد مينينشي وهي تجر الباب الثقيل، لينفتح بصرير، وينغلق بدويّ، وهي تمضي نحو ضوء الشمس الساطع.

ومرة أخرى، يجد فالينتاين نفسه يراقب مينينشي، ورجلها المحترم في الفناء. إنها تميل بشدة على ذراع الرجل المحترم وهما يغادران ببطء. لا يستطيع أن يرى، من هذه المسافة، إذا ما كانا يتحادثان أم لا. ربما لا حاجة بهما إلى الحديث. يرفع الرجل المحترم مظلةً يحمي بها من الشمس وجهها المعذّب. نعم، هكذا تُعامَل النساء –بلطف، وصبر، وهدوء.

ترفع مينينشي يدها اليسرى، وتفرد راحتها، فيرفرف طائر زاهي الألوان ويحط من فوق الشجرة على راحتها، بكل بساطة. يثب الطائر إلى كتفها، ويستقر هناك.

يشعر فالينتاين بحزن مدهش عندما يستديران أخيرًا ويواصلان طريقهما بعيدًا عن ناظريه. يدعو الله أن تتقاطع بهم الطرق مرة أخرى (أن يصادف لقياهما) –مينينشي وهذا الرجل المحترم، موردخاي، رجلها.

فالينتاين

- من بالباب؟
يسمع صوتًا يسأل، لكنه لا يعرف أهو للأم أم لابنتها.
- فالينتاين تاناكا.
يقولها، وهو يجتهد مطلًّا برأسه من نافذة السيارة، محاولًا أن يقترب ما استطاع من صندوق الاتصال الداخلي (الإنتركوم).
لا يرد أحد، فيردف:
- من (المنظمة)، مكتب أمين السجل.
لا يرد أحد، لكن تنفتح البوابة الكهربائية على مهل. يقود سيارته، ليجد أمامه أطول وأعرض ممر رآه في حياته، وفي آخره أعظم منزل رآه فيها. مرأى مهيب! لطالما قدر العمارة الاستعمارية العظيمة لمدينة الملوك. لا مراء في أن المباني صممها وبناها أناس لهم أهداف واضحة، يعرفون تمامًا ما يريدون تحقيقه، وكيف ينفذون رؤيتهم بشكل دقيق، أناس يفهمون أهمية البراعة، والدقة والصبر، أناس لديهم الوقت، ويحسنون استخدامه في إتقان ما يعملون. أما ما يبنيه اليوم الأثرياء الجدد فليس إلا بشاعات لا يمكن أن تضاهي العمارة الاستعمارية العظيمة، فهي مبان ضخمة لا جمال فيها، بناها أناس يعيشون في زمن متقلب، مما يجعلهم يشعرون ببالغ القلق وعدم الاستقرار، فلا يعملون عملًا حسنًا.
تحاول سلسلة من المرشات أن تُدِبّ الحياة في الفناء الجاف. يستغرب فالينتاين ألا تكون في كل تلك الساحة الكبيرة سوى شجرة واحدة – بونسيانا متوهجة. يراوده شعور بأن هناك سرًّا في الأمر.
- كان عليك أن ترى هذا المكان في الثمانينيات.
هكذا يقول له جاره في السيارة، لورانس تافارا، مردفًا: - لم أكن إلا رقيبًا حينها. كنا نأتي إلى هنا كل إجازة أسبوعية، غالبًا، للتحقيق في شكاوى ضوضاء يقدمها الجيران. لا أعرف ما أقول عن الحفلات التي كانوا يقيمونها هنا.
يجاهد فالينتاين قليلًا للتعامل مع انحناءات الممر وارتفاعه المتزايد.
يتابع لورانس:
- كان من الصعب -كما تعلم- ألا يشعر المرء في ذلك الوقت بالحسد عندما يرى أناسًا يعيشون على هذا النحو. بدوا كما لو أنهم فهموا كل شيء، واختاروا التسلسل المناسب من الأحداث واتبعوه. حينئذ كنت قد عملت في الشرطة الجنوب إفريقية البريطانية، وكنت قد حاربت في صفوف (جبهة روديسيا)، وماذا جنيت من ذلك؟ غرفتين في البلدات الفقيرة، أسميتهما منزلًا! أما هؤلاء فلم يوالوا أحدًا، ولم يناضلوا من أجل حريتنا، وكان كل ما فعلوه أن سافروا

إلى الخارج، في الوقت المناسب، واختاروا اللحظة المثالية للعودة، وأسماهم الناس «العائدون». وبطريقة أو بأخرى تحدثوا بلغة الدولة الجديدة، وفهموا عاداتها وأعرافها. حصلوا على أعلى الوظائف أجرًا، وانتقلوا دون خوف إلى الضواحي، وأرسلوا أطفالهم إلى أحسن المدارس، كل هذا دون أن يضحوا بخردلة. لقد كان حقًّا من الصعب ألا يُحسدوا.

يشعر فالينتاين بالفخر، فقد تعامل بنجاح مع الممر، وأوقف السيارة بأمان. يهم بالخروج، ليرى لورانس مترددًا، فيسأله، مازحًا: - أتشعر بالرهبة؟

ليقول لورانس، وهو يترجل من السيارة: - كان بإمكاننا أن نفعل ذلك عبر الهاتف.

- في ظروف كتلك، أعتقد أنهم يستحقون على الأقل زيارة منزلية.

- أتعرف ما مشكلتك يا فالينتاين؟

- أني بالغ القبح؟

- لا. مشكلتك هي أن لديك قلبًا من ذهب.

قلب من ذهب؟ لديه هو؟ يتوقف فالينتاين. وفجأة، تهتز ثقته. يجد يُمناه تبحث في جيبه عن الراحة التي تجلبها له خشخشة المفاتيح.

فيدق لورانس جرس الباب، لتفتح الابنة. تنظر إلى كليهما بريبة، أو لعلّ هذه طريقتها في النظر إلى من يأتون لزيارتهم. لا تفسح لهما الطريق.

يسأل فالينتاين:

- هل يمكننا الدخول؟

تفتح الباب على نطاق أوسع، وتتقدمهما، ليتبعاها.

على فالينتاين أن يعترف بأنه أمر فيه بعض الرهبة، أن تحدِّق إليك عشرة أزواج من العيون –الأب، والأم، والابن، والابنة، والجدة. وفي هذا المكان، في منزلهم، يبدو جمالهم خطيرًا. من الصعب أن تنظر في أي مكان آخر عندما تكون في مرمى عيون عشر. هل هذا هو السبب في أن ترمقه كل تلك العيون؟ لئلا تنظر عيناه إلى مكان آخر في المنزل.. أو لكيلا تنظرا إلى أي منهم نظرة مباشرة؟ ما الذي يخشون أن يراه؟

يعايش لورانس المسكين وقتًا عصيبًا. يهتز كوب الشاي والصحن في يديه المرتعشتين. ينسكب الشاي على الصحن، وتتشربه قطعتان من حلوى الكاسترد وُضعتا على الصحن، ثم ينساب على الأرض، ليلوث بساط آل ماسوكو الفارسي. ينظر إليه فالينتاين نظرات حادة، آملًا أن يفهم الإشارة فيعيد كوب الشاي والصحن إلى طاولة القهوة، لكن لورانس لا يرفع عينيه عن العائلة، الجالسة قبالته على نحو جميل، على هيئة نصف دائرة. أما فالينتاين تاناكا فيجد ملاذًا لعينيه في تلك النظرة الشاردة بعيني الجدة. وإليها يوجه

حديثه: - لقد تسلمنا شهادة وفاة إيموجين زولا نيوني، تسلمناها من مينينشي تيكيتي.
يزول التوتر عن الصمت.
- لكنْ، منذ بضعة أيام، تم الإبلاغ عن جثة امرأة في مزرعة بوفورد.
يتوتر الصمت مرة أخرى.
يشاهد آل ماسوكو وهم ينظرون إلى بعضهم بعضًا نظرة حائرة، قبل أن يعودوا لينظروا إليه، في انتظار التفسير.
- يزعم من عثروا على الجثة أنها جثة إيموجين.
فيقول الابن على الفور:
ليست جثة جيني.
- نظرًا لعلاقة إيموجين بمزرعة بوفورد، ستذهب (المنظمة) وتحقق في الأمر.
فتقول الابنة:
- ليست جثة جيني.
- إذا حدث أي شيء، فسيحرص لورانس تافارا، هذا، على الاتصال بكم، ويمكنكم الاتصال به إذا كانت لديكم أسئلة أخرى.
ينظر بإصرار إلى لورانس تافارا، فينظر إليه نظرة فارغة للحظات، قبل أن يتذكر فيخرج بطاقته من جيب صدره، ويناولها إلى آل ماسوكو، فتأخذها الأم.
- لورانس هو كبير المشرفين في قسم شرطة هيلسايد، وبروكسايد تحت سلطته.
- أجل، أنا كبير المشرفين في مركز شرطة هيلسايد، وبروكسايد تحت سلطتي. لعللكِ تذكرينني، من الثمانينيات. فقد جئت إلى هنا كثيرًا، شكاوى الضوضاء. كنت رقيبًا حينها.
ينجح لورانس في أن يصمت قبل أن تتم مقاطعته.
تقول الأم:
- إنها ليست جثة جيني.
- سأذهب إلى مزرعة بوفورد لإجراء مزيد من التحقيق، شخصيًا. صدقوني، أنا في صفكم. سأصل إلى حقيقة الأمر.
تقول الأم، وهي تنظر إلى الأب نظرة ذات مغزى: - تُرَى إلى أين سيفضي هذا التحقيق؟
لا يفوت فالينتاين أن الأب لم ينبس بكلمة منذ وصولهما، ولا أنه لم ينف احتمال أن تكون الجثة في المزرعة جثة إيموجين.
يقول الابن:
- آسف، لا أفهم يا سيد...
- تاناكا. فالينتاينِ تاناكا.

- هل يعني هذا أنك لن تصدر لنا شهادة (دي إس 8044 زد)؟
يكاد فالينتاين يرد عندما يلفت انتباهه شيء. يشاهد، مرتاعًا، الجدة وهي تزم شفتيها بكآبة قبيحة، قبل أن تفكهما، ويبدو الجانب الأيسر من وجهها كما لو أنه يتهدل. ثم تنظر في عينيه مباشرة، وتقول من الجانب الأيمن من فمها: - إنهم يخططون للإطاحة بالحكومة. يخططون لقلب نظام الحكم.
ولحسن الحظ يستحوذ انفجارها المفاجئ هذا على اهتمام الأسرة بالكامل. يتحلقون فوقها، وعليهم أمارات الخجل، ويشرح الأب، معتذرًا: - إنها المراحل الأولى من الخرف، علاوة على مضاعفاتِ سكتةٍ دماغية شديدة.
مردفًا:
- نحن لا نهتم بالسياسة.
ينهض فالينتاين ممتنًا، وهو يقول:
- ندعكم إذن للعناية بها.
ثم يندفع نحو الباب، دون حتى أن ينتظر لورانس، الذي يصبح ولا خيار أمامه سوى أن يتبعه، وفي يده قطعة الحلوى المبللة بالشاي. يكون آخر شيء سمعه فالينتاين تاناكا، قبل أن يغلق الباب الأمامي خلفه، الجدة صائحةً: - **أنت واحد منهم!**

ماركوس

ما كان على ماركوس أن يرفع سماعة الهاتف، أدرك هذا بعد فوات الأوان. إن حقيقة أن الخط الأرضي هو الذي رن، لا واحد من هواتفهم المحمولة، كانت كافية لتنبيهه إلى أن المتصل ليس صديقًا من أصدقاء العائلة المقربين، فهؤلاء يتصلون على الهاتف المحمول.

كان آل ماسوكو يجلسون جميعًا على طاولة الفورمايكا الصفراء، في المطبخ، ويتناولون إفطارًا معدًّا بعناية كبيرة، مشكلًا من العصيدة، والخبز المحمص، ولحم الخنزير المقدد، والبيض، والجريب فروت، والقهوة، إفطارًا نهضت أمه لتحضيره مبكرًا، على غير عادتها. كانوا، جميعًا، لم يزالوا يترنحون تحت وقع ما نقله إليهم فالينتاين تاناكا من أنباء، آملين، جميعًا، ألا تكون الجثة التي وُجِدت هي جثة جيني. ولما لم يعرفوا كيف يتصرفون، فقد لجأوا إلى الائتناس ببعضهم بعضًا. حتى كريسِل، شك ماركوس أنها تبذل جهدًا، بل جهدًا كبيرًا، لتتحلى باللطف. ألقت مزحة، ضحك عليها بقيتهم بشكل مبالغ فيه إلى حد ما، عن عدم قدرتها، بعد ست سنوات من التخرج، على إكمال أطروحتها. وكان لحقيقة أنها أسمت أطروحتها «مشروع الشبح» أن جعلت ماركوس يشك بشدة أنها لم تكتب منها شيئًا. فهو كلما سألها عنها، راحت تقول كلمات من عينة: «المعرفية»، و«التصنيفية» و«الجدلية».. كلمات لم تُغْنِ شيئًا في إقناعه بأن هناك رسالة بالفعل.

أما إيزميه فقالت إنها فهمت أطروحة كريسِل تمام الفهم (على الرغم من أنها أيضًا لم ترَ ولو صفحة واحدة منها)، وكانت تقول له: - إن الرسالة عن تاريخ بلادك، وكيف أنها لم تكن قادرة على أن تصبح أمة، لأن الدولة صبت الانتماء على الأرض، والأرض فقط. في الحقبة الاستعمارية، كان الانتماء مرتبطًا بكونك مستوطنًا، أما في زمن ما بعد الاستعمار فقد ارتبط الانتماء بأن يكون أصل الإنسان من البلاد. وهذا يعني أنه طوال تاريخ بلدك كان هناك، دائمًا، مجموعة أو أخرى يتم حرمانها من حقها في الشعور بالانتماء.

كان يشعر، وإن لم يقل قَطّ، أن إيزميه قد فهمت الأمر على نحو خاطئ، لأن الموضوع بدا.. سياسيًّا على نحو أكبر من أن تعالجه كريسِل.

- أشعر أحيانًا كأنني حوت على الشاطئ يحاول أن يخرج للعالم هذا الشيء الهائل الذي يستهلكه. وأحيانًا أخرى أشعر بأني يونس في بطن الحوت، متسائلًا: أين أنا بحق الجحيم، آيسًا أن يجد مخرجًا.

هكذا قالت كريسِل، وابتسامتها تخبرهم أن عليهم أن يبتسموا، أو يضحكوا على هذا أيضًا، رغم شعورها بالقلق الشديد والإثارة، واللذان ربما كان عليهم أن يقلقوا حيالهما.

- هل تعرفون أن لسان الحوت الأزرق يزن ما يعادل فيلًا؟
وهكذا قال أبوه، الذي دائمًا ما يلجأ إلى ذكر الحقائق في أوقات الشك.
بعد ذلك لم يقل أحد أي شيء، لثانية.. ثانيتين.. ثلاث. الصمت يبدو الآن خطيرًا.
رن جرس الهاتف. يا للرحمة!
دون تفكير، قام ماركوس، والذي كان يجلس قريبًا منه، والتقط السماعة.
- آلو؟
استقبلته صرخة عالية، حتى إنه انتفض يبعد أذنيه عن السماعة.
يعرف من الصرخة أنه ما كان ينبغي أن يرفع السماعة.
يقف، ثم يسير مسافة قصيرة من الطاولة، نحو النافذة، ويدير ظهره لعائلته.
- آلو؟
يكررها هذه المرة بصوت هامس، كما لو أنه لا يود أن يسمعه الباقون، لكنهم، بالطبع، يسمعون كل ما يخرج من السماعة، مهما كان خافتًا. يسأله صوت، واضح هذه المرة: - أهذا أنت يا ماركوس؟
ليجيب، همسًا:
- نعم. أنا.
ثم يشرع مَن على الطرف الآخر في البكاء، والنشيج، من القلب، نشيجًا رطبًا، حزينًا، مصدومًا، نشيجًا يكسوه عدم التصديق، واليأس، والألم المحض.
يود ماركوس لو كان هذا النشيج تمثيلًا، فلا يتأثر به، يود لو كان أداءً تمرن عليه صاحبه، لكنّ به شيئًا ملموسًا ينبيه بأصالته، وبأنه ليس سوى تعبير عن ألم عميق، عن عدم استيعاب خسارة فادحة. يكاد يحسد هذا الشخص على قدرته على الوصول بسهولة إلى هذه النقطة -على قبول احتمالية أن يكون هناك نوع معين من الحقيقة، حقيقة يعرف أن عليه أن يحاربها بكل ذرة من كيانه. إنها –بكل سهولة– تلمس الزوايا، فتحدد متغيراتِ شيء لمّا يتعرف به.
يريد ماركوس، أكثر من أي شيء، أن يغلق الهاتف. كيف يجرؤ هذا الشخص – كائنًا من كان– على التعدي بكل تلك البساطة، والقسوة، على منزله السعيد؟
- من هذا؟
يقولها ويسعده أن يكون في صوته حدة.
- أوه! آسفة!
هكذا يقول الصوت تلقائيًا، يبدو كصوت اعتاد صاحبه الاعتذار، متابعًا: - أنا جيستينا إنزومالو. مانزومالو. تذكرني من طفولتك؟ من بوفورد؟
- نعم، أذكرك.
يقولها ماركوس، ويشعر على الفور بالندم لأنه كره الاتصال.
- أتصل من أستراليا. فأنا أعيش هناك الآن.

تقولها ولم يزل أثر البكاء باديًا في تقطع كلماتها.
- همم. فهمت.
يقولها ماركوس، وهو يعلم أنها لو كانت محادثة غير هذه لفسّر ذكرها لأستراليا على أنه طريقتها في إخباره بأنها، رغم بدايتها المتأخرة في الحياة، إلا أنها نجحت فيها، أيضًا، لتخبره أنهما، رغم حسن حظه وسوء حظها، قد صارا الآن متساويين إلى حد ما في مخطط الأشياء الأكبر. بعبارة أخرى، لو كانت محادثة غير هذه، لراودته مثل هذه الأفكار السيئة التي يشعر دومًا بالندم بعدها للتفكير فيها. أمّا في هذه المناسبة، فهو يحسن الظن حقًّا، ولا يرى أن جيستينا جاءت على ذكر أستراليا إلا على سبيل تحديد مكانها له في الجغرافيا الشاسعة لعالم الشتات الذي يعيشون فيه.
- تلقيت مكالمة من رجل يدعو نفسه فالينتاين تاناكا، يقول فيها إنه تم العثور على جثة جيني في بوفورد. هل هذا صحيح يا ماركوس؟
- أخبرنا أنه تم العثور على جثة. نعم.
- هذا الرجل الذي يدعو نفسه فالينتاين تاناكا يقول إن جيني مصابة بفيروس الإيدز.
- لم يكن من شأنه أن يخبرك بهذا الأمر. فهو أمر خاص.
- إذن فهو صحيح؟
يأبى تمامًا أن يرد على هذا السؤال.
- ماركوس؟
يتردد، بعزم، ولكن يقول أخيرًا، وهو يتنهد: - نعم.
- يا إلهي! ماذا فعلوا بجيني؟
تسأل جيستينا وقد علا صوتها كرب شديد، وتكرر: - ماذا فعلوا بجيني؟
- من هم؟
- لا يمكن أن تكون هذه هي نهاية جيني.
يكرر ماركوس:
- من هم؟
- أنا قادمة إلى المنزل. هذا الرجل الذي يدعو نفسه فالينتاين تاناكا يريد مني أن أعود إلى المنزل، وأن أذهب إلى بوفورد، وسأفعل. يجب تصحيح الأمور.
يسأل ماركوس، وهو يسمع ارتعاشة صوته:
- من هم؟
- لم تتم محاسبتهم قَطّ على أي شيء. لا بد أن يحاسبوا على هذا. سنحاسبهم على هذا يا ماركوس. هل تسمعني؟
وفجأة يصبح صوت جيستينا واضحًا مرة أخرى، وتردف: - سنحاسبهم على هذا.

يا لها من «هم» مشؤومة غامضة. من «هم»؟
تكرر بصوت فيه حزم يذكره من أيامهم في مزرعة بوفورد: - هل تسمعني؟ سنحاسبهم على هذا.
- أجل.
يقولها، بنبرة الطفل المطيع الذي كانه في صباه.
تقول جيستينا بصوت فيه تعاطف، وازدراء، في الوقت ذاته: - إن عيونهم ليست عيونًا ترى الجمال. أشفق عليهم. فهم لا يعرفون ما لديهم. لا يمكنهم أن يقدروا النعم التي مُنحت لهم. لكم تحدثنا، أنا وجيني عن هذا!
يصدر صوت طقطقة، وينقطع الخط.
يغلق ماركوس الهاتف ببطء، وعلى مضض. ليس أمامه الآن إلا مواجهة عائلته. يماطل، فينظر إلى يده اليمنى، ويفاجئه حقًّا أن يرى في يده قلمًا، قلمًا أحمر، وقد كتب، في دفتر رسائل قديم مُصفرّ، منسي منذ زمن، إلى جوار الهاتف، على حافة النافذة، بخطه المنكوش: من «هم»؟
يغمره خوف مفاجئ ويضطرب قلبه ويشعر بوخز تحت إبطيه.
يستدير لمواجهة عائلته. لا ينظر أي منهم في عينيه – ولا حتى كريسِل التي غالبًا ما تتسم بالقدرة على المواجهة. ينظرون جميعًا في أطباقهم. بردَ الطعام، ولكنهم واصلوا تناوله، على مهل، وهم يعانون ليدسوا الملاعق الممتلئة في أفواههم.
- إنها مانزومالو.
- تقصد جيستينا؟ خادمة والديّ؟
تقولها والدته، كتصحيح أكثر منه سؤالًا.
يقول ماركوس:
- أجل.
وهو يجلس، متابعًا:
- تقول إنها عائدة إلى المنزل بناءً على طلب فالينتاين تاناكا.
ينظر أبواه إلى بعضهما بعضًا، ثم تقول والدته: - سمعتها تصرخ عبر الهاتف. يا لوقاحتها! دائمًا ما كانت بهذا الأداء المسرحي، تفرط في الدراما، أو بالأحرى في الهزلية. لكن فيم كل هذا؟ لا حق لها فيما تفعل. نحن عائلة جيني، وكما ترى فنحن لا نهول من الأمر. يمكننا أن نهول الأمر، ولكننا لا نفعل لأن هذا لا فائدة له، بأي حال من الأحوال.
يقوم ماركوس، الذي لم يزل ممسكًا بدفتر الرسائل والقلم، بوضع قطعة من الخبز المحمص الجاف في فمه ويمضغها على نحو آلي.
- أنا لا أثق بها. ولم أثق بها يومًا. كيف نجت في عام 1987؟ لقد مات أبي وأمي، فكيف نجت هي؟

- تقول إن «عليهم» أن يُحاسبوا على هذا. لست متأكدًا حقًّا مَن «هم».
يقولها ماركوس برفق، وهو يعيدهم إلى الحاضر، مكانًا وزمانًا.
فجأة يُسمع صوت حفيف عند باب المطبخ. يستدير آل ماسوكو جميعًا نحو الباب، وقد ملأهم الخوف. إن شيئًا بالخارج يريد أن يدخل. يصدر الشيء بالخارج صوتًا كريح طيبة، ولكنهم يعرفون على وجه اليقين ما هو حقًّا. يرونه يتسرب من تحت عقب الباب. يرون ما حاولوا إبقاءه في الخارج يدخل، بغير مجهود، كما لو كان بخارًا. وكبخار، يستقر فورًا، هنا، وهناك، وفي كل مكان. يغير لون كل شيء يلمسه، ويجعل كل شيء قاتمًا، حتى لكأن المنزل، بأسره، في حالة حداد. كمرض، يهاجمهم جميعًا.
تذهب والدته لتصنع لنفسها كأسًا من مسحوق برتقال (مازو) وتضع عليه بعض الفودكا، وتتوجه إلى خلوتها، وتنظر في الأفق كما لو أنه يحمل مستقبلًا لا يعنيها كثيرًا. يجلس والده ناظرًا إلى كفيه باهتمام بالغ، وهو يقرأ خطوط كفه محاولًا أن يحدد بدقة تلك اللحظة التي بدأت فيها الأمور تسوء. ينظر ماركوس إلى يديه اللتين لم تزلا ممسكتين بالدفتر والقلم الأحمر.
من «هم»؟
تأخذ كريسِل الدفتر منه، وتقرأ ما كتبه.
- كلنا يعرف من «هم». لم يعد بإمكاننا أن نتظاهر بغير هذا.
تقولها، مردفة:
- لا يمكن أن تكون جيني قد ماتت. لن يكون، والكثير من الأمور ما زالت في حاجة إلى تسوية.
يرى ماركوس اللحظة على حقيقتها: بدايةً لأمر إما أن يجمع عائلته معًا، ويقويها، وإما أن يستغل هشاشتهم وضعفهم فيمزقهم. يأمل أن تكون بداية لما يجمع بينهم، حتى وهو يدرك لأول مرة أنهم جميعًا بالغو الهشاشة. ولكن، وبكل صدق، ماذا تبقى له سوى الأمل؟ تحدثه نفسه، رغم أنه غير مقتنع بالمرة، بأن الأمل أفضل بكثير من تقبل الأمر على ما هو عليه.
يعرف أن والده بحاجة إلى شيء من الطمأنينة، لكنه لا يعرف ما الذي ينبغي أن يُقال في مثل هذا الموقف، فيضع يده على كتف والده ويضغط عليها، برفق.
تفتقر عينا الأب الناظرتان إلى ماركوس إلى اليقين، حتى وإن لامست الشفاه ابتسامة صغيرة. هذه ابتسامة المهزوم.
يبادله ماركوس ابتسامة ضعيفة، وينهض، ليرحل.
يُجري والده يده على السطح الأملس لطاولة الفورمايكا الصفراء، ويقول: - لقد بدأ كل شيء من هنا، أليس كذلك؟ على هذه الطاولة، تحديدًا.
- ما الذي بدأ؟

- النهاية.. نهايتنا مع جيني.
يجلس ماركوس، مرة أخرى.
يرى ماركوس نفسه، وهو فتى في الثامنة عشرة من عمره، يقع في الحب، تحت شجرة جكراندة وهو يستمع إلى قصة عن الفيلة السابحة في نهر زامبيزي. يرى نفسه وهو يُقَبّل الفتاة التي يحبها -جيني، صديقة طفولته. يراها وهي تقول، «عيوننا لا ترى الجمال» بينما تسحبها جدته بعيدًا. يرى نفسه وهو يتبعهما إلى المنزل -مرتبكًا. يرى أمه وأباه جالسين على طاولة الفورمايكا الصفراء، وعيناهما مسبلتان. يرى نفسه وهو يمد يده ويمسك بيد جيني، عازمًا على سحبها بعيدًا. يرى جدته تصرخ وهي تهز جيني: - لا يمكنك الحصول عليه. قل لهم يا دينجاني. أخبرهم! لم يعد بإمكانك التظاهر بعدم رؤية ما حدث هنا بعد الآن. حان وقت الحقيقة. إنهم بحاجة إلى معرفة الحقيقة قبل فوات الأوان.
ينظر إلى أبيه. تقول جدته:
- جيني مصابة بفيروس الإيدز.
يرى نظرة الحيرة تشقّ طريقها إلى عيني جيني. يرى تلك العينين تنظران إليه -تتوسلان إليه أن يثبت بطريقة أو بأخرى أن هذا كله غير صحيح. يرى نفسه -ويحاول أن يوقف نفسه ذات الثمانية عشر عامًا فلا يستطيع- يرى نفسه قد تخلت عن يد جيني. يرى نفسه يرفع يده ويمسح فمه.. الفم الذي قبل لحظات فقط كان قد قبَّل جيني بسعادة. لقد اختار أن يعتقد أن مظهر الاشمئزاز على وجهه قد تم تضخيمه بمرور الوقت، وشُحِذ ليصبح جرح السكين أكثر عمقًا. يرى نظرة تدخل عيني جيني. إنها نظرة يتذكرها جيدًا. لا يزال بإمكانه سماع والدة جيني، إليزابيث، تقول لجيني ذات الثماني سنوات: «دعيه يذهب. عليكِ أن تسمحي له بالرحيل»، لم يزل بإمكانه رؤية النظرة التي تدخل عين جيني ذات الثماني سنوات. إنها نظرة تعني تركه يرحل.
- لكن قبل ذلك كنا سعداء هنا، أليس كذلك؟
هكذا يقول والده الآن، وقد راحت يداه ترتجفان وهما تواصلان المسح على سطح الطاولة.
- بلى. بالطبع.
- لهذا لن أتخلص من هذه الطاولة أبدًا. أعلم أنها أصبحت طرازًا قديمًا. وأنها من البلاستيك وتلك الأشياء، وصفراء كذلك، لكننا كنا سعداء حقًّا هنا. في يوم من الأيام.
لا يعرف ماركوس ماذا يفعل، فيلمس إحدى يدي أبيه المرتعشتين بحنان.
يسأله والده:
- تُحبني، أليس كذلك؟
- بالطبع.

- لم تكن تحبني طيلة الوقت.
- بل أحببتك دائمًا.
- الطريقة التي نظرت بها إليَّ في اليوم الأول في حقل عباد الشمس عندما أتينا لنأخذك -كما لو لم أكن شيئًا. لا، ليس كما لو لم أكن شيئًا، بل كما لو كنت مدعاة للخجل، كما لو كان ينقصني شيء.. شيء مهم.. ضروري.
- إنما كان ذلك من أثر الصدمة، ليس إلا.
- لقد كنتَ محقًّا بشأني بالطبع. كنتَ محقًّا في اعتقادك أن شيئًا ينقصني. الانطباعات الأولى، هيه؟
- أبي...
- أرجو أن تظل تحبني فيما بعد.
- بعد ماذا؟
فيقول والده:
- بعد الحساب.
- لدينا جميعًا ما نُحاسَب عليه.
يومئ ماركوس برأسه. نعم، لديهم جميعًا ما يُحاسَبون عليه.
- لم يعد هناك مفر من الحساب.
يقولها والده، مردفًا:
- ما حدث في مزرعة بوفورد في عام 1987، كنت أنا المسؤول عنه.

دينجاني

كلما فكر دينجاني فيما حدث في عام 1987 (وكم فكّر فيه!)، اقتنع أنه مرتبط ارتباطًا مباشرًا بما حدث في عام 1965. لم يساوره شك أنه لولا أن أباه -إمبونجيني ماسوكو، سُجِن بسبب ميوله السياسية عام 1965، لما شارك هو – دينجاني- بشكل مباشر في موت كل هؤلاء الناس في مزرعة بوفورد في 1987. كان إمبونجيني ماسوكو نموذجًا للأزواج والآباء في منتصف القرن العشرين: لا يهتم كثيرًا بزوجته وطفله، عنيف جسديًّا في أحيان نادرة، يكون فيها مرعبًا، كما يشرب في بعض الأحيان إلى حد الثمالة. من حيث المظهر، كان كمعظم الرجال في بلدتهم، متوسطة الطبقة: محترم، مسيحي، متعلم. لم يكن هناك ما يميزه بشكل كبير. من حين لآخر، يدعو بعض أصدقائه من المدرسين إلى المنزل، ويتحدثون عن أوضاع البلاد، وغالبًا ما يؤدي الحديث إلى جدال بالغ الصخب، ويؤدي الجدل الصاخب حتمًا إلى مباريات من صراخ المخمورين، كثيرًا ما تحولت إلى التحامات جسدية، قد تكون عنيفة في بعض الأحيان. لكن حتى هذا لم يكن شيئًا استثنائيًّا -كان على الرجال المستعمرين المتعلمين أن ينفثوا عن إحباطهم بشكلٍ أو بآخر. في الواقع لم يكن الأمر يتطور إلى حد وقوع الضرر. فقد كانوا دائمًا يعودون إلى العمل، ويظلون «الأولاد الطيبين» نماذج توضح كيف أن النظام الاستعماري مفيد للأفارقة، توضح كيف أن الرسالة الحضارية التي يقدمها النظام الاستعماري قد آتت ثمارها، توضح كيف تم تخفيف العبء على الرجل الأبيض، وتوضح كذلك أنه سرعان ما سيكون الأفارقة مستعدين لحكم بلادهم، ولو بعد حين.

رغم ذلك، كانت حياة زوجة إمبونجيني ماسوكو حياة غير نمطية. عملت يونيس ماسوكو كخادمة، رغم أن زوجها يعمل ناظرًا محترمًا. كانت معظم زوجات رجال الطبقة الوسطى معلمات، أو ممرضات، أو ربات بيوت، وغالبيتهن العظمى ربات بيوت. كان معظم الناس في حيرة بشأن لِمَ تعمل يونيس ماسوكو أصلًا.

ومع ذلك، كان هناك أشياء عن آل ماسوكو لم يكن بإمكان جيرانهم معرفتها بمجرد النظر إلى الزوجين الجميلين اللذين يعيشان في منزلهما البعيد بعض الشيء، والمؤلف من أربع غرف، بحديقته التي تحظى برعاية جيدة، وبسيارتهما الفولكس واجن المتوقفة تحت شجرة الأوكالبتوس. لم يكن بوسعهم أن يعرفوا أن إمبونجيني ماسوكو، علاوة على كونه زوجًا وأبًا منفصلًا عن زوجته وابنه بعض الشيء، ويسيء معاملتهما جسديًّا في بعض الأحيان، ويسكر في بعض الأحيان- لم يكن بوسعهم أن يعرفوا أنه سادي، يسيء إلى زوجته عاطفيًا وعقليًا. لم يمكنهم أن يعرفوا أنه رفض مساعدة زوجته في الالتحاق بمدرسة التمريض أو التدريس؛ فمع علمه التام بضرورة موافقة

الزوج وتوقيعه، رفض التوقيع على استمارات الطلب الخاصة بها. لم يمكنهم أن يعرفوا أنه ترك زوجته، عمدًا، تفشل في الحصول على وظيفة «محترمة». لم يمكنهم أن يعرفوا أنه رفض إعالة أسرته براتبه. لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا أن إمبونجيني ماسوكو فعل كل هذا لأنه كان لديه شك، يرقى لليقين، في أن الطفل الذي جاءت به زوجته، دينجاني، ليس ابنه. لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا أنه، بالإضافة إلى أنها زوجة غير نمطية من الطبقة الوسطى عملت كخادمة، فإن يونيس ماسوكو (رغم كل زخارف الطبقة الوسطى) قد عملت كعاهرة في شيبين في جنوب إفريقيا، حيث التقت هي وإمبونجيني. لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا أنها كانت تعيش حياة مختلفة تمامًا عن تلك التي وعدها بها إمبونجيني ماسوكو عندما تحدَّث إليها، وهو حديث التخرج من جامعة فورت هير، حديثًا بليغًا بإنجليزية الملكة، حديثًا سحرها وأسر لُبَّها.

لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا أنه بينما تسير في الشارع، رافعة رأسها، وقد تراكم الغبار على حذائها البالي، أنها –في تلك اللحظة تحديدًا– تخطط للانتقام. لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا أنها انتظرت ستة وثلاثين شهرًا للانتقام – فانتظرت حتى أنهى زوجها سداد ثمن طاولة الفورمايكا الصفراء، وكراسيها الأربعة المتطابقة التي أصبحت مصدر فخر لمطبخهم. لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا أن إمبونجيني ماسوكو لم يسمح لزوجته وابنه بالجلوس على طاولة الفورمايكا الصفراء. لم يكن بإمكانهم معرفة أن يونيس ماسوكو ودينجاني ماسوكو يتناولان طعامهما، كل وجبة منه، على أرضية المطبخ الأسمنتية الباردة.

أو ربما كانوا يعرفون كل هذا، وأكثر من ذلك بكثير. لا يمكنك أبدًا أن تتأكد ما الذي يعرفه الجيران والمتفرجون بمجرد النظر إليك، وما الذي لا يعرفون.

لم يكن لدى دينجاني، ذو السنوات التسع، أدنى فكرة عن أن عائلته ليست ككل العائلات. ولذلك، ففي الصباح الذي شاهد فيه أمه تقف إلى جوار باب غرفة المعيشة وهي تلوح بشكل جميل لوالده وهو يبتعد، وعلى شفتيها أحلى ابتسامة.. لم يكن لديه أدنى فكرة عن أن هذا آخر يوم يرى فيه أباه.

شاهد والدته تقف إلى جوار الباب، لم تعد تلوح، ولم تعد تبتسم، وإنما تنصت لصوت الفولكس فاجن وهو يتلاشى شيئًا فشيئًا، حتى إذا تيقنت أن السيارة أصبحت على مسافة آمنة، أغلقت الباب واستدارت نحوه.

- اذهب، واغسل وجهك وارتدِ بدلتك الزرقاء.

هكذا قالت له، فجأة، وقد علاها الاضطراب والعصبية، متابعة: - واغسل أسنانك، ومشط شعرك.

فكت أزرار زي الخادمات الوردي الفاتح، وانسلت منه، فكان تحته فستانٌ جميلٌ مزخرفٌ بزهور زرقاء بنفسجية كبيرة. حتى تلك اللحظة لم يكن يدري أن لدى أمه فستانًا بهذا الجمال. وقف مذهولًا يراقبها، وقد بدت كما لو أنها

تتحول أمام عينيه. مشيت نحوه، تاركة زي خادمة المنزل على الأرض –بلا مبالاة لم يعهدها منها.

- لا تقف هكذا. عليك أن تسرع. اغسل وجهك، ونظف أسنانك، ومشط شعرك.

- هل نحن ذاهبان إلى مكان ما؟

سألها، وهي تمسك بيده وتقتاده إلى الحمام.

قالت:

- اليوم هو اليوم الذي تتغير فيه حياتنا.

وراحت تنظف وجهه بصابون (لايفبوي)، ولأول مرة يبدو أنها لا تهتم أدخل الصابون في عينيه أم لا.

- من الآن فصاعدًا، سنذهب إلى أماكن كثيرة. لا حد لنا نقف عنده الآن سوى السماء.

خرجا من المنزل، واستمرا في المشي لما بدا كساعات طويلة، ويده ملتصقة بيد والدته في قفازها الأبيض. شاهد دينجاني الزهور الزرقاء البنفسجية تتراقص على جسد والدته. أصابه العطش، وظلا يسيران. تعبت ساقاه، ولم يتوقفا. ثقُلت عيناه وظلا ماضيين في طريقهما. لم تبطئ والدته من وتيرتها -حتى حين أبطأَ هو عندما صارا على مقربة من شارع لوبينجولا. لم يكن يعرف الكثير عن المدينة، غير أنه يعلم أنه لا يُسمح للأفارقة، بموجب القانون، بعبور شارع لوبينجولا (ما لم يكونوا ممن يعملون في المدينة أو ضواحيها)، ولا بالسير على الأرصفة. لقد سمع أباه كثيرًا وهو يتحدث عن هذا الأمر مع أصدقائه من المعلمين ويصفه بأنه «ظلم».

سحبته أمه من يده وتقدمت، قائلة له، دون أن تلتفت إليه وراءها: - لا توجد مشكلة. هكذا أذهب إلى العمل كل يوم.

كان هناك الكثير من الأشياء في حاجة إلى الاستيعاب في المدينة الاستعمارية -المباني الشاهقة، والسيارات المسرعة، وحشود الناس. كان الأمر مذهلًا، لم يكن أمام عيني دينجاني من خيار سوى ترك الزهور الزرقاء البنفسجية على فستان والدته ومراقبة كل ما حوله. لم يصبح أقل رعبًا عندما تركا فوضى المدينة، وراحا يسيران في الطرق الأكثر هدوءًا التي تصطف على جانبيها الجكراندة وأشجار البونسيانا الملتهبة والأكاسيا في الضواحي. شعر دينجاني بالامتنان لما قدمته الأشجار الجميلة من ظل. كل شيء هادئ هنا. لا يزعج هذا الهدوء إلا نباح كلب حراسة يقوم بعمله. كل شيء أخضر. كل شيء كبير. ساحات كبيرة، بها منازل كبيرة من طابق واحد. لم يكن هناك من حاجة إلى إخبار دينجاني أن هذا هو المكان الذي توجد فيه الحياة الجيدة. كان المكان هادئًا ومسالمًا.. مختلفًا تمامًا عن المكان الذي يعيش فيه، حيث الغبار والضوضاء في كل مكان، وحيث يعيش الناس الخدَّ في الخدّ، أو بعبارة أدق

فوق بعضهم بعضًا. قبـل ذلك اليـوم، لم يكن دينجانـي يطمح إلى أي شيء. الآن لديه طموح، وطموحه هو أن يعيش هنا، في الضواحي، في يوم من الأيام.
أخيرًا، وصلا إلى وجهتهما. قرعت أمه جرس البوابة، ليجدا البستاني أمامهما على الفور، بملابسه الزرقاء الباهتة، وقبعةٍ سوداء، مائلة بعض الشيء.
- مرحـ...
ماتت التحية في منتصفها، وعبس، وتردد.
- افتح البوابة يا فيليمون.
هكذا قالت أمه، بنبرة قوية.
بدا أن فيليمون قد كوّن الاستجابة المناسبة، لكنه، بعد ذلك، نظر إلى دينجاني، ووازن بعض الأمور، وقرر ألا يقول شيئًا.
كررت أمه قولها:
- افتح البوابة يا فيليمون.
نظر إليها فيليمون من رأسها إلى قدمها، ثم أجرى ريقه، وبصق.
- ألا تعلمين أن اليوم يوم عمل؟ لماذا تلبسين كما لو أنكِ ذاهبة إلى الكنيسة؟!
- افتح البوابة يا فيليمون!
كررت والدته قولها، بنبرة تخبره أن صبرها يوشك على النفاد.
- أليس هذا فستان السيدة؟
هكذا سألها، وقد ومضت في عينيه نظرات الخوف والحقد، في الوقت ذاته.
- لقد أعطته السيدة لي.
- سيدتي لن تحب هذا على الإطلاق.
- من لدى البوابة يا فيليمون؟
قالها صوت من داخل الساحة، فأجفل فيليمون.
- إنها يونيس، يا سيدتي.
- حسنًا. لا تقف هكذا كالأحمق أيها الأحمق، دعها تدخل. إنها متأخرة عشر دقائق بالفعل. الحق أن كل يوم عندكم كيومٍ جديد أيها القوم، لا تتعلمون، أليس كذلك؟
- أجل سيدتي.
قالها وهو يفتح البوابة سريعًا، متابعًا:
- كل يوم عندنا كيومٍ جديد يا سيدتي.
بنبرة تتحول بشيء من عدم اليقين من المزاح إلى الجدية، محاولًا أن يقيس مِزاجَ سيدته.
عادت إلى المنزل.

سألت أم دينجاني فيليمون وهي تدلف إلى الساحة:
- هل السيد كويتزي هنا؟
- هه؟
- أسألك.. هل السيد كويتزي هنا؟
- وماذا تريدين منه؟
- هذا شأني أنا، لا شأنك.
أصدر فيليمون من مؤخرة حلقه صوتًا عبر به عن ازدرائه وامتعاضه، وقال: - لو كنتِ زوجتي، لـ...
- لو كنتَ زوجي، لقتلتُ نفسي منذ زمن.
ضحك فيليمون، ساخرًا:
- الغرور. كثير من الغرور. هذه مشكلتك يا يونيس. الغرور.
- الضعف. كثير من الضعف. هذه مشكلتك يا فيليمون. الضعف.
وكان هذا هو نهاية تلك المحادثة.
سارا في ممر متعرج، توقفت السيارات بطوله، سيارات رأى دينجاني أنها أكثر مما يمكن أن يستخدمه رجل واحد، ثم تجاوزا الشرفة الأرضية، وهما يشقان طريقهما نحو الجزء الخلفي من المنزل حيث باب المطبخ، المعروف أيضًا بمدخل الخدم.
وبينما كانت يد والدته بقفازها الأبيض تفتح النصف العلوي من باب المطبخ، قال صوت من الداخل: - يونيس، أهذه أنتِ؟ لقد أتيتِ في الوقت المناسب. أيمكنك مساعدتي في هذا... ما هذا الذي ترتدينه بحق السماء؟!
- فستان يا سيدتي.
- ألا أرى أنه فستان! إنه فستان أعطيته لكِ. كيف بحق السماء تنوين أن تعملي وأنتِ ترتدين هذا الفستان؟!
- لا أنوي أن أعمل.
- معذرةً؟
- لست هنا لأعمل يا سيدتي.
- لا أصدق هذا.. فلم أنتِ هنا إذن؟
- لرؤية السيد إيميل كويتزي.
لم ترد صاحبة الصوت، فتابعت أم دينجاني:
- أعرف أنه هنا يا سيدتي. سمعتكِ تتحدثين في الهاتف مع السيدة سيمبسون عن مجيئه إلى هنا اليوم.
- همم! أبدًا.
جعل الخوف الصوت حادًا.

- يا للوقاحة! دائمًا تسترقون السمع، دائمًا تختلسون النظر، دائمًا تتجسسون. لا يمكن للمرء أن يحظى بشيء من الخصوصية في منزله معكم أيها القوم.
- عزيزتي؟ فيم كل هذه الضجة؟
قالها صوت رجل، يحاول ما استطاع أن يهمس، متابعًا:
- قلت لكِ إنني بحاجة إلى السكينة والهدوء اليوم. فنحن نناقش أمورًا ذات أهمية كبيرة للبلاد.
- أعرف يا عزيزي، لكن يونيس هنا وهي تريد أن ترى إيميل كويتزي.
يسود الصمت.
ثم يسأل صوت الرجل:
- وكيف عرفتْ يونيس أن إيميل كويتزي هنا؟
- حسنًا.. حسنًا.. وهل يغيب شيء عن الخدم! فلهم مصادرهم، وطرقهم، أليس كذلك؟
فقالت والدته، دون أن تحاول أن تهمس:
- سمعتُ سيدتي تتحدث إلى السيدة سيمبسون على الهاتف.
ليرد صوت السيدة، بِغلٍّ:
- لكم سأكون ممتنة لك لو لم تتطفلي على محادثة لستِ فيها طرفًا!
- ولكم سأمتن لك عزيزتي أجنيس لو لم تناقشي ما يهم البلاد مع السيدة سيمبسون. تعرفين مدى أهمية هذا الاجتماع بالنسبة لي، وما تكبدت من عناء لكي يُعقد هنا. إن كلفتني شفتاك السائبتان ترقيتي...
هكذا قال صوت الرجل الذي في الداخل، بنبرة مشؤومة.
قال صوت رجل آخر من الداخل:
- هل كل شيء على ما يرام؟
- نعم نعم. بالطبع يا إيميل. فقط بعض المشكلات المنزلية.
ليصحح صوت المرأة بلطف:
- إنه يعني بعض المشكلات مع خدم منزلنا.
سمع دينجاني والدته وهي تتنحنح قبل أن تقول:
- سيد كويتزي، أود أن أتحدث معك سيدي.
ساد صمت طويل هذه المرة.
شاهد دينجاني قطرة من عرق تتشكل، ثم تنسال على عنق أمه قبل أن تختفي في زهرة من أزهار فستانها.
أخيرًا، قال صوت المرأة:
- السيد كويتزي رجل مهم ومشغول جدًّا، جدًّا.

- أعرف أن السيد كويتزي رجل مهم جدًّا. ولذا فأنا في حاجة إلى الحديث معه.
- وكيف تعرفين أنه رجل مهم؟
قالها صوت المرأة وقد كساه الخوف حدةً وعلوًا.
- لأني أقرأ الصحف يا سيدتي.
ساد صمت آخر كاد يكون طويلًا لولا أن قطعته أم دينجاني بقولها: - أعلم أنك ترأس (الشؤون الداخلية) يا سيد كويتزي. أعتقد أنك ستجد عندي أخبارًا في غاية الأهمية.
قال الرجل، إيميل كويتزي، وقد جاء أخيرًا ليقف بجانب الباب: - فما هي؟
كان رجلًا ضخمًا، يملأ المدخلَ بأكمله بحضوره. بدا أن صدره البرميلي مليء بالكثير من الهواء. لكن أكثر ما به إثارةً للإعجاب كانت تلك النظارة التي يلبسها: قرصان دائريان داكنان لا يسمحان لك برؤية عينيه مما يزيدك على الفور فضولًا بشأنه.
قالت أم دينجاني:
- الأمر يتعلق بزوجي.
ضحك إيميل كويتزي، ضحك ملء فمه دون أن تضحك عيناه، وقال: - أنا لا أتعامل مع هذا النوع من «الشؤون الداخلية»، قالها ولكنه بقي إلى جوار الباب. وتابع: - فما القصة إذن؟ وجدتِ زوجك يعاشر إحدى المومسات؟
لم تُنزل أم دينجاني عينيها عن القرصين الداكنين على وجه إيميل كويتزي. نظر دينجاني إلى إيميل كويتزي في الوقت المناسب ليرى رأسه تنحدر بشكل غير محسوس. كان إيميل كويتزي قد نظر إلى صدر أمه، لم يشك دينجاني في هذا.
- زوجي وأصدقاؤه.. إنهم يتآمرون للإطاحة بالحكومة. يجب أن يُحاكموا بتهمة الخيانة.
وهنا ضحك إيميل كويتزي، ضحك ضحكة حقيقية، قهقه.
فأكملت أمه بعزم، دون أن يثنيها ضحكه عن الكلام:
- زوجي هو إمبونجيني ماسوكو، وكل أسبوعين يلتقي مع رفاقه هؤلاء...
وتلت قائمة بأسمائهم، راح ضحك إيميل كويتزي يخفت وهي تتلوها.
- تقولين يتآمرون؟
- نعم، يخططون للقتال من أجل الاستقلال. لقد سمعتهم.
- ولمَ تخبرينني بهذا؟
لم ترد أمه على السؤال بشكل مباشر، وإنما مدت يدها في حقيبتها، وأخرجت ورقة صحيفة مطوية بعناية، وبسطتها بعناية كبيرة كذلك، وأرتها لإيميل كويتزي. لمح دينجاني كلمة «مكافأة» في الورقة.

- ما أخطر غضب النساء!
وفي تلك اللحظة لم يكن لدى دينجاني شك في أن أمه قد نالت ما أرادت، أيًّا كان.
- يريد ابني أن يكون طبيبًا.
هكذا قالت أمه، وكانت هذه أخبارًا جديدة لدينجاني، وتابعت: - جئت لأتأكد من أن يكون طبيبًا في يوم من الأيام.
نظر قرصا إيميل كويتزي الداكنان إلى أم دينجاني طويلًا، ثم قال: - سأرى ما يلزم من ترتيبات.
قالها، وهو يستدير ليعود إلى اجتماعه، وأغلق شرّاعة باب المطبخ خلفه.
سمع دينجاني والدته تأخذ نفسًا عميقًا ومهدئًا، ثم نظرت إليه لأول مرة منذ وصولهما، وكان كل ما قالته (على سبيل التوضيح): - لقد خيَّب أبوك أملي فيه.
ثم أمسكت بيده، مرة أخرى، وسارا ليتركا خلفهما الباب الخلفي للمطبخ (المدخل الوحيد الذي يُسمح لها ولفيليمون باستخدامه)، والشرفة، والسيارات التي كانت أكثر من أن يستخدمها رجل واحد (إحداها تخص إيميل كويتزي)، وفيليمون يروي الزهور في الحديقة.
- قولي لي.. هل تحدثتِ مع إيميل كويتزي؟
قالها فيليمون بنبرة ساخرة وهو يفتح البوابة.
- نعم.
قالتها وهي تخرج من حياة الخدمة في البيوت، رافعةً راية النصر.
بمجرد عودتها من حديثها مع إيميل كويتزي، قامت أمه بأخذ زي الخادمات ووضعته في فناء منزلها الأمامي الصغير، وصبت عليه البارافين وأشعلت فيه النار، أمام جيرانها. ثم ذهبت إلى مستشفى إمبيلو، وبعد أن أوضحت أن زوجها سُجن وليس لديها وسيلة أخرى لإعالة نفسها وابنها، ملأت طلب التقدم لمدرسة التمريض. في ذلك اليوم شعر دينجاني بعاطفة غريبة –شعر بالخوف من أمه. وعقد العزم على ألا يخيِّب أملها فيه أبدًا.
عندما جلسا إلى طاولة الفورمايكا الصفراء للمرة الأولى في وقت لاحق من تلك الليلة، قامت والدته بتمرير يدها على سطح الطاولة. قالت: - نحن الآن في عام 1965. هذا هو العام الذي أصبحنا فيها محترمين حقًّا. هذا هو العام الذي أصبحنا فيه ذوي شأن.
تناولت رشفة متأنية من الشاي، وأومات برأسها بحزم، وقالت: - السياسة ليست لنا. فالسياسة أيضًا.. تتسم بالفوضى، ولا تكون فيها الأمور على ما تبدو عليه.. أبدًا.
لم يدرك دينجاني إلا بعد سنوات طويلة أن تصرف أمه كان على قدر كبير من الشجاعة. فمن أين علمت على وجه اليقين أن إيميل كويتزي سيفعل ما

طلبت؟ من أين علمت، يقينًا، أن زوجها لن يعود مرة أخرى؟ كيف تدري أن جيرانها، بعد أن يعرفوا بما فعلت، سيتعايشون معها كسابق عهدهم، ويسمحون لها بمواصلة حياتها كما لو لم يعرفوا بما قامت به؟ لقد كانت واثقة من نفسها، واثقة من أنها ستنجح، واثقة جدًّا من أنها فعلت الشيء الصحيح، ولم يكن بوسع دينجاني إلا أن يشعر أن يقينًا كهذا لا يعني إلا أنها كانت محقة فيما فعلت.

عازمًا على ألا يخيِّب أمل والدته فيه أبدًا، برع دينجاني في كل ما يقوم به: المدرسة والرياضة والموسيقى. وأوفت أمه بوعدها، فبنت لهما حياة محترمة. أصبحت ممرضة مسجلة في الدولة، أدخلت دينجاني إلى أفضل مدرسة يمكن لطفل إفريقي أن يلتحق بها، ومحت من حياتهما كل أثر لإمبونجيني ماسوكو – كل أثر ما عدا طاولته الصفراء الفورمايكا وكراسيها المتطابقة الأربع. وبعملها واجتهادها أصبحا ذوي شأن معتبر.

جعلت أمه من حياتهما حياة مريحة ومحترمة، حتى إن دينجاني في السنوات التسعة التالية لم يكن لديه ما يقلق حياله إلا اسم فرقته. كانوا يطلقون عليها «الهائمون». أم كانت «المتسائلون»؟ أكانوا ساعين، أم كانوا مفكرين؟ كان هو وأعضاء فرقته، زولاني وجيمسون، يحاولون أن يتفقوا على اسم، ولم يفلحوا قَطّ. أصبح الأمر بالنسبة لهم أزمة وجودية، فزولاني يختار «الهائمون» وجيمسون يختار «المتسائلون». كانت الفرقة مهددة بالانهيار ما لم يصلوا إلى قرار. كان الأمر يعود إلى دينجاني، وهو من جاء بالاسم أول الأمر، لتحديد اسم الفرقة. كان الاسم قد خطر له في ذات يوم، ولكنه لم يكن سوى خاطر – شيء في خياله أفصح عن نفسه على هيئة صوت لا صورة. لم يكن يعرف إذا ما كان ما خطر له هو «الهائمون Wanderers» أم «المتسائلون Wonderers». ولكيلا يخيِّب أمل هذا أو ذاك، أتى بحل وسط: المتسائلون الهائمون The Wandering Wonderers. مضى الأمر على ما يرام، وأصبحوا يُعرفون بهذا الاسم، إلى أن قال جيمسون ذات يوم: ولم لا يكون الاسم الهائمون المتسائلون The Wondering Wanderes، فنشأ جدل جديد. عندما ذهبت الفرقة للغناء في قاعة ستانلي في 1974، كان بعض ملصقاتهم الدعائية يحمل اسمًا، وبعضها يحمل الآخر. كما كان بعضها يحمل أحد الاسمين الأولين بغير تركيب: الهائمون، أو المتسائلون. حتى إن أحد الملصقات حمل تلك الكلمات: «دينجاني، زولاني، وجيمسون. قاعة ستانلي. 31 ديسمبر، 1974. قنبلة العام الجديد. هيا!» ومهما كان اسمهم، فحقًّا كانت فرقة دينجاني فرقة رائعة. قرروا ألا ينساقوا خلف الموسيقى المتشبعة برائحة السياسة ولا موسيقى الريغي الذائعة في تلك الحقبة، ومالوا إلى موسيقى البوب العائدة إلى الخمسينيات والستينيات، وقد أجادوها أيما إجادة، حتى إنهم –رغم أزمة الهوية التي عانوها– ذاع صيتهم إلى حد كبير.

وفي 31 ديسمبر 1974، في قاعة ستانلي، وبينما يعزف دينجاني على جيتاره، ويشدو بـ «دونت لِت مي داون»، وقع في حب فتاة تزين شعرها بقرنفلة وردية.

كانت تنورة فستانها الوردية ترفرف وهي تتمايل على وقع الموسيقى، فجذبت عيناه مغلقتين، ويداها تتماوجان في الهواء. «دونت لِت مي داون» ما أجملها! لكن، ولدهشته، لم يكن جمالها هو ما شده إليها. لا، وإنما لفت نظره أنها تشعر بالأشياء بعمق بالغ، وكانت تتصرف بأريحية حتى إنها لتترك نفسها تتماهى تمامًا في بحر من البشر. «دونت لِت مي داون» على الفور أحبَّ انطلاقة روحها.

- فأي الأسماء إذن؟

هكذا سألته عندما توقفت الفرقة عن العزف، واستجمع شجاعته أخيرًا، واقترب منها، متابعة: - المتسائلون الهائمون، أم الهائمون المتسائلون، أم المتسائلون، أم الهائمون؟

- أيها ترينه أفضل؟

- أعتقد أنك تعرف بالفعل إجابة هذا.

وفجأة عرف دينجاني اسم فرقته، بيقين، وثقة لم يسبق له أن تحلى بها قبل تلك اللحظة.

كان اسم الفتاة ثاندي هاديب.

على مدار علاقتها، فازت ثاندي بلقب الوصيفة مرة، ومرتين بلقب الأميرة الأولى، ثم تُوِّجت ملكة في مسابقات جمال عديدة. وأخيرًا، حصلت على تلك البقعة المرموقة على غلاف مجلة (باريد Parade). ولكنها، حين وقفت للمصور وقفة من تنظر إلى الأفق كما لو كان يحمل لها مستقبلًا لا يعنيها كثيرًا، أدركت أن دورتها الشهرية لم تأتها منذ ثلاثة أشهر. كان اكتشافًا مؤسفًا للغاية، فلم تكن مسيرتها كعارضة أزياء قد بدأت تتبلور فحسب، بل وكان دينجاني قد حصل لتوه على منحة لدراسة الطب في الولايات المتحدة الأمريكية. أمريكا! عرفت ثاندي أن الطفل لا يمكن أن يوجد في أمريكا معهما، إذ يمثل عقبة في طريق شابين يحاولان تحقيق أحلام كبيرة. لذا قررت أن تنجب الطفل، ويقوم والداها برعايته.

تزوج دينجاني من ثاندي بموافقة كاملة من أمه، التي أحبَّت ثاندي لكونها شابة تعرف كيف تتعامل مع خيبات الأمل. إذا عاد ابنها إلى المنزل طبيبًا ومعه زوجة حاصلة على درجة البكالوريوس، فسيصلان إلى أعلى مراتب المجتمع الإفريقي –بل وربما المجتمع الأوروبي. سيكونا محترمَين، وسيحسدهما الناس، ويكون لهما شأن كبير.

أما دينجاني فأصبح طبيبًا، وأما ثاندي فلم تتقدم للحصول على درجة البكالوريوس، ولم تواصل مسيرتها كعارضة للأزياء، وإن حصلت على وظيفة

في تلبيس تماثيل عرض الأزياء في متجر راق كبير، وجنت من عملها هذا أكداسًا من المال. كانت حياتهما جيدة، جدًّا. في الواقع، كانت حياتهما جيدة جدًّا حتى إنهما لم يحتاجا قَطُّ إلى العودة إلى ديارهما، في بلد حديث عهد باستقلال. لم يكن لديهما من مشكلة في حياتهما سوى الطفل الذي تركته ثاندي في مزرعة بوفورد.

وبينما يحاولان تدبر ما ينبغي لهما فعله بشأن الطفل، بدآ يسمعان أخبارًا من بلادهما حول حالات اختفاء تحدث في المنطقة التي يعيش فيها طفلهما. بعد الكثير من المداولات، شعرا أنه ليس أمامهما سوى الذهاب إلى هناك، وإنقاذه.

سيكون من الظلم إذا اعتقدنا أن دينجاني وثاندي قد ظنا أن بمقدورهما الحصول على الحياة التي يريدانها -الحياة الهادئة، الممتلئة بالخضرة والسكينة التي لمحها دينجاني يوم التقى هو وأمه إيميل كويتزي- بسرعة أكبر، في البلد الذي استقل حديثًا، عما يمكنهما أن يحققاه في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أن الرسائل التي تلقاها دينجاني من والدته احتوت في الغالب على أخبار نزوح الأوروبيين والوظائف ذات الأجور المرتفعة ومنازل الضواحي الشاسعة التي كانوا يغادرونها في أعقابهم، فإنه ليس هناك من دليل على أن هذه الرسائل كان لها أي تأثير على قرار دينجاني وثاندي بالعودة إلى البلاد.

كما أن ما يهم حقًّا هو أنهما عادا فعلًا وأنهما أنقذا ابنهما –ماركوس مالكولم مارتن ماسوكو.

وصل دينجاني وثاندي بالفعل إلى أعلى مراتب المجتمع، كما توقعت يونيس. بل إن دينجاني استطاع أن يشتري قصر إيميل كويتزي.. في مقابل أغنية، كما كان يحب أن يقول دائمًا. فرغم أنه أحد أجمل المنازل في البلاد، فإن بيعه كان أمرًا صعبًا، إذ انتحر فيه إيميل كويتزي عشية الاستقلال. لم يجعل هذا الأمر دينجاني يحجم عن شراء المنزل، فقد شعر أنه من اللائق أن يعيش في منزل الرجل الذي لعب مثل هذا الدور المحوري في تشكيل مستقبله. انتقلت أمه إلى المنزل أيضًا، وأحضرت معها طاولة الفورمايكا الصفراء وكراسيها الأربعة، المتطابقة.

دخل دينجاني وثاندي أرقى الدوائر الاجتماعية، وأدخلا أطفالهما إلى أفضل المدارس، واشتركوا في أحسن النوادي، وقضوا إجازاتهم في أفخم المنتجعات.

كان من المفترض أن يكون دينجاني سعيدًا، وكان سيكون سعيدًا حقًّا، بعد أن وصل أخيرًا إلى حيث أرادت له أمه، لولا السياسة. لم يكن صديقا طفولته، جيمسون وزولاني، على نفس القدر من الحظ فيلتحقا بجامعة في الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما التحقا بالجامعة الوحيدة في الدولة، وأثناء وجودهما هناك، غرقا في شؤون السياسة، وتطرفا. ربما لم يكن لديهما أي انتماءات

وميول سياسية قبل الاستقلال، لكنهما فعلا ذلك بالتأكيد بعد الاستقلال، وتمسكا بتلك الانتماءات والميول، وتشددا لها.

أما دينجاني فكان كلما فكر في السياسة، رأى أزهار البنفسج الأزرق على فستان أمه، وشعر بخوف شديد. ظل عازفًا عن السياسة كل العزوف. وبينما لم يكن جيمسون وزولاني يمانعان في عدم اهتمام دينجاني بالسياسة قبل الاستقلال، إلا أنهما يمانعان في هذا الآن ممانعة شديدة. اعتادا أن يتساءلا أي رجل يكونه إن لم يكن له أي رأي سياسي. عمّ يدافع؟ فيم يأمل؟ ما الذي يجعل حياته أكثر من مجرد صَدَفَةٍ فارغة؟ ودّ لو يختلف معهما، لكن عندما رأى جيمسون وزولاني يتجادلان في الساعات الأولى من الصباح بشغف (شغف رآه في أبيه، شغف لم يشعر به قَطّ، شغف كان يشك أنه لا غنى له عنه حتى يكون رجلًا حقًّا) بدأ يعتقد أنه ربما يحتاج إلى بعض السياسة في حياته.

لكن أين يجد السياسة؟ فهو بالفعل رجل تجاوز الثلاثين، ولديه مسؤوليات، والسياسة تبدو كشيء ينبت عندما يكون المرء في شرخ الشباب، وهو يبحث عن نفسه وعن مكان له في العالم. وفي إحدى الأمسيات، بينما يجلس مع جيمسون وزولاني في شرفة منزله، يتناولون مشروب الغروب، ويتباحثون فيما إذا كان يجب اعتبار كل من شارك في الحرب الأهلية ثوريًّا، أم لا، إذا بدينجاني يقول، عرضًا، دون كثير من تفكير: - وكما تريان، فإن رجلًا كجولايد جوميدي هو رجل من الصنف الذي تحتاج إليه هذه الدولة حقًّا. فالرجل يبني طائرة من الصفر، ويؤمن بقدرته على ذلك. إنه رجل مبدع، راديكالي، ولا يخشى شيئًا. لو كان في هذه الدولة مائةً فقط من أمثاله من الرجال والنساء، فسيحمل ما نسميه استقلالًا معنى، ووعودًا أكبر. أعتقد أن كليكما يرتكب خطأ باعتقاده أن الثورات تحتاج إلى جموع غفيرة من الناس، فالثورات الحقيقية تحدث في المزارع، وفي ورش العمل، في المرائب وفي الأقبية، وعادة ما تكون في وسط اللامكان، لا يحدثها سوى الحاجة إلى تحقيق الأحلام.

نظر إليه زولاني وجيمسون، ولكنْ لم يقولا شيئًا. اعتقد دينجاني أنه ربما أخطأ القول، لكنه ما قاله إلا لأنه شعر بشغف تجاهه.

- رجل كجولايد جوميدي، لديه نوع من الرؤية التي لا تؤدي إلى موت آلاف من الناس بلا مغزى في ساحة من ساحات المعارك، بل رؤية تقود آلافًا من الناس إلى تغيير حياتهم إلى الأفضل. إن أصحاب الرؤى، الحالمين، لا السياسيين، هم الثوار الحقيقيون.

هكذا قال دينجاني، وهو راضٍ عن نفسه تمام الرضا، ولأول مرة لا يعنيه رأي أصدقائه.

سأله زولاني، بنبرة عادية:

- كيف تعرف ما الذي يفعله أو لا يفعله جولايد جوميدي؟

- لأنني رأيته وهو يبني الطائرة.

صمتا قليلًا، وكانت النظرة في عينيهما تحمل شيئًا لم يستبنه دينجاني.
سأله جيمسون، وعليه أمارات الذهول.
- هل تعرف جولايد جوميدي؟
وحينئذ أدرك دينجاني أن صديقيه ينظران إليه باحترام. انتفخ صدره قليلًا، وأجاب: - بالطبع أعرف جولايد. وعمليًا هو من قام بأمر ماركوس عندما كنت في الولايات المتحدة.
- و.. و.. رأيت تلك الطائرة التي يبنيها؟
- بالطبع رأيتها، كما قلت لكما بالفعل.
- و.. و.. هل تعرف ما ينوي أن يفعل بهذه الطائرة؟
- يطيِّرها، على ما أفترض.
- هل أنت متأكد من أن هذا هو جولايد جوميدي، بطل الحرب الأهلية، هذا الذي نتحدث عنه؟
- نعم.
- كيف يبدو؟ فقد كان الرجل خفيًّا حقًّا. لم يتمكنوا قَطّ من القبض عليه أو حتى التقاط صورة له.
قال زولاني:
- لطالما تخيلته ضخمًا، مربعًا كصندوق، وأصلع.
قال دينجاني، وهو يتحدث بفخر شديد:
- لا تنطبق عليه أي من هذه الصفات. فهو طويل، بل طويل جدًّا، نحيل الجسد، وأمهق.
اندفق الشراب من فم زولاني، وتناثر فوق حذاء دينجاني، وهو يقول: - أمهق؟
- نعم.
- وأنت متأكد تمامًا من أن الرجل الذي تتحدث عنه هو جولايد جوميدي؟
قال دينجاني:
- نعم.
وبدا منزعجًا إلى حد ما، وكرر:
- متأكد تمامًا.
ساد صمت أطول هذه المرة.
- لعلك تصحبنا ذات يوم للقاء جولايد جوميدي. سيكون الرجل، والطائرة، مرأىً جديرًا بالمشاهدة.
لم يرد دينجاني سوى بـ:
- ربما.

تاركًا نفسه يستشعر أهميته.
عندما جاءت (المنظمة) للقبض على دينجاني في عيادته الخاصة، في اليوم التالي، وأخذته إلى (ذا تاور) للتحقيق معه، كان كل ما تساءل عنه هو أي صديقيه جاسوس للمنظمة، زولاني، المحامي، أم جيمسون، مدير الإعلانات؟ لم يصل إلى إجابة. أحيانًا بدا له، بناءً على الأسئلة التي طرحها، أن زولاني لا بد أن يكون هو هذا الجاسوس، وأحيانًا بدا له، أيضًا بناءً على أسئلته، أنه لا بد أن يكون الجاسوس هو جيمسون.
كان لديه الكثير من الوقت للتفكير، قبل أن يدلفَ إلى الحجرة رجل سيعرف فيما بعد أنه هو (الرجل ذاته)، ليسأله سؤالًا واحدًا: - لماذا يبني جولايد جوميدي طائرة؟
في البداية قال دينجاني إنه لا يعرف، وهي الحقيقة. ولكنْ، بعد أن طرح (الرجل ذاته) نفس السؤال عليه عدة مرات بنفس النبرة، تذكر دينجاني فجأة ثاندي وهي تجلس أمام المرآة، تضع بعض المساحيق حلوة الرائحة على يديها، وهي ترتدي قميص نوم أحمر، وتقول، وهي تضحك: - هل تصدق أنه يعتقد حقًّا أنه يستطيع أن يطير بإليزابيث على طول الطريق إلى ناشفيل في هذا الشيء؟
فقال دينجاني، وهو يشعر بالراحة:
- إنه يريد أن يأخذ زوجته إلى ناشفيل، تينيسي.
وأردف:
- تحلم زوجته بأن تصبح مغنية ريفية وغربية.
لجعل القصة أكثر إقناعًا.
لم يقتنع (الرجل ذاته) بهذه القصة، وكرر سؤاله:
- لماذا يبني جولايد جوميدي طائرة؟
بدا أن(الرجل ذاته) لم يكن في عجلة من أمره، ولم يبدُ غاضبًا. بدا كما لو كان لديه من الصبر ما يسمح له بأن يجلس هناك أيامًا ويواصل طرح نفس السؤال: - لماذا يبني جولايد جوميدي طائرة؟
أما دينجاني فلم يكن بهذا الصبر، فقال:
- لأنه يخطط للإطاحة بالحكومة.
ولسنوات طويلة بعد ذلك اليوم، لم يكن له من هم إلا أن يقنع نفسه بأنه ما قال تلك الكلمات إلا لأنه توقع أن يضحك (الرجل ذاته) من سخف قوله، كما ضحك إيميل كويتزي عندما قالت أم دينجاني نفس الشيء عن أبيه في سنة 1965. لكن (الرجل ذاته) لم يضحك. كل ما قام به هو أن نظر إلى دينجاني وسمح للصمت بينهما أن يسود، ثم قال: - لم يخب أملي فيك.
ثم نهض وغادر الحجرة، تاركًا الباب خلفه مفتوحًا، ومانحًا دينجاني حريته.

لم يحدث شيء لأسابيع بعد هذا اليوم، وقال دينجاني لنفسه إن محادثته مع (الرجل ذاته) لم تسفر عن شيء، ولكن حدث أن جاءت الأخبار من مزرعة بوفورد، تُعلمه أن أبوي ثاندي، ومعهما كثير من ساكني المزرعة، قد قُتلوا.

عندما بذل كل ما في وسعه لتبني إيموجين زولا نيوني، أبى أن يطيل التفكير في سبب احتياجه إلى أن تكون تحت رعايته. كاد ينجح في إقناع نفسه بأنه لا توجد علاقة مباشرة بين محادثته مع (الرجل ذاته) وبين ما حدث في مزرعة بوفورد. لكنْ ذات يوم جاءه شيك بمبلغ كبير عبر البريد. كان الشيك من (الرجل ذاته)، وموضحًا معه أنه من أجل ما أسداه دينجاني ماسوكو من خدمات. نظر إلى الشيك طويلًا، ولم يصدق ما رآه: زهور البنفسج من فستان والدته كانت فوق كل جزء من الشيك، بل وراحت تنتشر على يديه، وعلى المكتب، والجدران، وعلى السقف، عازمة على أن تغطي كل سطح أمامه. أخفى الشيك في مكتبه، لكن بقيت الزهور الزرقاء البنفسجية تعلو كل سطح.

وفي الثاني والعشرين من كل شهر كان يصله شيك مماثل، وفي كل شهر يخفيها دينجاني ويعتاد حضور أزهار البنفسج الأزرق في كل مكان. وذات يوم تلقى من (الرجل ذاته) مكالمة تخبره أنه يحسن به أن يودع الشيكات. ومن ذلك اليوم فصاعدًا، وفي الثالث والعشرين من كل شهر، راح دينجاني يودع الشيكات في صندوق ائتمان باسم جيني. اختار أن يرى الأمر كنوع من النصر، لكنه كان يعرف أنه نصر يترك في الفم طعمًا مرًّا كطعم الرماد. وأيضًا كان نصرًا لم يدم طويلًا، فعندما بدأ الاقتصاد يتعثر، وأصبح من الصعب الحفاظ على نمط الحياة الذي اعتاده آل ماسوكو، وجد دينجاني نفسه مضطرًا إلى وضع الشيكات الشهرية في استخدامات أخرى، إلى أن آل به الحال إلى تبديد صندوق جيني رمادي المذاق.

الجزء الثاني

الحقائق تُسْفِر عن وجهها

ذا سيرفايفرز

تعرف بياتريس بيت بوفورد أنها لم تعد قادرة على الوثوق بعقلها، فهو يخدعها كثيرًا جدًّا هذه الأيام، لكنها تكاد توقن أن هذا المكان الذي تنظر إليه هو مكان مولدها، ومنزلها –مزرعة بوفورد. لكن لا يمكن أن يكون هو. فمزرعة بوفورد خصبة خضراء، وهي بين زرع ينمو، وزرع يُحصد. مزرعة بوفورد مزدحمة دومًا، بالناس وبالماشية، ولا يمكن أن يكون هذا الامتداد الكبير من حقول الغبار والأكواخ الطينية هو مزرعة بوفورد. لا شك أن عقلها يخدعها.. من جديد. لكنّ تلك التلال الزرقاء، الضبابية، البعيدة تبدو مألوفة إلى حد كبير، ولعل هذا البيت الهيكلي الكبير الذي يقودون سيارتهم صوبه الآن هو المنزل الذي نشأت فيه.. لو كان فخمًا. لكنه ليس كذلك.

لقد أخبرتها كوكي أنهما ذاهبتان إلى مزرعة بوفورد، فلماذا تأخذها إلى مكان آخر؟

- متى سنصل إلى بوفورد؟

تسأل بياتريس كوكي، التي انكفأت على عجلة القيادة، وراحت تحدِّق إلى الغبار، لتتبين الطريق أمامها.

ترفع كوكي عينيها عن الطريق وتبتسم لها بتعاطف، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تبتسم بها كوكي لبياتريس الآن. تربت كوكي على يدها للحظات، ثم تعود لتصب تركيزها على الطريق خفي المعالم أمامها.

مهما كانت الأخطاء التي ارتكبتها كوكي، فلا يمكنك أن تجدي خيرًا منها صديقًا، هكذا تحدِّث بياتريس نفسها، وفي تلك اللحظة يلوح لهما حقل من زهور عباد الشمس، فتصيح بياتريس متعجبة وقد أشرق وجهها: - المنزل! بوفورد!

يدرك فالينتاين جيدًا أن الموقف الذي يجد نفسه فيه حاليًا بعيدٌ كل البعد عن المثالية. فعندما تخيل هذه اللحظة، رأى نفسه يقود سيارته صعودًا إلى مزرعة بوفورد مع قليل من الأشخاص -فيدا دي فيلييه، وجيستينا إنزومالو، وربما واحد من آل ماسوكو، وربما يكون هذا الواحد (وإن لم يكن الخيار الأفضل) هو الابن. لكنْ ها هو الآن، على رأس ما لا يمكن أن يُطلق عليه سوى قافلة –فقد كان على آل ماسوكو جميعًا أن يأتوا طبعًا، وكوكي كارمايكل، وبياتريس بيت بوفورد، حتى بيكيثيمبا نياثي قد جاء، إلا أنه على الأقل قد تكرم وأقل معه مينينشي تيكيتي وموردخاي جاتيرو، واللذان كان عليهما أيضًا أن يقدما.

يأمل فالينتاين أن يكون قد أوقف سيارته في المكان المناسب. يرى أمامه منزلًا هيكليًا، صرحًا متداعيًا لا يحفظ عليه قواه إلا شجر اللبلاب وذكرى عظمته. لا يوجد أي شكل من أشكال الحياة، لا شك في هذا. يترجل، هو ومن يركب معه –فيدا وجيستينا– واحدًا واحدًا، ويقفون وسط الغبار القاحل، لا يدرون ما يفعلون بعد هذا. فيشاهدون السيارات الأخرى وهي تتوقف.

- يا لها من طريق وعرة يملؤها الغبار!

هكذا يحدِّث فالينتاين نفسه وهو ينظر إلى الطريق الطويلة الضيقة، التي تآكلت بفعل سنوات من الإهمال.

تتحرك ستارة الدانتيل الممزقة خلف إحدى النوافذ، بشكل غير محسوس تقريبًا، في دليل على وجود حياة. بعد لحظات قليلة، ينفتح الباب الأمامي ببطء، ليخرج منه رجل. ورغم أنه ضئيل الحجم، ولم يزل يقف على مسافة بعيدة، فإن فالينتاين يدرك أن الرجل يمسك في يده فأسًا، ومن المحتمل أيضًا أنه يحمل سلاحًا ما في يده التي يضعها خلف ظهره.

يقول فالينتاين لمن معه:

- سأتعامل أنا مع هذا الأمر.

يصيح الرجل دون أن يتحرك:

- هذه ملكية خاصة.

فيقول فالينتاين:

- لا أشك في ذلك بالمرة. هل هذه مزرعة بوفورد؟

- صفقة عادلة.

يقولها الرجل وقد تحرك أخيرًا ووقف على بعد أمتار قليلة من فالينتاين.

- أهذا ما تسمونها الآن؟ (صفقة عادلة)؟

- بل نحن هنا بناء على صفقة عادلة. اشتريناها من الآنسة بياتريس. نحن لا نستولي على الأراضي.

- آه، فهمت. فهذه إذن مزرعة بوفورد؟

- ملكية خاصة. وأنتم الآن تتعدون عليها. اذهبوا، فورًا.

- سيدي، نحن لا ننوي أي أذى لك...

- فلم إذن تحضر رجلًا أبيض؟

- رجل أبيض؟

يقولها ثم ينظر إلى رفاقه، ويفهم، إن الرجل يقصد فيدا، فيقول له: - تقصد هذا. هذا ليس رجلًا أبيض. إنه...

ليتقدم الرجل وقد علته الإثارة، ويقول:

- الراهب؟ أهذا أنت؟

فيعبس فيدا في وجهِ الرجل، الذي يواصل:

- إنه أنت. إنه أنت حقًّا.
ثم يمد كلتا يديه لفيدا. يدرك أن هناك بندقية في إحدى يديه، فيتردد، وينظر إلى فالينتاين، ثم إلى فيدا، ثم يضع بندقيته في حزام خصره، ويقول: - إنك لا تذكرني، أليس كذلك؟
بنبرة يكسوها الإحباط. يلاحظ فالينتاين على الفور أن الرجل قد تخلى عن إنجليزيته الضعيفة (المكسرة)، فيقول: - جولايث؟
فيشرق وجه الرجل بأجمل ابتسامة، ويقول:
- إنك تذكرني حقًّا! لقد حسبت أنك لن تعرفني بسبب الكبر (ويعبث بفخر بشعيرات من لحيته).
- لم تكبر كثيرًا.
يضحك جولايث طويلًا، من قلبه، ويقول:
- هذه هي تحديات الحياة.
ويكف عن الضحك.
- إذن فأنت تعيش هنا الآن؟
- نعم. وجدت أن حياة المدينة لم تعد مناسبة. وكانت جيني هي سبب مجيئنا للاستقرار هنا. فقد كانت تتحدث عن هذا المكان، عن زهور عباد الشمس. جعلته يبدو مكانًا بالغ الـ.. السحر. كان عليَّ أن أراه بنفسي. كنت قد رأيت بذور عباد الشمس من قبل، أو تدري؟ إنها أشياء رمادية، أو سوداء، قبيحة. لكن جيني جعلت الزهرة جميلة جدًّا في مخيلتي، وكان عليَّ أن آتي إلى هنا وأراها بنفسي، وفعلت. منذ سنين. أتيت، ورأيت. أحببت المكان. كانت محقة. إنها زهرة جميلة. وقطعت على نفسي عهدًا أنه متى حان الوقت لـ (ذا سيرفايفرز) أن يستقروا، فسنستقر هنا. لكن عندما وصلنا، وجدنا أن قدامى المحاربين قد استقروا هنا بالفعل. يمكنك رؤية النتائج. (يشير جولايث إلى الأكواخ الطينية التي تقف بقسوة في وسط الحقول القاحلة) لسنا جزءًا من خطة إعادة التوطين، إنما اشترينا هذه الرقعة من الأرض في صفقة عادلة.
يفرك إبهامه وسبابته، ويتابع:
- المال. هل تذكر كيف أحب السياح التقاط صورنا مع تماثيل (ساكنو الشارع)؟ العملة الأجنبية. السوق السوداء. بدأنا كأسماك صغيرة.. ثم نمونا.. إلى أن أصبحنا أكبر من أن تتسع لنا البركة. الناس الذين يتاجرون في الشوارع الآن عديمو الرحمة وغير منضبطين، عنصر غير مرغوب فيه. إنهم في حاجة ماسة للرعاية، وليسوا مثلنا في شيء. حيوان مختلف تمام الاختلاف. هل تذكر كيف اعتدنا أن نتصرف بكرامة؟ كان لدينا قواعد للسلوك، أمّا الآن فقد باتت الشوارع من نصيب الكلاب، فقررنا أن الوقت قد حان للاستقرار، واشترينا هذه الأرض، اشتريناها من بياتريس بيت بوفورد، رأسًا، في صفقة عادلة.

في تلك اللحظة تترجل بياتريس وكوكي من سيارة كوكي، وكذلك ترجل آل ماسوكو، وبيكيثيمبا، ومينينشي، وموردخاي، من سياراتهم.
- آه.. آنسة بياتريس.. ها هي.. يمكنك أن تسألها عن عدالة الصفقة.
يقولها جولايث، الذي بدا مرتبكًا بعض الشيء من زيارة بياتريس بيت بوفورد، وإن لم يفقد رباطة جأشه.
يعرف الجميع من نظرة عيني بياتريس الشاردة ومن ابتسامتها الطيبة أنه ما من فائدة تُرجى من سؤالها عن أي شيء.
ينفتح الباب الأمامي بتردد وحذر، ويقبل منه رجال ونساء، بأناة وإصرار، ليقول جولايث: - بقية (ذا سيرفايفرز).
وهو يشير بفخر إليهم على تنوعهم. ثم يوجه حديثه إليهم، قائلًا: - لن تصدقوا من هنا.
ويجيب هو عن سؤاله:
- إنه الراهب. أتذكرون الراهب؟
- وكيف ننسى الراهب؟
تقولها امرأة تحمل طفلًا يرضع من ثديها بنهم. يذكرها فيدا، إنها الفتاة التي حاول ذات يوم أن ينقذها من ممارسة الدعارة مع رجل الأعمال الهندي.
يقول جولايث، محاولًا ألا يظهر فخره: - زوجتي، وطفلي.
وينظر إلى فيدا، ويقول:
- وبالحديث عن الزوجات، أين جيني؟
يرد عليه فالينتاين:
- لقد قيل لنا إنها هنا.
- هنا؟ لا. ليست هنا بالتأكيد.
فيقول فيدا:
- لقد قيل لنا إنهم عثروا على جثة هنا.
- جثة؟ أكانت هذه جيني؟ (يشير جولايث نحو أكواخ المحاربين القدامى الطينية) كان هناك كثير من الجلبة في الأيام القليلة الماضية. إنهم دائمًا ما يجدون ويجمعون العظام. البقايا البشرية، لذا لا يسمحون لنا بحرث الحقول، لكن منذ بضعة أيام زعموا أنهم وجدوا جثة حديثة في حقل عباد الشمس، لم نصدقهم، والآن تقول إن هذه الجثة تخص جيني؟
فيقول فالينتاين وهو يشق طريقه نحو الأكواخ الطينية: - سيتحتم علينا أن نرى بأنفسنا لنقرر.
فيقول جولايث، وهو يندفع على رأس المجموعة: - ستحتاجون إلينا لنسهل لكم المرور، فهم لا يحبون الغرباء. ورغم أنهم لا يحبوننا أيضًا، فإننا –على الأقل– قد ألفناهم.

وفي طريقهم المتعرج إلى الأكواخ الطينية، يقودهم جولايث عبر سلسلة من منازل أسمنتية متهالكة لها أسطح متموجة من الأسبست قد علتها البقع. مالت بيوت المجمع عبر السنين حتى تساندت على بعضها بعضًا، ولولا هذا لما كانت قائمةً الآن.

تسأل جيستينا:

- أين من كانوا يعيشون هنا؟

لترد زوجة جولايث:

- عندما أتينا إلى هنا، لم يكن هناك أحد.

- كيف لمكان أن يخلوَ من الناس؟

فيرد جولايث:

- غالبًا بسبب قدامى المحاربين.

- أعتقد أنه الإيدز. فما إن يضع قدمه في مجتمع صغير كهذا...

هكذا قالت زوجة جولايث، قبل أن يخفت صوتها، وتتابع: - لا بد أن ترى كمية العظام والجثث التي أخرجها المحاربون القدامى.

إذن فالأمر على ما حسبت جيستينا لفترة طويلة: في ذلك اليوم الكابوسيّ، جلب السوجا ببيريهاتهم الحمراء ما هو أكثر من الكراهية وبنادق أ ك. 47. لم تخبر أحدًا قط بما حدث لها وما حدث للسيدة هاديب، ولا بما أُجْبِر السيد هاديب على مشاهدته.. ولا بما حدث قبل أن يأمروها بوضع سم الفئران في الشاي للسيد وزوجته، ويجعلونها تشاهدهما وهما يشربانه. لم تتحدث بما جرى مما لا يمكن وصفه، واكتفت بحمل ذلك العار بين ضلوعها. فبينما كان السوجا يقومون بالاغتصاب الجماعي، وإطلاق النار، ونهب كل ما في طريقهم، وجدوا أيضًا –ربما دون علمهم– طريقة أخرى لتدمير المجمع. ليس من الضروري أن يكونوا كلهم حاملين للمرض، فواحد فقط يكفي، لتكون النتيجة هي هي.

والآن نجد أن جيني أيضًا.. لكن، لا. كان هذا خاطرًا لم تستطع جيستينا أن تتقبله. فجيني لم تكن إلا في التاسعة من عمرها في ذلك الوقت. ولا يمكن أن يكون السوجا.. ولكن ماذا لو أنهم فعلوا.. واختارت جيني التزام الصمت.. حتى عتبة القبر.

- هل أنتم هنا من أجل الجثة؟

هكذا سأل المحاربون القدامى، ليرد فالينتاين: - نعم.

قاد المحاربون الطريق، عبر أكواخ الطين، وخلال حقل عباد الشمس، الذي ينمو من تلقاء نفسه، وله إيقاعه الخاص ومنطقه.

وأخيرًا وصلوا إلى وحدة التخزين البارد. يفتحون بابها الثقيل، ليكشفوا عن أكوام وأكوام من هياكلَ عظمية، رُتِّبت بعناية. يشبه الخوف الذاهل الذي يملأ الغرفة حينئذ حالةً من الخشوع.

يقول فالينتاين:
- إن الجثث مرتبة بعناية كبيرة.. للغاية.
ليرد المحاربون:
- تعاملنا ببالغ الحرص.
- يبدو أنهم مفهرسون.
- أجل، هم كذلك.
يقولها المحاربون بنبرة عادية، ويتابعون: - هناك عظام لمن ماتوا في الحرب، وعظام لمن ماتوا بعد الحرب، وعظام لمن ماتوا من الإيدز.
- وكيف عرفتم هذه من تلك؟!
يسألهم فالينتاين، بانبهار واضح، ليجيبوا: - من العُملات. فغالبًا ما يكون هناك عملات في جيوب من ماتوا في السبعينيات والثمانينيات. ولم يكن الأمر كذلك في التسعينيات.
فيعقب فالينتاين:
- هذا عمل تم إتقانه.
يشعر قدامى المحاربين بالفخر لتلك المجاملة، ويقولون: - لم نفعل شيئًا منذ وصولنا إلى هنا سوى الحفر والتنقيب. ولهذا لم تزل الحقول بورًا. لكننا اعتقدنا أنها أفضل طريقة للتعامل مع هذا العدد الكبير من العظام، بعناية.
يقول فالينتاين:
- نعم، بالطبع، بعناية.
- الجثة من هذه الناحية.
يقولها المحاربون القدامى وهم يقودون الطريق نحو بقعة أعمق وأشد ظلامًا في وحدة التخزين.
يسقط شعاع من ضوء الشمس، عبر نافذة عالية مغطاة بالغبار، فوق جسد إيموجين زولا نيوني، المسجى على لوح معدني. جسد هادئ، منيع لا يخترق، يرقد في سلام.
يقول المحاربون القدامى:
- عرفنا مَن هي بمجرد أن رأيناها، لا يمكننا أن نخطئ في ابنة جولايد جوميدي، لكننا لا نعرف كيف وصلت إلى حقل عباد الشمس. استيقظنا في الصباح لنجدها هنا.. ولا بد أنها كانت على قيد الحياة عندما وصلت إلى الحقل، على الأقل لبعض الوقت، فقد غرست قدميها في التربة.
تقول جيستينا:
- علينا أن نعزي أنفسنا بأنها كانت من اختار نهايتها بنفسها.
يسود الغرفةَ صمتٌ عميقٌ.
- لا.

تقولها كوكي بحزم، وتكسر حاجز الصمت، ثم تكررها ثانية: - لا.
وتبتعد عن جسد جيني، «لا».. لا تعرف كوكي ما الذي تنفيه أو تأباه.
- إنها صديقتي.
لماذا تقرر أن تكذب في لحظة كتلك، هكذا تتعجب كوكي من نفسها. فهي لم تكن قَطّ صديقة لجيني. بياتريس هي الوحيدة التي كانت صديقة جيني، ولم تفهم كوكي أبدًا صداقتهما.
- إنها صديقتي.
هكذا تسمع كوكي نفسها تردد. لماذا تحتاج كوكي كارمايكل، المولودة باسم كوكي سيدجويك، والتي أصبحت يومًا كوكي كويتزي، إلى أن يحسب الناس أنها وجيني صديقتان؟
مع حلول المساء في مزرعة بوفورد، يتأهب الزوار للمغادرة بجسد جيني، الذي تم لفه بلطف في ناموسية، ووضعه في مؤخرة سيارة فالينتاين، الجيب.
ينظر ماركوس إلى المجمع مرة أخرى، محاولًا تخيل الحياة التي كان سيحياها لو لم يأت والداه فيصطحباه بعيدًا. لا يجد بإمكانه أن يتخيل هذا. لو لم يأت والداه لأخذه، لما كانت له حياة يعيشها.
المنزل.
أين كان كل ذلك الوقت؟
يفكر ماركوس في أطلس العالم الذي أرسلته إليه جيني، الأطلس الذي يخفيه في حقيبة في المنزل الذي بناه مع إيزميه. يرى الصفحة الملطخة ببصمة اليد البنية المحمرة: الدم، بصمة يد صغيرة، بصمة طفلة، بصمة جيني.
في تلك اللحظة يدرك ماركوس أنه كان متمسكًا بشيء تركته جيني منذ زمن.
يتقدم صبي يمشي خجلًا نحو ماركوس، ويسلِّمه صورة، ويقول: - لقد وجدتها في العلية.
يقولها وهو لا يدري ما يصنع في الصمت الذي يسود حوله.
يقول ماركوس، بصوت متقطع، وهو ينظر إلى الصورة: - اعتدنا أن نتحدث عن الاختباء في العلية مع ما نحب ومن نحب إن أتى غرباء لا نثق بهم.
يبتسم له ماركوس صغير وجيني صغيرة من داخل (براون كار)، وكلاهما قد فقد سنّتين من أسنانه الأمامية. يبدوان في منتهى السعادة. يبتسم ماركوس لهما عبر السنين، لكن ابتسامته يشوبها شيء من الريبة فهو لا يتذكر التقاط تلك الصورة.
تأخذ جيستينا إنزومالو الصورة من ماركوس، وتقول: - سنتذكر دومًا ما حدث هناك.

تقولها وهي تتذكر جيني وهي تصعد إلى العلية لأخذ حقيبتها يوم رحلا، كلاهما، عن مزرعة بوفورد، وتتابع: - لكن لن يمكننا أبدًا أن نعرف ما حدث هنا.

جيني

تختار جيني هذه اللحظة، بعينها، وأفراد (ذا سيرفايفرز) شهود، لتطير محلقة على جناحين فضيين عملاقين، وتترك قلبها وراءها ليتصلّب إلى أثمن وأجمل ما رأى العالم.

وبينما يشاهد أفراد (ذا سيرفايفرز) جيني وهي ترتفع في السماء، تشعر هي بالحب، تحقيقًا لوعد طال انتظاره.

فالينتاين

يشاهد فالينتاين (الرجل ذاته) وهو يعاني لربط رابطة عنقه. يشعر بالإحراج من أجله، فيترك عينيه تتجول في الغرفة بالغة الفخامة. إنها غرفة تدري بلا شك أن بها رجلًا قويًّا للغاية؛ فستائرها الخضراء الزمردية وأثاثها من الماهوجني الياقوتي ليوحيان بالرهبة. ولكنها، كذلك، غرفة وقورة رتيبة، كل شيء بها يفوح منه رائحة دخان عتيقة. لم يتغير إلا شيء واحد: لم يعد إيميل كويتزي هو من يشغل الغرفة، وإنما (الرجل ذاته). والشيء الوحيد الذي ساهم به (الرجل ذاته) طوال ما يربو على الثلاثين عامًا من احتلاله هذه الغرفة، وهو ليس أمرًا ذا بال، هو أنه غيَّر اسم هذا الكيان، من (منظمة الشؤون الداخلية) إلى (المنظمة)، (وهو، على أي حال، ما اعتاد الناس أن يطلقوه عليها). بعد فترة وجيزة من توليه منصبه، شاهد، بارتياح، جميع الأدوات المكتبية وهي تُستبدل، لتعبر عن مساهمته، ثم جلس مسترخيًا وفعل ما كان يفعل إيميل كويتزي في تلك الغرفة، هو هو.

- لا تخبر أحدًا بهذا، فأنا عادةً ما أستخدم رابطات العنق ذات المشبك، فهي توفر كل هذا العناء.

هكذا قال (الرجل ذاته) مستعيدًا جذب انتباه فالينتاين، ومتابعًا: - لكن اليوم مناسبة خاصة. فرأيت أن عليّ أن أبذل قصارى جهدي. إنها جنازة، وحضورها من الأمور التي تجعل الناس يعتقدون أن المرء يهتم لأمرهم حقًّا.

يقولها (الرجل ذاته) دون أن يرفع عينيه عن عيني فالينتاين. وأخيرًا يفلح في ربطه رابطة عنقه.

يقول فالينتاين:

- أجل، سيدي.

يشعر بعدم الارتياح، فهو لم يحب ارتداء البدلة قط، وهذه ضيقة بعض الشيء. يود فالينتاين لو غيّر من وضعيته في الجلوس، فيعيد ضبط سترته ويفك ياقته قليلًا، ولكنه لا يفعل أيًّا من هذا إذ يرى أنه سيكون إشارة لـ (الرجل ذاته) بأنه لا يشعر بالراحة. يقبل (الرجل ذاته) ليجلس على حافة المكتب، إلى جوار فالينتاين، ويحمل في يديه سيجارتين، يعرض واحدة منهما على فالينتاين.

- لا أدخن، سيدي، شكرًا.

- لا يجب أن تكون من المدخنين حتى تدخن سيجارة، يمكنك أن تشعل سيجارة على سبيل الاحتفال.

- نعم سيدي، ولكن شكرًا على كل حال.

يضع (الرجل ذاته) السيجارة في جيب فالينتاين الأمامي، ويربت فوقها برفق، ويقول: - يمكنك أن تدخن على سبيل التهنئة، وهذا هو وقت التهاني، أليس

كذلك؟
- أهو كذلك يا سيدي؟
- بالطبع، (يشعل سيجارته) لقد نجحتَ، يا فالينتاين.
- نجحتُ، يا سيدي؟
- لا شك في هذا يا رجل. أنا رئيس (الشؤون الداخلية). رئيس المخابرات. وأنا أعرف.
- تعرف يا سيدي؟ ماذا تعرف؟
- أن إيموجين هي من شجعتك على كل هذا.
- شجعتني على ماذا يا سيدي؟
- عليّ أن أقول هذا.. لم أتوقع منك هذا، أنت.. أنت جندي مشاة ممتاز. تهتم حقًّا بإتقان عملك. فما كان هذا؟ أحسب أنك أحببتها.
يقرر فالينتاين ألا يستجيب لهذا.
- أصبتُ مقتلًا، أليس كذلك؟ بالطبع أحببتَها، وإلا فلم فعلتَ هذا؟ كم أهدرتَ وقتك بحبك إيموجين! إنها مخلصة تمامًا لفيدا دي فيلييه هذا. فأي خير نالك من هذا الحب؟ قد تخسر وظيفتك، وربما ما هو أكثر، بسبب هذا، وهذا، طبعًا، هو ما جعلني أتركك تتمادى إلى هذا الحد. لكي تفهم عدم جدوى ما فعلت. تعرف.. بالنسبة لبقية الأمة لستم سوى حفنة من المجانين ينووون أن يواروا التراب صندوقًا فارغًا. هذا كل ما يرونه. إيماءة لا معنى لها. أكان الأمر يستحق كل هذا؟
- نعم، سيدي.
يباغت (الرجل ذاته) برد فالينتاين، ولكنه يتمالك نفسه سريعًا، ويقول: - وكل هذا بسبب الحب؟
- حب من نوع خاص، أحسبه كذلك. لكنه نوع غير الذي تتصوره.
الحب. هل كان هناك كلمة أخرى لوصف ما شعر به فالينتاين يوم قرأ قصة جولايد جوميدي في الصحيفة؟ كان هناك رجل يبني طائرة، ففجأة أصبح كل شيء ممكنًا. سخرت عائلة فالينتاين من الفكرة، فكرة أن أحد الأفارقة، وأمهق مع كذلك، حسب أنه يمكنه أن يبني طائرة. لكن فالينتاين لم يسخر معهم، بل راقته فكرة أن الطيران ممكن لشخص مثله. لقد آمن فالينتاين.
- هل اعتقدت حقًّا أن امرأة مثلها قد تحب رجلًا مثلك؟ ما يحزنني حقًّا هو كم أنت زائف يا فالينتاين.
- لماذا فعلتها يا سيدي؟
ليسأله (الرجل ذاته):
- فعلتُ ماذا؟

وقد علا وجهه العبوس. يلاحظ أن زمام الحديث قد انتقل إلى محدثه، ويزعجه، أكثر من أي شيء، ألّا يدري متى حدث هذا.

- أفعلت ما فعلت لأنه قادر على الطيران؟

يضحك (الرجل ذاته) ضحكة صفراء، ويقول:

- الآن أدرك أني لم أعلِّمك جيدًا. إن السبب غير مهم. ليس بمهم أبدًا. إنما تفعل الشيء لقدرتك على فعله. وقد فعلته لأني كنت قادرًا عليه. القوة.. إنها هي ما يمنحك القدرة.

يبتسم فالينتاين. فتتلاشى على الفور ضحكة (الرجل ذاته). لقد فرغ من العبث، فيقول: - فعلتها لأن رجلًا مثلي لا يترك رجلًا كجولايد جوميدي يبني طائرة، فعلتها لأن القوة أمر بالغ الحساسية.

- شكرًا لإخباري بالسبب يا سيدي، الآن أخبرك لم ساعدتها. لأنها شخص عاش حياة ذات قيمة. كلهم عاشوا حياة ذات قيمة.

يزداد عبوس (الرجل ذاته)، ويبدو عليه بجلاء أنه ينتظر مزيدًا من التفسير من فالينتاين.

- هذا كل ما في الأمر. إنه حقًّا بهذه البساطة. حياتها عنت الكثير. لم تكن تحصيل حاصل، بل كانت دومًا أكثر من مجرد حياة مأسويّة. كانت جيني شيئًا ثمينًا جميلًا، واستحقت أن تختار نهايتها كما تشاء.

يمد فالينتاين يده في جيبه، ويخرج شيئًا ثمينًا، جميلًا، ويحمله بين سبابته وإبهامه.

- ثمانية عشر. أحصيناهم، فكانت جيني الثامنة عشر. هذا ما يحدث لقلوب هؤلاء الذين آمنوا بجولايد جوميدي، واتبعوه. مات سبعة عشر في الثاني والعشرين من ديسمبر سنة 1987. وُجِد سبعة عشر في مزرعة بوفورد في بئر مهجورة. وكانت جيني الثامنة عشر، ولم يزل لديك المزيد من هؤلاء.. تاسع عشر. بل أعتقد أن لديك اثنين. لا أحسب أنك ستخبرني بالحقيقة، ولكني سأسألك على كل حال، ماذا فعلت بجولايد جوميدي وإليزابيث نيوني؟

- فلم تسأل وأنت تعرف أني لن أخبرك بالحقيقة؟

ينهض فالينتاين، ويبتسم، ويقول:

- مزرعة بوفورد ملك لـ (ذا سيرفايفرز). وهم من سيقررون ما يفعلون بالأشياء الثمينة، الجميلة.

- لا أفهمك يا فالينتاين. حقًّا، لا أفهمك. كنت أنت أيضًا ستصبح من المستفيدين لو أننا استولينا على الأرض. لا أفهمك على الإطلاق.

- لا يهم يا سيدي، فأنا أفهمك، أفهمك تمامًا.

يغادر فالينتاين الغرفة، ويتأكد من غلق الباب وراءه، تاركًا (الرجل ذاته) في الغرفة الرديئة، القديمة، الفخمة. كرسي السلطة.

الثوريون الحقيقيون

يمضي سكان المدينة في حياتهم اليومية: الباعة الجائلون يبيعون وينادون على بضاعتهم، تسير السيارات بسرعات فائقة، لا لتصل إلى وجهة معينة، وإنما لأنها صُممت على هذا النحو، فلا تتوقف إلا لشراء بطاقات الاتصال، والصحف، والخضروات والفاكهة –أغراض مشكوك في قيمتها، ويسير المشاة بعزم، رغم أنهم يعلمون، جميعًا، أنهم لن يجدوا في نهاية رحلتهم شيئًا سوى خيبة الأمل.

تنتقل عربة الموتى إلى جانب الطريق، مفسحةً لموكب زفاف. يتلوى موكب الزفاف على جانبي الطريق، ويرقص رقصة خطرة، وهو يخادع الموت، وتُطلق السيارات أبواقها عاليةً. وعندما يبتعد موكب الزفاف، تكمل سيارة الموتى رحلتها.

- عندما بدأت عملي في الستينيات، كنت أراني محظوظًا لو حظيت بجثة واحدة كل أسبوع.

هكذا قال الحانوتي، متابعًا:

- كان لدينا ثلاثة أنواع من الجنازات في ذلك الزمن: الجنازة البيضاء، والجنازة الملونة، والجنازة الإفريقية. وكان كل حانوتي لا يُسمح له إلا بالتعامل مع بني جنسه، ولذا لم يكن يُسمح لي إلا بالجنائز الملونة. إذا تسنى لي إعداد ثلاث جنازات في أسبوع، يكون أسبوعًا رائعًا. في الواقع كان بإمكاني أن أفعل كل ذلك بمفردي. فكنت أذهب لأخذ الجثة من المشرحة، وآتي بها إلى هنا لتحضيرها. صمم لي إخوتي أداة غريبة ترفع الجسد من النقّالة إلى اللوح، ومن اللوح إلى سرير التلبيس، ومن سرير التلبيس إلى التابوت. ولذا كان يمكنني فعل ذلك بمفردي. كنت أحتاج إلى المساعدة لوضع التابوت في عربة الموتى، لكن أفراد الأسرة عادة ما يفضلون القيام بذلك بأنفسهم. ننقل الجثة إلى المقابر، وهناك نجد عمال مجلس المدينة قد قاموا بالفعل بحفر القبر. يساعد أفراد الأسرة في إنزال التابوت إلى الأرض، ودائمًا أساعد في حثو التراب على التابوت. أشاهد أفراد الأسرة المنتحبين وهم يغادرون. أشاهد عمال مجلس المدينة وهم يرحلون والمجارف على أكتافهم. كنت دائمًا آخر من يغادر، بعد أن ألقي تحية الوداع الأخيرة على جسد رأيته من كثب. خلال الحرب احتدمت الأمور لأجدني أتعامل مع ما يتراوح من سبع إلى عشر جثث في الأسبوع. كان هناك الكثير من الناس فلم يكن للون الميت أهمية بالغة. نعم لم يزل البيض يجعلون الأولوية لبَنِي لونهم، لكنهم كانوا في بعض الأحيان يهيئون جنازة ثري إفريقي. ظل الأفارقة يتعاملون حصريًا مع الأفارقة فلم يكن هناك نقص في الجثث السوداء أثناء الحرب. أما أنا، فكرجل ملون سُمح لي بالعمل على

الأفارقة وفقراء البيض أيضًا. لا أنكر أن الأمور أصبحت صعبة إلى حد ما، لكن ظل بإمكاني القيام بالأمر بمفردي، وإن لم يعد لدي الوقت للمساعدة في عملية الدفن. كنت في كثير من الأحيان أول من يغادر. لكنني أبقى دائمًا حتى يتم إنزال التابوت في القبر. في منتصف الثمانينيات كان عليّ أن أستعين بمساعد، لأنني، فجأة، أصبحت أجهز عشرين إلى ثلاثين جنازة في الأسبوع. حينها توقفت عن الذهاب إلى المقبرة بالكلية، وتركت كل ذلك للمساعد. حينها حسبت أني وصلت إلى الطاقة القصوى، ولكن الآن أصبحت دار ميندیلسون للجنائز بمثابة مصنع. لديّ عشرون موظفًا. وكل هذا بفضل فيروس نقص المناعة البشري والإيدز. تدهورت المدينة. وتدهورت الدولة. أغلقت المصانع، وانتهى أمر السياحة. معدل البطالة وصل إلى ثمانين في المائة. لم يعد هناك مال في الجيوب، ولا في حسابات البنوك. لكني لم أتأثر. فالموت تجارة رائجة. لم ألمس جثة لما يزيد على عشر سنوات، ولكن معي من المال ما معي، بفضل الجثث. لم أحسب قَطّ أني قد أقول هذا، ولكن هناك ما يمكن أن يُوصف بأنه موت أكثر من اللازم. وأنا أقول هذا وأنا حانوتي. إن موتًا كثيرًا كهذا ليس في صالحنا، لا في صالح المدينة، ولا في صالح الدولة. لا يمكن أن يكون هذا في صالح أحد...

يشير الحانوتي إلى شيء على الرصيف، ويتابع حديثه: - لا يرى المرء ذلك كل يوم. كان هناك زمن يتوقف الناس فيه عندما تمر جنازة. أتذكر ذلك؟ كانت السيارات تتوقف. كانت الدراجات تتوقف. كان المشاة يتوقفون. كان الرجال يخلعون قبعاتهم، ويضعونها فوق قلوبهم. يلقون تحية الوداع الأخيرة. لم يعد أحد يفعل ذلك. أعتقد أن الجميع مشغول بدفن موتاه. قطعًا لم يعد المرء يرى من ذلك شيئًا. في يوم من الأيام كان هذا الأمر يتم على ذاك النحو. باحترام.

ينظر فيدا في الاتجاه الذي أشار إليه الحانوتي. وهناك، عبر الشارع، وسط كل الصخب والضجيج والرائحين والغادين، يرى رجلًا واقفًا، يحسبه أغلب الناس متشردًا، يراه، واقفًا، قد خلع قبعته عن رأسه، ووضعها على قلبه. ويرى تحت ذراعه، صحيفة مطوية بعناية، يعرف فيدا أن لغزي الكلمات المتقاطعة بها، سهل ومعقد، محلولان على نحو صحيح، وأنيق.

يقول فيدا:

- أوقف السيارة.

- أنا أقود الموكب، وهناك كثير من السيارات...

- من فضلك أوقف السيارة.

يخرج فيدا من موكب الجنازة، ويعدو عبر الشارع، وهو يعلم جيدًا أن الرجل قد لا يتذكره.

- دافيد.

يتناول الرجل الصحيفة من تحت ذراعه، ويبسطها. العنوان الرئيس: «إيموجين زولا نيوني تحلِّق بعيدًا».

- آسف على خسارتك.

لا يذكر فيدا أن دافيد قال كلمات سوى هذه. يكون دافيد هو من يعود به إلى عربة الموتى. ويكون هو من يجلس إلى جواره بجانب التابوت، الذي وُضعت فوقه باقة من الزهور أعدتها مينينشي بعناية. حقيبة جيني في التابوت. وفيه، وسط ملابس طفولتها، بينيلوب، وسبيكس، وخفا (بلو) الحريريان.

يفتح فيدا التابوت، ودافيد بجانبه، ويأخذ الحقيبة. إن كان هناك شجاعة في ترك جيني ترحل، فإن من الشجاعة أيضًا ألا يتركها ترحل، كلها.

- لقد أتموا الأمر.

هكذا يحدِّث ماركوس نفسه وهو يشاهد التراب يحثى فوق التابوت مجرفة مجرفة. يتساءل ماركوس، وليس للمرة الأولى، إذا ما كانت جيني تنتمي إليهم. الانتماء.. هل هو عاطفة؟ هل هي طريقة للوجود؟ هل هو عمل يقوم به الإنسان؟ لقد شعر أنه ينتمي إلى جيني طوال هذه السنوات، لكنه الآن لا يدري أهو شيء شعر به، أم شيء كانه، أم شيء قام به؟

ينظر إلى عائلته. أبوه، وأمه، وأخته، وجدّته. تضع كريسِل رأسها على كتف أمها، وقد أغمضت عينيها. يبدون جميعًا منهكين، يبدون جميعًا كما لو أن شيئًا ينقصهم. يبدون كحالهم منذ أن أخبرهم دينجاني بما فعل في عام 1987. كلهم صامتون. الصمت أصبح رفيقًا مألوفًا.

يرى، أكثر من أن يشعر، يدًا في يده. ينظر إلى صاحب تلك اليد. إنها زوجته، إيزميه.

هذه هي عائلته. هشّة. هذا هو ما ينتمي إليه.

يجد ماركوس نفسه يقود الموكب وهو يخرج من المقابر، ولكنه لا يشعر بالرغبة في العودة إلى المنزل. المنزل. تلك البناية ذات الجدران المتشققة. الساحة التي اجتثت منها أشجار الجكراندة. العائلة التي لم تعد جيني في وسطها.

ينظر إلى عائلته، وتعتريه رغبة ملحة. إن هناك مكانًا عليه أن يراه. مكان على عائلته أن تراه. يشعر أن عليهم أن يروه الآن أكثر من أي وقت مضى. وبغريزته، يعرف أن رؤية هذا المكان قد تكون الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يشد أزرهم.

يغير طريقه.

ولدهشته، يتبعه الموكب الجنائزي بأسره: مينينشي تيكيتي، وموردخاي جاتيرو، وجيستينا إنزومالو، وفالينتاين تاناكا، وبيكيثيمبا نياثي، وكوكي كارمايكل، وبياتريس بيت بوفورد، والطبيبة بريسكا مامبو، و(ذا سيرفايفرز)،

وقدامى المحاربين، وستيفانوس وماتيلدا، ودافيد حلّال الألغاز، والسيد ميندیلسون الحانوتي، وفيدا دي فيلييه.
وعندما يصل الموكب إلى شلالات فيكتوريا، ويقف عند ضفاف نهر زامبيزي العظيم، يشق السماءَ فجر يوم جديد. يقفون جميعًا هناك، يشاهدون الشمس وهي تفعل ما تفعله دائمًا –تُقبل من الشرق، مليئة بالوعود (تحمل ما تحمل من الآمال والوعود).
يقف رجل طويل، بالغ الطول، عليه قبعة وقميص فضفاض يشي بأنه أحد الأشياء بالغة الندرة في هذه الأيام –سائح– يقف على بعد مسافة معتبرة من المجموعة متعددة الألوان. يعلم الرجل أنهم في انتظار شيء ما، ربما طقسًا إفريقيًّا سيسعده الحظ بأن يلتقط له صورة بالكاميرا التي تتدلى على صدره. يرمش الرجل مرة. يرمش مرتين. يرمش ثلاث مرات.
- كريسِل؟
يقولها الرجل، مترددًا، محاولًا ألا يزعجهم.
تستدير كريسِل، وترمش له، ليقول الرجل، مؤكدًا: - كريسِل ماسوكو؟
فتسأله كريسِل، وهي لا تصدق عينيها: - زاندر دنجرفيلد؟
يعلوه السرور، ويقول:
- تذكرينني.
وتسأله كريسِل، ولم تزل مندهشة: - ماذا تفعل هنا؟
- ارتأيت أن أرى الأمر بنفسي.
- ترى ماذا؟
- انتظري.
يربت على جيوبه، ويقول:
- آها!
بنبرة من الفرح، وهو يُخرج شيئًا من جيبه الخلفي: بطاقة بريد من شلالات فيكتوريا. وعلى ظهرها، بخط يد جيني، تلك الكلمات: - تذكر، سيكون هناك وقت للأفيال السابحة.
تسأله كريسِل، ويداها ترتعشان: - كيف؟ كيف أمكنها أن تعرف؟!
يرمش لها زاندر، وتتابع هي كلامها، دون أن تنتظر الرد: - لا يهم كيف عَرَفَتْ.. لا يهم بالمرة.. ما يهم هو أنها هنا الآن.
تقولها كريسِل، وهي تسير معه نحو الناس المنتظرين على الضفاف.
وفي تلك اللحظة، يظهر، يظهر بكل عظمته، وجلاله: سرب من الفيلة، يثير الغبار على نحو رائع، في الصباح الباكر لأشعة شمس السافانا. يرفع قائد السرب خرطومه ويصدر نهيمًا مهيبًا. تتوقف الفيلة، واحدًا واحدًا على أحد جانبي شلالات فيكتوريا. وحينئذ يغوص الفيل قرب شلالات فيكتوريا. ثم يغوص

قرب البقعة التي تندفع فيها المياه فوق الحافة. يحبس الجميع أنفاسهم. النهر العتيق، والحيوان العظيم، في تناغمٍ تام، طقسُ عبورٍ قدَّسَتْهُ جرأتُه. إن بالأمر شيئًا عجيبًا.. إمكانية ما يبدو مستحيلًا.. وهناك كذلك شعور بأنه يمنحك معرفةً.. فتصبح أكثر درايةً بموقعك من العالم، وبأنك لست سوى ذرة في الخطة الكبرى للأشياء، مجرد ذرة صغيرة، وتدرك أن هذا كافيًا. فهي معرفة تأتي ومعها الحرية، بل والجمال كذلك. إنها ذلك النوع من المعرفة التي تحرك. ذلك النوع من المعرفة الذي يمنحك القدرة على الطيران. عليك أن تجرب هذا بنفسك.

وفي السماء تحلق طائرةٌ، ويومض جناحاها الفضيان في سماء من ذهب.